

عباس محمود العقاد

حياة وقت

دار المعارف



حَيَاةٌ قَلْبُ

عباس بن محمود العقاد

حياته قلبه



دار المعارف

تقديم

بقلم : طاهر الطناحي

الآن سبق وصدر كتاب « أنا » لفقيد البيان عباس محمود العقاد . . وقد حوى أربعين مقالا تناولت حياته الشخصية بما لها من صفات وطباع وخصائص ، وتربية أدبية وفكرية ، وبما طبع أو انطبع في نفسه من إيمان وعقيدة ومبادئ ، وبما تأثر به من بيئة وأساتذة ، أو بعبارة جامعة : « عباس العقاد الإنسان » . . !

وكنيت ألمعت في مقدمة « أنا » إلى أن حياة العقاد لها جانبان تاريخيان : جانب شخصي إنساني ، وجانب اجتماعي عام ، يتصل بمن عاصروهم وعاشروهم من الناس في حياته الصحفية والأدبية والسياسية . ويتناول الأحداث التي اشترك فيها ، وخاض من أجلها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها منذ بدأ اشتغاله بهذه الصناعة ، وهو في السادسة عشرة من عمره .

وفي منتصف أغسطس سنة ١٩٥٧ م أخذ يكتب عن الجانب الاجتماعي والسياسي من حياته بعنوان « حياة قلم » . فكتب عدة فصول بدأها بولادة هذا القلم في أسوان ، وتحدث عن ظروف هذه الولادة ، وعن الجيل الذي ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم « عبد الله النديم » في ذلك الحين ، ثم تحدث عن الصحافة قبل خمسين سنة ، وعن موزعي الجرائد ، وفي مقدمتهم المعلم « عكريشة » ، وعن أحاديثه مع الساسة من الوزراء وغير الوزراء ، وكيف شق هذا القلم طريقه ، وما وقع لهذا القلم وصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة في الحرب العالمية الأولى ، وكيف انقطع عنها ، ثم عاد إليها إلى آخر ما تناوله في الفصل الثامن في هذا الكتاب « حياة قلم » حتى انتهت هذه الحرب ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ م .

وهنا وقف عن كتابة هذه الفصول أو المذكرات التاريخية التي تعد بلا شك جزءا من تاريخ مصر ، ومرجعا للمؤرخ فيما عالجته العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التي تناولت نحو

عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه . . !
ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود ، واحداث واطوار ، لهذا القلم في الميدان العام . . فهل عوضتنا كتاباته الأخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

١

الواقع أن حياة العقاد العامة ، أوحيا قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩ م تكاد تكون معروفة لأبناء هذا الجيل من زملائه الأدباء والصحافيين ، ومن السهل الرجوع إليها في الصحف والمجلات التي اشترك فيها ، وعالج فيها ما عالج من موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية ، وقد كان كاتب الوفد الأول منذ فجر هذه الثورة إلى أن اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥ كما سيجيء في «هذه الصفحات . .

وقد كتب عن هذه الثورة ، وأبدى آراءه في رجالها وأحداثها كسياسي مفكر ، وكوطني كبير ، مستقلا عن آراء حزبه ، وإن كان هو كاتب هذا الحزب ، والمؤيد لسياسته التي تتفق مع آرائه في ذلك الوقت ، وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول يقدره كل التقدير ، ويقول عنه ما يرويه لنا الأستاذ كامل سليم سكرتير مجلس الوزراء ، وسكرتير الوفد المصري حين سافر الوفد إلى أوروبا للمفاوضة ، فقد كتب مقالا في مجلة الثقافة في ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠ م بعنوان : «سعد زغلول كما عرفته ، رجلا ، وزعيما ، وسياسيا . . وقد جاء فيه :

«وسألته مرة عن رأيه في كاتب كبير - يعني العقاد - فقال :

«أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع . ما قرأت له بحثا ، أو رسالة في جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الإعجاب . وهو لا يعالج موضوعا إلا أحاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستريد . . وله أسلوب أدبي فريد . . ! !

٢

والذين يراجعون كتاب «سعد زغلول» الذي ألفه العقاد سنة ١٩٣٦ م يستطيعون أن يلموا بتاريخ زعيم الثورة وأحداثها ورجالها وتطوراتها ومفاوضاتها إلى أن توفي «سعد» في

أغسطس سنة ١٩٢٧ م ، ويعد هذا الكتاب من حياته السياسية و « حياة قلمه » وطوره أطواره الوطنية .

ولما توفي سعد زغلول ، وكانت الأحزاب المصرية مؤتلفة مع الوفد ، لم يستمر هذا الائتلاف سوى عام ، ثم ما لبث الخلاف أن عاد بين الوفد وحزب الأحرار الدستوريين . وتولى زعيم هذا الحزب رئاسة الوزارة ، وعطل الحياة النيابية ، وحكم البلاد بيد من حديد ، حتى دعى حكمه باليد الحديدية . ورأى « العقاد » أن مصر في ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتوري ، وكان « موسوليني » قد ظهر في إيطاليا بالدكتاتورية السياسية ، فألف كتابه « الحكم المطلق » في القرن العشرين ، وحمل فيه على هذا الحكم الاستبدادي حملة شعواء ، وأبان فساده سياسيا وعلميا واجتماعيا . وتحدث عن الديمقراطية ونجاحها ، ونجاح الحكم النيابي ، ثم اصدر كتاب « اليد القوية في مصر » سنة ١٩٢٨ وكان الحكم المطلق وقتئذ قد أصبح علوى في بعض البلدان الشرقية والغربية ، وظهر هتلر بديكتاتوريته في المانيا ، فكتب العقاد عدة مقالات ضده ، ثم أخرج كتاب « هتلر في الميزان » ، ثم كتاب « النازية والأديان » . . . !

وكانت سنة ١٩٣٠ م وقد أعيدت الحياة النيابية ، وكان العقاد وقتئذ عضوا في مجلس النواب ، ثم اشيع أن الملك فؤاد سيقيل الوزارة ، ويعطل الحياة النيابية . فوقف على منبر المجلس في إحدى الجلسات ، وتحدث عما يشاع من تعطيل الدستور ، وحل البرلمان ، واحتد في خطابه ، ودفعته وطنيته الجريئة الصريحة إلى أن قال كلمته المشهورة : « إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ، ولا يصونه » . . . !

وكان لهذه الكلمة دويها في جميع الأوساط ، واتخذها المناهضون والملكيون حجة ضده ، وحالة ينصبونها للايقاع به والانتقام من جرائه . ولما كان وقتئذ عضوا في مجلس النواب الذي أعيد بعد استقالة رئيس الأحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد أخذوا يتربصون له حتى عطلت الحياة النيابية في وزارة صدقي باشا ، وكان ما يزال يحرق موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة . . . وذهبوا يجمعون مقالاته المعارضة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب في الذات الملكية » . فحُكم في أكتوبر سنة ١٩٣٠ م وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، قضاه بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان

بالقاهرة . وحينما أفرج عنه في شهر يوليو من ذلك العام قصد فوراً ضريح سعد زغلول وأنشد في مستقبله من الجواهر الوطنية : « على ضريح سعد » التي يقول فيها :

إلى الذاهب الباقي ذهاب مجدد وعند ثرى سعد مثاب ومسجد
إلى مرجع الأحرار في الشرق كله إلى قبلة فيها الامام موسد
نحى من الدنيا التي نستعيدها مكانا من الدنيا له العود أحمد
ثم ختمها بقوله :

وكنّت جنين السجن تسعة أشهر فهأنذا في ساحة الخلد أولد
ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى وفي كل يوم ذو الجهالة يلحد
عدائى وصحبى لا اختلاف عليها سيعهدنى كل كما كان يعهد
وبعد خروجه من السجن ببضعة أعوام استكتبته لمجلة « كل شيء » في « حياة السجن » .
فكتب لهذه المجلة عدة مقالات جمعها في كتاب بعنوان : « في عالم السدود والقيود » .
ولا ريب أن هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامة من حياته وحياة قلمه ، وقد
استكتبته يوما لمجلة « المصور » عن تجاربه في الانتخابات ، وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها .
فكتب مقالا طويلا ، نقّبتس منه ما يلي :

« مارست الانتخابات بأنواعها التي عرفناها في مصر منذ اعلان النظام الدستورى
الحديث ، مارست الانتخاب على درجتين ، والانتخابات على درجة واحدة . واختبرت
الاخفاق في هذه التجارب ، كما اختبرت النجاح بالتركية ، والنجاح بالكثرة الساحقة .
« وفي وسعى أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه الأنواع ، وإن كانت الكلمات
المحققة في شئون الانتخاب أقل من القليل . ! !

« فالحق عندى في الانتخاب على درجتين أنه نظام لازمة له على الاطلاق ، وانما تظهر
صورته في حالتين غير محمودتين : احدهما تدخل الإدارة ، والثانية شراء الأصوات . .
« أما الفوز بالتركية ، فقد طعن فيه بعض الباحثين الدستوريين ، وأشاروا في علاجه إلى
اعادة باب الترشيح مرة أخرى في كل دائرة لم يتقدم لها أكثر من مرشح واحد .
« أما النجاح بالكثرة الساحقة ، فقد عرفت صعوباته الكثيرة ، وعرفت أصعب هذه
الصعوبات . وهو بذل الوعود الانتخابية والسعى في تحقيقها ، وإذا قلت الوعود الانتخابية

فإنما أعنى الوعود العامة ، ولا أعنى الوعود الشخصية . لأننى أعلنت فى كل دائرة تقدمت فيها أننى لن أقبل الوساطة فى مسألة شخصية ، إلا أن تكون تقريرا لحق ، أو دفعا لمظلمة . . »

٣

عاش « العقاد » منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ م - ومنذ قامت الثورة القومية فى سنة ١٩١٩ م بقيادة سعد زغلول - فى جهاد وطنى عنيف ، مؤيدا لسياسته ، فقد كان يقدره ويؤمن باخلاصه ووطنيته ، وكان سعد يحبه ويحترمه على صغر سنه بالنسبة له ، وكانت جريدة البلاغ فى عهده هى جريدة الوفد الأولى ، فكان هو كاتبها الجرىء ، وسهمها النافذ الذى يرمى به الوفد خصومه ، ولم تركأبا سياسيا مثله يكتب كل يوم مقالة سياسية طول اشتغاله بالسياسة إلى جانب ما يؤلفه من كتب أدبية ، وما يكتبه من مقالات فى الأدب والفن والفلسفة والترجمة والتاريخ كل ثلاثاء .

وقد عانى العقاد ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد ، واستمر مع خلفاء سعد فى الوفد مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والمستعمرين ، محاميا عن الأهداف التى قام الوفد من أجلها وهى الحرية والاستقلال واللمستور ، ولم يكن فى تأييده لسياسة الوفد يدافع عن حزب ولا عن آراء زعيم ، لأنه كان يكره الحزبية ، ولم يكن كاتباً حزبيا ، وقد كان يرى أن الوفد فى ذلك الوقت الذى يخوض فيه المعركة يمثل : « عقيدة وطنية » و « فكرة سياسية حرة » ، وأن الصحافة الوفدية التى يكتب فيها هى وسيلة التعبير عن هذه العقيدة ، وتلك الفكرة ، وقد كتب عن العقيدة الوفدية ، فقال : « . . نحن لا نحب أن نعرف العقيدة الوفدية من طريق البرامج والأقوال ، وإنما نعرفها من طريق الوقائع التى تنطق بها أعمال الخصوم ، قبل أن تنطق بها ألسنة الاصدقاء والأنصار . وتتلخص العقيدة الوفدية على هذا المعنى فى عبارة وجيزة هى : « المحافظة على القومية المصرية بقوة الأمة المصرية » . ومن أجل هذا يبغضها أشد البغض كل من يكرهون أن تكون لهذه الأمة قوة تعتمد عليها ، وتقف بها فى وجوه أعدائها ، ولو لم تكن « الوفدية » هى مناط هذه القوة ، لما أبغضها الطامعون فى ضعفنا وعجزنا عن المقاومة والاستقلال بالإرادة ، ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء فى هذه المزية لا بغضهم المستعمرون ومنكرو إرادة الأمة . . »

إلى أن يقول عن الصحافة الوفدية التي كان أكبر كتابها :

« . . إنما تؤدي الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد السياسية ، لا واجب الدعاية الحزبية وما إليها . وما من مبدأ أصيل تدين به صحافة مصرية بريئة إلا والأمة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه إلى اقناع ، أو تذليل . . » .
هكذا كان رأيه في « الوفد » . وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده ، وهو في ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية ، ويؤيد مبدأ وطنيا كان يؤمن به كل الإيمان ، وهو « المحافظة على قومية الأمة بقوة الأمة » لا بقوة أحد سواها .
ولم ينصرف العقاد يوما عن تأييد هذه العقيدة ، ولم يخرج عن سياسة الوفد الذي تأسس وقام على هذه العقيدة ، حتى أصاب الوفد ما أصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية إلى حزب سياسي يقوم على برامج ، ويعتبر الحكم وسيلة لتحقيق هذه البرامج ، ويسعى ما استطاع إلى تولى الوزارة ويتهافت عليها تهافت المستورزين . . !
وفي أوائل عام ١٩٣٤ م نظم العقاد « نشيده القومي » وكان وقتئذ يحرر مقالاته السياسية في البلاغ . وقد جاء في مطلع هذا النشيد :

قد رفعنا العلم للعلل والفدى
في ضمان السماء
أرض الهرم حى مهد الهدى
حى أم البقاء

وعلى أثر نشر هذا النشيد اجتمع طائفة من كبار أدباء مصر ومفكرها ، وأقاموا له حفلة تكريم في مسرح حديقة الأزبكية - برئاسة زعيم الوفد - حضرها جمهور كبير من أعلام الفكر والبيان ، وأعضاء البرلمان والوزراء ورجال التعليم ، وكرايم السيدات ، وكان في مقدمة المتكلمين عن العقاد الدكتور طه حسين ، فألقى خطبة ضافية عن « العقاد ولواء الشعر » قال فيها :

« إنه مهما كرم العقاد ، فإن مكرمه لن يبلغه حقه من التكريم بالقياس إلى إحسان العقاد إليهم . . ! »

ثم يستطرد ، فيقول : « تسألونني لماذا أؤمن بالعقاد في الشعر الحديث ، وأؤمن به

وحده ، وجوانى يسير جدا ، لماذا ؟ . لأننى أجد عند العقاد ما لا أجد عند غيره من الشعراء . . وإن شئت ، فإننى لا أجد عند العقاد ما أجد عند غيره من الشعراء ، لأنى حين أسمع شعر العقاد أوحى أنخلو إلى شعر العقاد ، فإنما أسمع نفسى ، وأنخلو إلى نفسى . . « إنما أرى صورة قلبى ، وصورة قلب الجيل الذى نعيش فيه ، وحين أسمع لشعر العقاد ، إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ، وأتبع المستقبل الرائع للأدب العربى الحديث . . » وبعد ذلك يضرب الأمثلة من « ديوان العقاد » . ويشيد بقصائده ، ولا سيما قصيدة « ترجمة شيطان » التى يقول فيها انه لم يقرأ مثلهما لشاعر فى أوروبا القديمة وأوروبا الحديثة ، ثم يقول فى النهاية : « ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد ، وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه . . ! ! »

٥

وكان خريف سنة ١٩٣٤ م ، وتألقت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة فى ٢٢ نوفمبر من ذلك العام ، بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التى سارت على سياسة اسماعيل صدقى باشا ، وكانت الأمة غير راضية وقتئذ عن سياسة صدقى فى الحكم والحياة النيابية التى قامت على دستوره الجديد ، فلما تولى نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقى باشا ، انتظرت الأمة منه أن يعيد دستور ١٩٢٣ م ونظامه النيابى ، وانتظرت من الوفد أن يطالبه بذلك خصوصا وقد أعلن تأييده للوزارة النسيمة ، ولكن نسيم باشا كان يتباطأ فى الاستجابة لرغبة الأمة . وكما الحث عليه بالرجوع إلى الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٣ م الذى كان خيرا من دستور صدقى باشا ماطل وتغافل ، وأخذ يحكم الأمة حكما فرديا غير دستورى ، وأثارت سياسة نسيم باشا « كاتب الوفد الأول » منذ ظهرت بوادر هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة أشهر ، فأخذ ينقد سياسته ويحذر رجال الوفد من اطاعه ونواياه ، فلم يوافق الوفد على معارضة « العقاد » للوزارة النسيمة التى كان يؤيدها ، ويعلم صلتها بالانجليز . وحدثت مشادة بينهما فى بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التى كانت تملىء هذه الوزارة وكان العقاد يكتب مقالاته وقتئذ فى جريدة « روز اليوسف » ، فاشتدت حملته على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه ، واضطر نسيم باشا أن يصدر فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ م بيانا سياسيا جعل عنوانه :

« بيان للناس » . فكتب عباس العقاد مقالا نشرته روز اليوسف في اليوم التالي بعنوان : « قصة الدستور في بيان نسيم باشا » جاء فيه :

« وإن للدستور في بيان نسيم باشا - على حد تعبير صديقنا الدكتور طه حسين - لقصة ، وأنها تختلف عن كل ما أذاعه المطبلون للوزارة النسيمة والمزرون ، حين طلوعوا علينا بأسطورة منتصف شهر مايو الماضي ومنتهاه ، ثم بأعجوبة الخريف والشتاء . . لكن مالنا وللإنشاء الذي يتطرق إليه التحريف والتصحيح أو الشدة في التعبير والاساءة في التصوير . . وأماننا بيان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع ما يكفي سرده في ترتيب لتقديم القصة للقراء أصدق تقديم . . »

ثم سرد هذه الوقائع التي أحصاها فكانت ثلاثا وعشرين واقعة . وفي مقدمتها : « ولى نسيم باشا الحكم ، وهو لا يقصد إلى إعادة دستور ١٩٣٢ م بالذات ، إذ اكتفى الأمر الملكي الذي استصدره في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤ م بأن يشير إلى أن البلاد سيوضع لها نظام دستوري ، ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الأمر الملكي الصادر له أبلغه المنسوب السامي أن الحكومة البريطانية ترى « إن البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة ، وإن مصلحة البلاد تقتضى عند سنوح الفرصة أن يكون شكل الدستور الجديد ، موضع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة . »

وقد علق العقاد في نهاية مقاله على الوقائع التي تضمنها البيان ، فقال :
« وبعد ، أفليست هذه القصة التي استخرجناها بكل أمانة من بيان نسيم باشا ، مؤيدة التأييد كله ، لكل ما سبق لنا ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الإنجليز ومن الدستور ؟

« وقد قلنا منذ الساعة الأولى أنه قد ولى الحكم متفاهما مع « مستريترسون » على أن يحكم مصر من غير دستور ستين كاملتين ، وإن الدستور الذي يقدم لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٣ م ، بل دستورا جديدا محدودا ! ! » .

٦

لقد أقسم « العقاد » لزعم الوفد في أكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير إلى قلمه الرصاص الذي كان يكتب به مقالاته - وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالاسكندرية - ألا ينتهي هذا

القلم حتى تنتهى وزارة نسيم باشا من دست الحكم ، وقد صدق . . لما كاد يمضى اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦ م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالاقالة وتولت الحكم بعدها وزارة « على ماهر باشا » ١

وأصر « العقاد » على مخالفته لزعيم الوفد فى سياسته التى كانت تهدف إلى تولى الوزارة فى ذلك الحين ، مع مهادنة الاستعمار ، وممالأة مندوب المستعمرين فى مصر ، واشتد فى حملته على الوفد فى معارضته ، واحتد زعيم الوفد ، وهو يجادل فى اجتماع ضمه وضم سكرتير الوفد وبعض أعضائه ، وذكره « بأنه زعيم الوفد » فقابل العقاد احتداده بأشد منه ، وأجابه قائلا : « إنك زعيم الوفد ، لأن هؤلاء الذين حولك أجلسوك على هذا الكرسي ، أما أنا ، فإن قلمي وحده هو الذى وضعنى فى مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الأمة .

وأخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، وبحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة ، وكان قد انفصل قبل ذلك عن عبد القادر حمزة ، صاحب « البلاغ » لخلاف شخصى لا صلة له بالسياسة ، فاتفق مع صاحب امتياز جريدة « الضياء » عبد الحميد حمدى على اصدار جريدته لحسابه ، وكان هو مدير « السياسة » فيها رئيس التحرير « كليم أبوسيف » . وصدر العدد الأول منها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٣٦ م فى ١٢ صفحة افتتحه « العقاد » بمقال ملأ أعمدة الصفحة الأولى بعنوان : « عهد وذكرى » ، جاء فيه ما يوضح فيه خطته ، فقال : « فى هذا اليوم نحن بادئون بعمل جديد ، ومثابرون على خطة معروفة معهودة لزمناها عشرين سنة فى خدمة الصحافة والقضية الوطنية ، فمن الاطالة على حضرات القراء ، أن نفيض فى الشرح ، ونسهب فى العهود والوعود فيما هو معروف معهود . وحسبنا اليوم أن نقول اننا سنمضى على ما كنا فيه ، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، واستغنيا عن الفضول والتكرار ، فإن كان لابد من إيضاح لهذا الإجمال ، فايضاح هذا الإجمال إننا سنعلن ما نعتقد من رأى فى غير محاباة ولا إحجام ، وأتينا لن نتردد فى إبداء الرأى الذى تؤمن به ، كلما وجب إبداءه وتعزيزه ، وإننا منذ اليوم الذى قضت فيه هذه الخطة نفسها بأن نستقل عن جميع الهيئات والأحزاب قد آتينا على أنفسنا ألا يعوق هذا الاستقلال عائق ، ولا يحجبه حجاب نحن قادرون على أن نخطه ونعلو عليه . . فسياستنا فى جميع المسائل والحوادث سياسة قومية تنظر إلى الأعمال ، لا إلى العناوين ، وإلى المبادئ القومية ، والمصالح المصرية ، لا إلى الأحزاب والهيئات . . »

ثم انتقل إلى حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه - تلك الحرية التي حاربها فيها زعيم الوفد وقتئذ . فقال :

« حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه هما المثل الأعلى فيما نتوخاه من عمل صحافي ومن خلق قومي تدن به الأمة ، وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلباً من المطالب ، ولا برنامجاً من البرامج ، ولا وعداً من الوعود ! . . »

« حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه أنفس من الاستقلال ، لأن الأمة التي تملك رأيها ، وتملك شجاعة إيمانها وفكره الخصب ، وأدبه الرائع ، وعلمه الفياض - هي مستقلة فعلاً وحقاً ، ولو احتلتها فيالق الغاصبين . . فأما إذا خسرت الأمة حرية رأيها وشجاعة إيمانها ، فلا خير لها في استقلال ، ولا دستور ، ولا نيابة ، ولا انتخاب ، لأنها تساق سوق العبيد لكل من خطر له أن يسودها من الأقرباء أو البعداء . وتعيش عيشة العبيد ، ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب . . ولا فرق بين عبد مسود ، وعبد مطلق اليدين والقدمين ، لأن العبودية في النفوس والقلوب لا في القيود والاغلال . . »

ثم أخذ يحصي الحقائق التي دافع عنها ، واختلف فيها مع الوفد ، ورأى فيها آراء سديدة صدقتها الحوادث ، وأثبتت صحتها الأيام . ثم قال في النهاية :

« . . نعم ما صنعناه ، ونصنعه في كل حين . وذلك هو العهد الذي نعاهد القراء عليه ، وتلك هي الذكرى التي نعود بها إلى الأذهان والضمائر . . » !

٧

هذه مقتبسات من الافتتاحية التي صدر بها هذا العدد وقد وطد « العقاد » العزم على متابعة إصدارها ، ولكنه ما لبث أن حاربته خصومه بأساليبهم الحزبية ، واتفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهي في المهد . فانصرف « الكاتب الكبير » عن السياسة إلى الكتابة الأدبية وتأليف الكتب كما كانت عادته في كل أزمة يتعطل فيها عن الكتابة السياسية ، فيجد في ميدان التأليف والكتابة في الصحف الأدبية والعلمية مجالاً لعلمه البليغ ، انقطع « العقاد » عن الكتابة السياسية ، أو انصرف عنها حيناً . . ثم كان انشقاق الوفد الثاني بزعامة أحمد ماهر ، وتألف حزب « السعديين » ، وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه

أن يكون رئيساً لتحريرها ، فلم يقبل ، واعتذر بانصرافه عن الكتابة السياسية ، وكان وقتئذ يؤلف كتاب « سعد زغلول » الذى صدر فى ستائة وثلاثين صفحة ، ولما أصدر هذا الحزب جريدة « الأساس » كان محمود فهمى النقراشى زعيم هذا الحزب ورئيس الوزارة وقتئذ بعد مقتل أحمد ماهر ، فألح على صديقه « عباس العقاد » ، أن يحرر فى جريدة الأساس ، فأخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلاً فى آرائه التى يراها فى الأحداث الوطنية والمسائل القومية كعادته فى كل ما يكتب ، وخصص « يوم الثلاثاء » للكتابة الأدبية ، ولكن جهده الأكبر منذ تعطلت جريدة الضياء فى سنة ١٩٣٦ قد انصرف إلى تأليف الكتب وتحرير الفصول الأدبية فى المجلات الشهرية والأسبوعية .

ونستطيع أن نقول أن المدة التى بدأت من سنة ١٩٣٦ إلى ان انتهت بوفاته فى مارس ١٩٦٤ كانت أخصب انتاجاً ، وأكثر تأليفاً من غيرها فى « حياة قلمه » المباركة ، فقد ألف فيها خمسة وسبعين كتاباً من نحو مائة كتاب ونيف ألفها طول حياته . هذا عدا نحو خمسة عشر ألف مقال أو تريد كتبها فى الآداب والعلوم والفنون فى الصحف العلمية والأدبية مما يملأ مئات من الكتب الأخرى إلى ما خلف من مؤلفات غزيرة .

٨

ولقد كان ديمقراطياً فى حياته ، واشتراكياً تعاونياً فى مذهبه ، فقد سئل يوماً : « لماذا هو ديمقراطى ؟ » فأجاب : « لأننى لست بالمدل ولست بالدليل ، ولست بالمؤمن بصلاحيه الاستبداد فى جميع الأحوال ، وهذه هى الأسباب التى تبغض إلى الاستبداد حيث كان ، وتحبب إلى الديمقراطية حيث كانت ، ولو كانت بين أناس لا يستحقونها أحسن استحقاق . » فالحرية فى أقبح أوصافها خير من الاستبداد . . وقد شيع العالم من عيوب الحكم المطلق ألوماً بعد ألوف من السنين . . .

وقال عن مذهبه الاشتراكى من مقال كتبه فى ذلك : « إنه هو اشتراكية التعاون التى تحادها ولاه الأمر فى وطننا ، لإصلاح المجتمع بتحسين معيشة العامل والفلاح ، وتحديد الثروة على أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الأمة وهى اشتراكية تؤتى ثمراتها على التحقيق ، كلما

تتابعت بها التجربة بعد التجربة ، على أساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال ، واطلاق النشاط الحر ، والكفاية الضرورية في ميادين العمل كافة . . . »



وقد كتب في عهد ثورتنا الحاضر مقالات عن العروبة والعرب والسياسة العربية من جوانبها العامة ، وكتب عن كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر مقالا ضافيا قارن فيه بين الثورة الفرنسية والثورة التركية ، والثورة الصينية ، والثورة المصرية ، ثم قال عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر :

« . . وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا ، وثورات غيرها نرى أن التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الأصول الكبرى .

« فقد قرأت الصفحات الثمانين التي كتبها الرئيس جمال عبد الناصر في كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت منها وأنا أعتقد أن الخلاف عليها أقل خلافاً في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا الموضوع .

« صواب ولا شك أن الحركة المصرية ، لا توصف بأنها تمرد عسكري .
« وصواب ولا شك أن الحاضر يعيش ببقية من مساوئ العهود الماضية ، وهذا هو باب الأسف والأسى ، ولكنه كذلك باب الأمل والعزاء ، لأنه يدفع اليأس من النفوس إذا عولج ، فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح « إذ لم يكن يمكن في غمضة عين أن تروى رواسب قرون » .

وصواب كذلك ، أن الشك آفة معطلة للجهود معطلة للأفكار والآراء ، فليس الانصاف وحده بالذي يشفع لأصحاب الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد أجيال وأجيال ، ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيح البليغ الشفيح الانصاف .

« يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر : (كان من السهل وقتها ، وما زال سهلاً حتى الآن أن نريق دماء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ، ونرغمها على أن تبتلع شهواتها واحقادها وأهواءها . . .)

« ثم يقول : (. . . ولكن أية نتيجة كان يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا العمل ؟ . كان من

الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار).

« نعم . يكون ذلك ظلما ، ويكون أكثر من ظلم ، لأنه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ، ويطل فائدة العلاج ، ويثس من عقابه . . »
ثم يتناول « العقاد » بعد ذلك سائر ما جاء في « فلسفة الثورة » بالتعليق . . ويقول في ختام المقال :

« . . على أن الصفحات الثمانين التي تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر بالقارئ في حدود الأفق المصرى ، وإن كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية في أوسع حدودها ، فالمصري في عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا إن لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم ، لا انفصال لها من وطنه ، وهى العالم العربى ، والعالم الأفريقى والعالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

« . . أين نحن من العالم العربى ؟

« أين نحن من العالم الأفريقى ؟

« أين نحن من العالم الإسلامى ؟

« نحن فى قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس وسعنا أن نجعل علاقتنا بها ومستقبلنا معها ، يقول الرئيس جمال : (إن نصف الاحتياطي المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية . فنحن أقوياء أقوياء . .)

« ويقول : (إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى الخفيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتى مليون من الأفريقيين ، إننا فى قلب أفريقيا ، والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة . .)

« ويقول الرئيس عن العالم الإسلامى : (حين أسرح بنجالي إلى ثمانين مليونا من المسلمين فى اندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو ، وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة - حين أسرح بنجالي إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخرج لإحساس كبير بالإمكانات

المائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة .
ويعلق « العقاد » على كلام الرئيس ، فيقول :

« وهذا كله صحيح في الجملة والتفصيل ، وليس الاهتمام به من طموح الشباب ، كما يتخيل المتخيل الوداع في عقر داره ، بل أخشى أن أقول إنه من أعباء الشيخوخة قبل أوانها . . بل من همومها في أبنائها ، إن كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ . !
« ماذا نصنع أن جنى البترول على العالم العربي ، فضيعه بدلا من تروييده بأسباب القوة والمناعة .

« وماذا نصنع أن أصبحت أفريقية للمستعمرين الأوروبيين ولم تصبح في الغد القريب أفريقية للأفريقيين .

« وماذا نصنع أن تهدم معنى الحياة ، كما تمثله المادية الحيوانية ، أو كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين ، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، أو غمار القنوط والحيرة ؟

« فروض جسام . ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام . . !

١٠

ذلك بعض ما جاء في مقال العقاد عن « فلسفة الثورة » ، وهو مقال يعد من عيون مقالاته التي لم تجمع في كتاب ، وقد أثرنا أن نتحدث عنه في هذا التقديم .

أما مقالاته الفلسفية والأدبية والعلمية الأخرى فقد أضفنا بعد الفصل الثامن إلى هذا الكتاب فصولا أخرى تحتوي على « ذكريات شخصية » ومقالات عن « أرض الميعاد » وهي بحوث كتبها بعد زيارته لفلسطين قبل التقسيم ، ومقالات أخرى في الأدب والفلسفة والشعر والدين ، وهذه المقالات اخترناها مما لم ينشر في كتاب من كتبه ، وفي عزمنا أن ننشر من هذه المقالات مجموعات أخرى في كتب ملائمة لموضوعاتها المتقاربة ، أو المتجانسة في الفن ، والفلسفة والعلوم ، والآداب عما قريب ! . .

وقد أنتج في الاثنى عشرة سنة الأخيرة أضعاف ما أنتجه في غيرها من السنين السابقة لعهد

الثورة ، فمذ قامت الثورة المصرية في سنة ١٩٥٢ إلى أن توفي ألف ما يربو على أربعين كتابا ، وهذا يدل على نشاطه الكبير في شيخوخته بعد أن بلغ الثالثة والستين من عمره .
ولقد كانت الدور العلمية والأدبية تسابق إلى نشر مؤلفاته ، كما كانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثه ودراساته ، وكان من عادته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية أن يفضل اقتراح الجريدة أو المجلة في الموضوع الأدبي أو العلمي الذي تريده ، أما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاتها ، لا يقبل من أحد أن يملئ عليه اقتراحا سياسيا يكتب فيه ، ولو كان سعد زغلول الذي كان يقدره ويحبه ، وفي ذلك يقول :

« إنني أفضل اقتراح المقالات الأدبية للمجلات والصحف السيارة لسببين :

« أحدهما أنه يريحني من حيرة التردد بين الموضوعات الكثيرة ، فلا أضيع الوقت بين المناسب والأنسب ، وبين الحسن والأحسن . وثانيهما أن محرري المجلة أو الصحيفة أولى باختيار موضوعاتها وتنسيقها . لأن الكتاب قد يكررون الموضوع إذا اختار كل موضوعه مستقلا باختياره من غير مشاورة ولا مقابلة ، فلا محل للاعتراض على محرر المجلة إذا اقترح موضوعا لكل كاتب يعاونه على عمله ، ولا مساس بكرامة الكاتب من الاقتراح عليه ، بل هو تقيض ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : « اطلب تجد » ويقصدون به القدرة على الاستجابة لكل سؤال .

« وإنني على ترحيبي بالاقتراح الأدبي ، أرفض كل اقتراح سياسي بالكتابة في مسألة من مسائل السياسة وقد كان سعد زغلول رحمه الله - وهو زعيمنا الذي نحبه ونحمله - يعلم ذلك ، فلا يقترح على الكتابة ، ولا الكف عن الكتابة . وغاية ما يستبيحه من طلب الكتابة إذا أرادها أن ييسط المسألة للمناقشة ، ويسمع ما نقوله فيها : فإن وجد أن الرأي متفق مع وجهة نظره قال : « أود أن أقرأ لك شيئا في هذه المسألة » .

« وقد حدث أن اللورد جورج لويدي « المندوب السامي في ذلك الحين » طلب إليه أن يكفنا عن الحملة عليه ، وأرسل إليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد على أن قال قوله المشهورة : « هذا شرف لا أدعيه ، أو تهمة لا أدفعها » .

« ولم يفض إلينا بما حدث إلا بعد انقضاء الأزمة . وقد سرت فيها الأساطيل للإنذار والإرهاب ، أو للتحويل والتثجيل ، وإننا نحمد الله على ما فرق به بين الأدب والسياسة ، فلو لا

ذلك ما طلبنا بأنفسنا اقتراحا في الكتابة الأدبية ، ورفضنا الاقتراح في السياسة وأنكرناه وإن تحركت له الأساطيل . . ١ .

هذا ما أردنا أن نقدم به « حياة قلم » . وأن نتابع أحداثه وتطورات السياسة والأدبية بالإجمال ، بعد ما وقف به الأستاذ العقاد عند ابتداء ثورة سنة ١٩١٩ م ، فقد كان في عزمه أن يكمله ، ولأمر ما وقف به هذا الموقف . .

ويرى القراء فيما قدمنا من صفحات هذا التقديم صورة واضحة - وإن كانت مركزة في لمحات - عن جهاد هذا القلم وصاحبه في نحو خمسة وأربعين عاما من حياته الفذة . . ١ .
فحياة قلم العقاد فذة عظيمة بلا ريب ، ليست كحياة أى كاتب أو أديب في عصره .
ويزيد هذه الحياة قيمة ومكانة أن صاحب هذا القلم كان عصاميا في نشأته وجهاده ، وأنه في كل ما حصله من علوم وفلسفة وآداب ، كان أستاذ نفسه وولى أمره ، ومدرسة فكرية جامعة ، ومكتبة نفيسة حافلة بالاطلاع الواسع .

وقد زود اللغة العربية وعلومها وآدابها بثروة قيمة إلى ثروتها الكبرى ، ولو أن كتابات العقاد ومؤلفاته ، فقدت من المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لا تعوض ، لأنها عصارة فكر قدير ، وحصيلة فرحة خصبة ووليدة ثقافة أصيلة ، وإنتاج ذهن عبقرى ، عاش صاحبه أديبا مجاهدا ، وعالما مفكرا ، ومؤلفا غزير الإنتاج واسع الاطلاع ، وفيلسوبا سامى المبادئ ، عظيم الأهداف . . ١ .

طاهر أحمد الطناحي

ولادة قلم

ألا أعرف نفسي ؟

سؤال نسمعه كل يوم ولا نجيب عنه ، ولا يجيب عنه قائله ، لأنه في عرفنا جميعا غنى عن الجواب ، أو جوابه بلسان الحال يغنى عن جوابه بلسان المقال ، وكأننا نقول لكل من يسأله : عفوا . . كيف لا تعرف نفسك ؟ . . تعرفها بالتحقيق ! ومع هذا أقول بعد تجربة طويلة للبواغث النفسية التى تدفعنى إلى أكبر الأعمال وأصغر الأعمال على السواء :

إن الإنسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق ، وأنه كثيرا ما يكون تخمينه عنها غريبا يبحث عن سر غريب ، ولا فرق في هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا إلا في الدرجة والمقدار ، بحكم العادة والتكرار .

حديث مع نفسى ا

إننى أعمل في تحرير الصحف من خمسين سنة ^(١) ، وكنت أكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة . . وأزيد القارئ فأقول : إننى منذ بلغت سن الطفولة وفهمت شيئا يسمى المستقبل لم أعرف لى أملا في الحياة غير صناعة القلم ، ولم تكن أمامى صورة لصناعة القلم في أول الأمر غير صناعة الصحافة .

ولكننى مع هذا اسأل نفسى الآن كما سألتها من قبل : لماذا اخترت هذه الصناعة دون غيرها في طفولتى ، وجعلتها أملا من آمال الحياة الكبرى . . بل أمل الحياة الأكبر ؟ فلا أدرى باعث هذا الاختيار على سبيل التحقيق ، ولا استغنى فيه عن التخمين أو التخمين الكثير ، بعد المقارنة بين ذكريات الطفولة وملايساتها وبعد الترجيح من هنا والشك من هناك ، كما يفعل

(١) كتب هذا الفصل - وهو أول فصول حياة قلم - في أغسطس سنة ١٩٥٧ .

الباحث في السير والتراجم حين يعتمد إلى التخمين عن حياة الآخرين .
وأكثر من هذا إنني « أضبط » نفسي وهي تروغ مني وتحاول أن تقنعني بوجهة غير الوجهة
التي تعنيها أو تعني ، ثم نتلاقى مبتسمين ، وأكاد أسأله : أنت هنا ؟ وتكاد تسألني :
وها أنت يا صاح ؟ .. ثم لا نلبث أن نعلم أننا لم يفهم بعضنا بعضا من الكلمة الأولى ، وإننا
نحتاج بعدها إلى كلمة أو كلمتين نثوب بعدها إلى التفاهم والاتفاق .

* * *

قلت : إنني لم أعرف لي في طفولتي أملا غير صناعة القلم .
وهذا صحيح . .
وهذا غير صحيح . . !
صحيح إذا نظرنا إلى الوجهة القصوى في نهاية الطريق .
وغير صحيح إذا نظرنا إلى عطفة هنا أو منحرج هناك أو زقاق بين بين في أثناء الطريق . .
كلا ! بل تمتعت حيناً أن أكون جندياً ، وتمتعت حيناً آخر أن أكون عالماً زراعياً ، وهما فيما
يبدو صناعتان متباعدتان !
ولكنني لم ألبث أن علمت أنني تعلقت بالجندي لأنني أريد صناعة القلم ، وتعلقت بالعلوم
الزراعية لأنني أريد صناعة القلم ، وإن صناعة القلم كانت تلمحني بعينها الساحرتين من وراء
التقاب وأنا أحسبني أغازل صناعة السيف أو أغازل صناعة المنجل والمحراث . .

حادث مع قومندان الإنجليز :

كانت لعبة الجيوش في أواخر القرن التاسع عشر لعبة الأطفال المفضلة في أسوان ، وكانت
دروب المدينة وحيشان المدارس والمكاتب ميادين قتال لا ينتهي بين جيش مصر وجيش
السودان وجيش الدراويش وجيش الترك وجيش الإنجليز . . وكلهم بين قادة وجنود من صغار
الأطفال الذين لا يجاوزون العاشرة ، لأن المسألة كانت جدّاً - ولم تكن لعباً فحسب - مع
الأطفال في هذه السن على الخصوص . إذ كانوا يسمعون أن الدراويش إذا دخلوا قرية قتلوا
رجالها ، وسبوا نساءها ، وحملوا أطفالها مطعونين على أسنة الحراب ، فلا جرم تشغلهم هذه
الحرب عن شغل من شواغل الخطر والخوف فضلاً عن شواغل الألعاب . .
وما أتمثله أمامي حتى الساعة ، وأبتسم له كلما تمثله - منظر زميلنا المقدم « عبد المعطي

فرج « قائد الجيش السوداني المغير على مكتب « القومندان » في المعسكر الإنجليزي وهو يصيح وأذنه في يد القومندان الجبار :

« مش أنا يا عمى . . مش أنا والله يا ماستر . . ويكاد القومندان يقهقه وهو يدفعه إلى الخارج ويزجره قائلا « سأعلمك كيف تنط يا خنزير ! » .

ذلك اننا في هذه الهجمة زودناها حبتين ، ولعلها زادت في الحقيقة أكثر من حبتين ! . . قرنا - نحن قادة الجيوش المصرية والسودانية - أن نهجم حقا على القومندان الإنجليزي في معقله بجانب المدرسة ، وكان هذا القومندان رجلا صارما يخاف الإنجليز من مرءوسيه ويستعيز من شره أهل المدينة الخاضعون لأحكامه العرفية ، فما هو إلا أن سمع دبة عبد المعطى تحت السور حتى وثب إلى الباب مستغربا أن يجترئ أحد على اقتحام مكتبه هذا الاقتحام في وضوح النهار ، وفتح الله على قائدنا المغوار - عبد المعطى - بالعدو الوحيد الذى لا يقبل التصديق في هذا الحرج الشديد : إذنه بين اصبعي الرجل ولسانه يصيح : إنه ليس هو المقبوض عليه .

على الرابطة !

هذه اللعبة - لعبة الجيوش - كانت شغلنا الشاغل في المدينة التي لا لعب ولا لهو فيها ، وكانت من جانبي أنا على الأقل لعبة عسكرية أدبية في وقت واحد . . لأنني كنت قائد الجيش المصرى الذى يطلب المبارزة من الأعداء ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشهورة في ملاحم شعراء الرابطة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسى على حسب المقام . . وكان زملاؤنا - أو أعداؤنا - يستعينون في تحضير هذه الحماسيات بشعراء الرابطة الذين امتلأت بهم قهوات البلدة في أيام الحملة السودانية وأغناها عن المسارح وملعب البهلوانات والقرقوزات ، لازدحام المدينة بالجنود والباعة من أبناء الصعيد - طلاب هذا الضرب من القصص والأناشيد - ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شاعر الرابطة طلبها في بيت هنا أو قطعة هناك من كتب المحفوظات أو روايات التمثيل ، وفيها الكثير من مواقف الفخر والحماسة أو مواقف التخويف والتهويل . .

وكنت أنا قد جربت نظم الشعر في بعض المقاصد المدرسية ، فشجعتنى التجربة على نظم الأناشيد الحماسية لميدان المبارزة ، وأردت أن أثبت للسامعين اننى صاحب تلك الأناشيد

فالتزمت في نظمها أن أذكر اسمي كاملا في كل قطعة منها ، وانتصرت بها انتصارا أعظم من انتصار القتال ، إذ أوشكت المناوشة كلها أن تنحصر في الاستماع إلى قصائد الفخر والحماة بغير قتال . .

وانتهت مدنى في الجندي بنهاية هذه الجندي المتطوعة ! ! . فلم يعسر على أن أفهم أن حماسة النشيد هي بيت القصيد عندى من الجندي والتجنيد ، وأنها كانت منفسا للملكة الناشئة التي لم تستقر بعد على قرار . .

سر الولوج بالزراعة :

أما الولوج بالعلوم الزراعية ، فلم ألبث أن علمت أنه في دخيلته ولع بتطبيق الأشعار التي أقرأها عن الأزهار والمصافير والحدائق وجداول الماء والأنهار . . وربما كان مدخلها إلى نفسى أعمق من ذلك وأخفى مكانا على النظرة الأولى التي نظرتها بها يوم ذاك ، فإن علوم الزراعة تعين على مراقبة أطوار الحياة وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك الغرائب والأطوار ، ولا أراى حتى الساعة أوثر كتابا في سيرة علم من أعلام التاريخ على كتاب في طبائع الأحياء والحشرات أو آثارها القديمة في بقايا الحفريات . . كانت أمنية الجندي وعلوم الزراعة إذن ترجمة لأمنية الكتابة مستعارة في صور الصناعات الأخرى ، وبخاصة حين نذكر أنها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والأحياء . .

ومثل هذه الترجمة فيما أظن معهودة في كل محاولة ناشئة قبل أن تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشئ يتمنى شيئا بعد شيء ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الأخير . . ويومئذ يعلم أنها كانت جميعا أمنية واحدة في باطنها ، وأنه كان بينه وبين نفسه في هرب ولقاء كأنها في طراد البحث والاستخفاء .

أول مجلة :

وأحسبني حتى الساعة لم أبلغ من معرفة الباعث الصحفي في نفسى مبلغ اليقين الجازم الذى لا رجعة فيه ولكننى على يقين جازم من أننى انشأت صحيفة في طفولتى الباكرة ، وأننى لم أنشئها قبل أن أطلع على ودائع دولاب المتظرة في بيتى ، وأكثر ما فيه صحف أسبوعية أو شهرية قديمة ، وأكثر هذه الصحف القديمة من مجلات عبد الله نديم ، وليس بينها أكثر

عددا ولا أكبر حظوة عندى يومذاك من مجلة « الأستاذ » .

ودولاب المنطرة مستودع عزيز يعرفه أبناء الريف ولا تخلو منظره في بلدة ريفية من دولاب منه على الأقل ، يفرغ في جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح أو بغير مفتاح ، ويغلب أن يكون الباب بغير مفتاح لأن الودائع التي يحرص عليها أصحابها لا تودع في المناظر على متناول الداخل الغريب .

وعلى تعداد الصحف في دولاب المنطرة عندنا لم تكن بينها صحيفة أبرع في العناوين من صحف عبد الله نديم ، وكان هذا الصحفي المطبوع أستاذ زمانه ، بل لعله أستاذ من أساتذة العناوين في كل زمان . .

من عناوينه عنوان « كان ويكون » للترجمة ، وعنوان « التنكيت والتبكيك » لاسم صحيفة ، وعنوان « المسامير » لكتاب هجاء ، وعناوين أخرى بهذه البراعة لعشرات من الفصول والأخبار .

معارضة النديم ١

ولفتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ، ووجدتني ذات يوم أقطع الورق قطعاً على قدر المجلة وأعمد إلى مكان العنوان منها فأكتبه بخطى متأنقا وأعارض عنوان « الأستاذ » بعنوان « التلميذ » .

أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضاً من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التي تردد صداها زماً في البيئات المصرية ، وهي المقالة التي جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الأولى .

فكتب مقال الافتتاحي وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم » .

وكان فحوى مقال النديم اننا نطلب الاستقلال وندعى اننا والأوروبيين أشباه وأمثال ، ولكن الأوروبيين ينكرون هذه الدعوى ، ولا يكلفون أنفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم ، فإذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا تلك دعواكم ، ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا . .

واستغرقت مقالة النديم أكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله : « إن آخر اللواء الكى وقد بلغ السيل الزبى فإن رفأنا هذا الحرق وشدنا أزر بعضنا . . أمكننا أن نقول لأوروبا نحن

نحن وأنتم أنتم ، وان بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقا بعد فريق حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا إلى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشى وتصدق فى قولها : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

* * *

وتناولت فى مقالى فقرات النديم واحدة واحدة بردود لا أذكرها الآن ، ولكنى أذكر منها ما يدل عليه العنوان ، وفحواه إننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم - أيها الغربيون - فأنحن متصيرين لما فعلنا فعلكم من نهب الأموال واستباحة الحقوق وإفتراء الأكاذيب والتعلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد أن نفعل فعلكم ، وسترون فعلنا عما قريب . . ثم أصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زملائى فى المدرسة وأقاربى المشجعين أو المتندرين المتفككين . ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن . .

عادة . . من أيامها !

أخافنى الآن على حق إذا قلت إن هذا السر - سر دولاب النظرة - هو كذلك سر الاتجاه الأول عندى إلى صناعة القلم ، ويؤيد هذا الظن الراجح أننى تعودت من أيامها عادة لم تفارقنى إلى اليوم فى تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة . . فهذه الورقة التى اكتب عليها الآن مقصورة على النحو الذى اخترته لصفحات مجلة « التلميذ » . . . ومتى كتبها طويتها طولاً كما تطوى المجلة ووضعتها فى غلاف مستطيل كالغلاف الذى توضع فيه المجلات ، وقد اتخذت من هذه الأوراق ومن ذلك الغلاف ذخيرة حاضرة أوصى بصنعها إذا نفذت من السوق ، كما تنفذ أحيانا فى بعض أيام الحروب العالمية .

* * *

وعلى هذا النحو من التخمين نعرف أنفسنا باحثين مترددين ، قبل أن نصل إلى اليقين ، ان وصلنا إلى يقين . .

لكننى لا نقول كلمة سمعتها من صديق كان يناقشنى كلما تساءلت عن سر اتجاهى إلى صناعة القلم فيقول : وهل من حاجة إلى البحث عن سر لهذا الاتجاه ؟ الا يكفى انك أنست من نفسك القدرة على الكتابة فاتجهت إلى صناعة الكتابة ؟ . .

ولست على رأى الصديق فى هذا التعليل لانتجائنا النفسية ، فإن الملكة النفسية تخلق فىنا قبل أن تخلق لها أدواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندى نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئاً إلا لأننى سأكون كاتباً يوماً من الأيام متى تيسرت الأداة .
على أن شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يأبى عليه أن يتمنى الوزارة أن يتمنى الوجهة الاجتماعية أو يتمنى صناعة القلم مبتدئاً بعمل من الأعمال الكتابية غير الصحافة ، ولست أعتقد أن مثات الأطباء والمهندسين والصناع وذوى الملكات المتنوعة الذين ظهروا من أبناء جيلنا قد استلهموا اختيار صناعاتهم من وحى القدرة على علم من علومهم المدرسية ، بل لعلهم توجهوا وجهتهم فى مستقبلهم على الرغم من جميع تلك العلوم . .

جيل وجيل

كان عبد الله النديم أستاذ مدرسته فى الصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بقليل بين واحد من اثنين : إما تلميذ يقتدى به ، وإما خصم يبغضه وينحى عليه . .
ونشأ مصطفى كامل فى هذه المدرسة ، وكان خصوم النديم يزعمون أن الحديو لم يعرض عن الأستاذ ويقبل على التلميذ إلا لأن أبناء الأسرة الحديوية غضبوا لتفريه رجلاً كان يحاربهم فى الثورة العراقية ويعمل على تقويض عرشهم ، فاختار الحديو من تلاميذه شاباً بعيداً عن هذه الشبهة وميزه على استاذة لمعرفته باللغة الافرنجية ، وقال ولى الدين يكن فى كتابه « المعلوم والمجهول » :

من أجل هذا قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة على مصر أن مقام الإمارة لا يقرب منه النديم لأنه علو أسرته وجنسه ، وبهذه السياسة المضحكة آل الأمر إلى الاعتماد على « كامل » وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وإنما ميز المقلد عن المجتهد المامه باللغة الفرنسية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك . .

الا أن الأمر لم يكن فى هذه المسألة خاصة أمر اللغة الافرنجية ، لأن الحديو قرب إليه الشيخ على يوسف الأزهرى وهو ممن أنشأوا الصحف منافسة للنديم وتطلعوا إلى محاكاته فى المنهج والأسلوب ، ولكنها مسألة المدرسة الصحفية التى كانت تحمل علم الدعوة أمام الصحافة

المسخرة للدعاية الأجنبية ، ولم تكن هناك مدرسة تحمل هذا العلم في أول عهد الاحتلال غير مدرسة النديم .

ويصدق هذا على جيل النديم والجيل الذى تلاه ، ولكنه لا يصدق على الجيل الذى نشأ بعد ذلك بسنوات ، لأن هذه الفترة قد اتسعت لعوامل جديدة فى السياسة والتفكير تخالف العوامل التى غلبت على الثورة العربية أو على جيل المخضرمين بين الثورة والاحتلال .

أنا . . والنديم

ولهذا أرجع إلى ظواهر كثيرة صاحبت نشأتى الصحفية فلا أستطيع أن أقول إننى على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم ، وإن كان النديم أول من لفتنى إلى العمل فى الصحافة وكانت مطالعته أول مطالعة وجهتنى إلى هذه الصناعة . .

لا بل هناك مشابهات عديدة بين النديم وبينى لا أدرى هل جاءت من وحي القدوة الحفوية أو جاءت مصادفة بغير قصد منى ولا من أحد . .

فقد تعلمت صناعة التلغراف كما تعلمها النديم ، واشتغلت بالتعليم فى مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجريت الاستخفاء على الطريقة البوليسية أكثر من مرة فى إبان الحرب العالمية الأولى ، وكذلك فعل النديم عند مطاردته فى أعقاب الثورة العربية . .

ولكننى - مع هذه المشابهات - لم أشعر من قبل ولا أشعر الآن بأن الرجل قدونى المختارة بين أمثلة التبوغ التى اتناها أو بين « الشخصيات » المثالية التى أجعلها وأحب أن أنتمى إليها . . وأحسب أن المرجح فى هذا الاختلاف إلى سببين : أحدهما يرجع إلى الأحوال العامة ، والآخر يرجع إلى المزاج الشخصى الذى فطرت عليه . .

فالأحوال العامة فى عصرنا تحالف الأحوال العامة قبيل الاحتلال أوفى الفترة بين الثورة العربية والاحتلال ، لأن دخول الإنجليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية عملاً « قانونياً » يصح الاعتماد عليه باعتبارها صاحبة السيادة القانونية على الديار المصرية ، وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار باباً مفتوحاً على مصراعيه يتسع للمساومات والدسائس والمعاكسات ويتعلق الأمل به من جانب المصريين ، ولو إلى حين . .

وهذا فيما نظن أحد الأسباب التى تحولت بأنظار عبد الله النديم وتلاميذه إلى الدولة

العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما في برنامج مصطفى كامل والحزب الوطنى الذى قام على يديه . .

أما فى عصرنا - نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال - فقد أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائنا الوطنية التى لا عمل فيها للدولة العثمانية ولا للمناورات الدولية ، وإنما يقع العبء الأكبر فيها على عواتقنا نحن المصريين . . فلا يجوز لنا أن نفرط فى مبدأ الاستقلال من أجل صيغة « شكلية » لا تفيدنا فى جهادنا إن صح أنها كانت تفيدنا قبل ذلك . .

هذا هو سبب الاختلاف بين جيلنا وجيل النديم فيما يرجع إلى الأحوال العامة .
وأما سبب الاختلاف الذى يرجع إلى المزاج الشخصى فخلاصته فى كلمتين : إن الرجل كان يترع كثيرا أو قليلا إلى شىء من التهرب ، وإننى نشأت فى بيتى البيتي بين أبوين محافظين أشد المحافظة على سمى الوقار و « اللياقة » ونقلت هذا الخلق منها بالوراثة كما نقلته بالقدوة والمحاكاة . .

كل الناس . . ولا عباس !

وبما يحضرنى من ذكرياتى فيما دون العاشرة أننى رفضت كل الرفض أن ألبس البظلمون القصير يوم دخلت المدرسة فى نحو السابعة من عمرى ، وإننى رفضت أشد الرفض أن أجيء نداء المعلم حين دعانى باسم « عباس حلمى » جرياً على تقاليد ذلك العهد التى بقيت إلى الآن فى أسماء المعاصرين . . فلم يكن أحد من التلاميذ يدعى باسم أبيه ولكنهم كانوا يلقبون بألقاب حلمى وصبرى ولطفى وحسنى وشكرى وما شاكلها على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه فى الاسماع ، فبقيت واحداً من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين أبناء ذلك الجيل ، ولولا اصرارى على رفض اللقب المستعار لكان اسمى اليوم « عباس حلمى محمود » كما كتب فى قائمة « التصنيف » أى توفيق الأسماء والألقاب . .

وإلى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا فى الأسرة كلمة الأمهات التى كن يرددنها لأطفالهن كلما أصابهم ما يسوءهم من التورط فى المزاح معى وراء الحد الذى أسيفه ، فإذا ذهبوا إلى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذى يقال بين الضحك والغضب : امزح مع من شئت يا بنى . . ولكن « كل الناس ولا عباس ! »

ومن الطبيعى لطفل فى هذا المزاج أن ينظر إلى مثله الأعلى فلا يراه فى صاحب التنكيت

والتبكيك وصاحب المسامير ، واحسبني لم أفضل الأستاذ الإمام محمد عبده على صاحبنا النديم إلا لسبب من جملة أسباب ترجع إلى هذا المزاج ، فإن وقار محمد عبده هو القدوة التي ارتضينا حين أنظر إلى النديم فيظفر منى بالثناء ولا يظفر منى بالاعتداء ، وكلاهما فيما عدا هذا الخلق صنوان يستميان إلى الثورة العرابية وإلى مدرسة جمال الدين وإلى العمامة والبيثة الأزهرية ..

مدرستان ! ..

وأيا كانت أسباب الاختلاف بين النديم وبينى ، فالعصر الذى نشأنا فيه لا يسمح لمدرسة واحدة أن تطفئ على أفكار الناشئة فى كل بقعة من بقاع البلاد المصرية .. لأنه كان عصرا مزيجاً مضطرباً بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقها من التفكير الحديث .

كان عصرنا « برج بابل » بينى ويعاد بناؤه بين عام وعام ..

كنا نعيش فى عصر الجامعة الإسلامية على مذاهب ، ونعيش فى عصر الجهاد الوطنى على مذاهب ، ونعيش فى عصر التجديد الفكرى على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذاهباً واحداً فى قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات ..

فالجامعة الإسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ومدرسة الدعاة الرسميين ..

مدرسة جمال الدين تعنى بالجامعة الإسلامية أن تكون جامعة شعوب متيقظة مسئولة عن شئونها مرعية الحقوق مع ملوكها وأمرائها ، فضلاً عن حقوقها مع الطامعين المتربصين بها .. ومدرسة الدعاة الرسميين تعمل للملوك والأمراء وتريد من الجامعة الإسلامية أن تكون وحدة سياسية بزعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلام صوتاً فى مصر من كان يعمل لخليفة بنى عثمان ..

ومدرسة الجهاد الوطنى على هذه الحال :

مذهب يعتمد على تناورات الدول وحقوق السيادة الشرعية ، ومذهب يستضعف هذا رأى ، ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة فى أمر التمويل على السيادة العثمانية ، لأن حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد الانتماء إلى الرجل المريض صاحب الحركة المنتظرة - كما كانت الدولة العثمانية تسمى فى ذلك

الحين - ذريعة إلى ضياع البلد في معركة التراجع على التركة أوفى مساومات التقسيم والتفريق ! . .

بلبال !

ويزيد البرج بلبالا خليط الأصوات المنبعثة من طغمة الدعاة المأجورين المسخرين لخدمة الدسائس الأجنبية . .

فن هؤلاء من كان يضرب المعول في أركان الدولة العثمانية جاهدا مكابرا باسم الإصلاح والثورة على الاستبداد ، وهو في باطن الأمر صنيعة للدول وسمسار من سمسرة الاستعمار الذين يقصدون في الواقع إلى هدم الإسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المستقلة الباقية بين بلاد المسلمين . .

ومن هؤلاء من كان يعلن الغيرة على حقوق مصر والدولة العثمانية ، وهو في باطن الأمر صنيعة السياسة الفرنسية في الشرق يناوئ الاحتلال بأمرها ويورط البلد في المشكلات تحقيقا لمآربها . .

ومنهم من كان يثير دعوة الجامعة الإسلامية ليتخذها وسيلة إلى إيقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تأييدا لدعوى الدول التي تستفيد من همة التعصب الديني ، وتلوح بها لإقناع الأجانب بمحاجتهم الدائمة إلى الحماية من دولة أوربية . .

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لا يطلبه حبا للحرية ولا انصافا للأمة بل تعزيزا لسلطان الخديو . . وتمهيدا لإطلاق يده في ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المنسوب البريطاني ومستشارها في الدواوين . .

بلبال ، وأى بلبال . .

وأشد منه اختلاطا بلبال آخر في ميدان الفكر والثقافة ، يضطرب فيه القول بين تكفير من يعجب بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزدريها بالجهل المطبق والبيمية العجماء ، وسوف نعرض لهذا البلبال الفكري في مكانه من الفصول القادمة . . لأننا نبدأ بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالبة عليها قبيل اشتغالي بالتحريير فيها ، ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات . .

لبال يهون إلى جانبه ضوضاء برج بابل . . فأين يذهب الطفل الناشئ في دروب هذا التيه وزواياه بين مهابطه ومراقبه . . ؟ !

وأنا في السادسة عشرة !

لا أعيد هنا كل ما عرض لي في هذا الطريق من حيرة وشك وعثرات وأزمات . لكنني أعلم علم اليقين أنني كنت على قرار واضح في كل قضية من هذه القضايا حين بلغت السادسة عشرة ، ثم عملت لأول مرة في تحرير صحيفة الدستور . . الجامعة الإسلامية عندى هي جامعة جبال الدين ، أوجامعة شعوب متيقظة متعاونة لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان . . الدولة التركية تمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لا نتمنى سيادتها ولا نستمتع لمن يحاربها باسم الشورى أو القمة على الاستبداد . . الدول الأجنبية لا تتفعنا إن لم ننفع أنفسنا ، وسياسة « مصر للمصريين » هي أقوم سياسة يتبعها المصريون ويهدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب . . الحزب الوطنى حزب مخلص مجتهد ، ولكنه مفرط فى مجاملة « يلدز » و « عابدين » مقصر فى مساعيه نحو « مصر للمصريين » . . الملوك والأمراء يخدمون القضايا بمقدار ما تخدم عروشهم ، فان تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وإن تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القوم . . الحكم الدستورى لا غنى عنه ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الأحوال . .

داخل النطاق :

منذ كتبت في صحيفة الدستور لم تخرج كتابى عن هذا النطاق في قضية من هذه القضايا . . لم أمدح الخليفة « عبد الحميد » إلا فى مناسبة واحدة وهى إعلان الدستور ، ويومئذ كتبت أبياتا أهته بها وأسجل تاريخ السنة بحساب الحروف الأبجدية ، فكان التاريخ هذه الشطرة :

« قد أنشأ الدستور عبد الحميد » .

وبمجموع حروفها بحساب الجمل « ١٣٢٦ » وهي الستة الهجرية التي أعلن فيها الدستور . .
ولما توفي مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور - وهي من صحف الحزب الوطني - برثاء
أبلغ من رثاء صحيفة اللواء ، ولكنني أحجمت عن رثائه بثناء خلو من النقد وأحجمت في
ذلك المقام من نقد سياسته قبل الآستانة وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، وكأشفت
الأستاذ فريد وجدى بحرجى وحرج صحيفته وهي لسان الجامعة الإسلامية الأولى ولسان
الحزب الوطني الثاني بعد اللواء ، فقال لى رحمه الله أنه يفهم هذا الحرج وأنه يقوم غنى بما
أتمناه ، فأثرت الصمت عن الرثاء على ثناء بغير نقد ، أو نقد متحفظ ، متحرج ، بين
مضطرب الآراء . .

* * *

وانقطعت الصلة بينى وبين الصحيفة بضعة أشهر لا أكذب فيها ولا أكذب إليها ، ولكنني
كتبت إليها مقالى الوحيد من الخارج يوم أعلن الدستور في إيران ، وقلت فيه مهنتا للشاه
الصغير : لو كنت في فرنسا لكان مصيرك كمصير الصبي ابن لويس السادس عشر ، ولكنك
تحمد الله لأنك في بلد إسلامى وتحمد لشعبك - ولا ريب - جميل هذا الصنيع
والآن - بعد نصف قرن كامل - أقول إننى قد جربت هذا البرنامج السياسى ، الصحفي ،
في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جميعا . . فحمدت مغبة هذه التجربة ، ولم أجد فيها وجدته
من الحوادث المتناقضة برنامجا أصبح منه ولا أصلح لقضية مصر وقضايا الأمم الشرقية ،
ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطة أهدى منه للعاملين وأحق منه باتباع
المتبعين . .

وبعد ، فإننى لا أحب أن أناق القارئ باصطناع التواضع الكاذب طلبا للثناء
الأكذب ، فأقول إن الحكاية سهلة على كل من يطلبها ، وأنها حكاية يطلبها كل من شاء بغير
عناء . .

الاستقلال . .

كلا ! . . ليس من السهل على كل ناشئ في العشرة الثانية من عمره أن يسلك سبيله بين
تلك القافض والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد إلى الحقيقة واستقلال الرأى

بين شتى الدوافع والمغريات . .

ولكننى أعود فأقول انه لا استقلال للرأى ، ولا استقامة القصد ، كانت كافية لهدايتى إلى سبيل لو لم أستفد من ظروف الآونة التى نشأت فيها وظروف البلد الذى نشأت فيه . .
لقد كانت الآونة فى مصر آونة نادرة ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن فى العصر الحديث : محنة تكوين الرأى جماعات جماعات ، فلا ينطوى الشاب فى جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته التى انطوى فيها يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الأخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وأنه لخاسر مضلل فى كلتا الحالتين . .

وكانت البلدة التى نشأت فيها بلدنى أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ فى مثل سنى أن يأوى بها إلى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر فى كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تفصيل أو تهويل . . وتهب الزوينة القومية فلا تفاجئنا فى وسط غبارها فتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقرب منا رويدا رويدا فلا تصل إلينا حتى تنكشف على جلاء . .

* * *

وهل فى ذلك عبرة ؟ . .

نعم . . عبر قريبة فيما نرى ، فخير ما يصنعه الشاب فى فترة تكوين الرأى أن يروض نفسه سنوات على النظر إلى ما حوله مستقلا عن طغيان الجماعات ، فإذا دخل فى جماعة منها بعد ذلك عرفها بمحاسنها وعيوبها معرفة تميز وتقدير ، ولم يعمل فيها آلة من الآلات . .

قلم يشق طريقه

صحيفة مطبوعة بعد المخطوطة

أصدرت صحيفتى المخطوطة - التلميذ - وأنا تلميذ فى الثانية عشرة ، لم أبرح المدرسة ، ولم أملك فى يدى مبلغا من المال يكفى للتفكير فى طبع ورقة . . إن وجدت المطبعة حيث كنت فى الصعيد الأقصى . . وهى غير موجودة ! . .

لكننى الآن موظف حكومة ، تخرجت من المدرسة الابتدائية واشتغلت بالقسم المالى فى مديرية الشرقية ، وعرفت لى مبلغا من المال أقبضه فى أول كل شهر : خمسة جنيهات ! . . ومن هذه الجنيهات الخمسة أستطيع أن أدخر جنيها فى كل شهر ، وأن أجمع من هذه الجنيهات الملتخنة مبلغا يكفى للإنفاق على العالدين الأولين من صحيفة مطبوعة ، ثم لا حاجة بعد ذلك إلى المال لأن الصحيفة تباع وتأتى بتكاليفها عددا بعد عدد ، أو عالدين بعد عالدين . .

وكنى قد عرفت شيئا عن تكاليف الطباعة فى مدينة الزقازيق عاصمة الشرقية ، لأننى اشتقت إلى بلدى بعد أن فارقها يافعا لأول مرة فنظمت قصيدة على وزن قصيدة « المعرى » التى يقول فى مطلعها :

عللانى فإن يئس الأمانى فنيب والظلام ليس بفان

فقلت فى مطلع قصيدتى :

ذكرانى نعيمها ذكرانى حبذا لو علمتا ما أعانى
وقلت منها أذكر أسوان

« ألىست أرجو عودا إلى أسوان »

ولا يحضرنى الآن الشطر الأول من البيت . .

ورأيت القصيدة من سمعها من الزملاء المتأدين ، فاقترحوا على طبعها ليحفظ كل منهم بنسخة منها . . وتكفل أحدهم بتقديمها لمطبعة المدينة فلم تكلفنا ورقا وطبعنا أكثر من ثلاثين قرشا لمائتي نسخة ، وقيل لنا أنها تكلفنا أقل من خمسين قرشا إذا طبعنا منها مائتي نسخة أخرى فعرفنا السعر وعرفنا الفرق بين تكاليف طبع القصيدة وتكاليف طبع الصحيفة ، وهى فى تقديرنا تقع فى ثمانى صفحات بدلا من صفحتين .

حسبه ميسورة مشجعة ، ومرتب شهر واحد يكفى للبدء فى طبع الصحيفة على بركة الله ! . .

وماذا يبقى بعد الطبع مما يحتاج إلى التدبير والاستعداد ؟ . .
لاشئ ! . .

فالتحرير مضمون بغير كلفة ، لأننى محرر الصحيفة الوحيد . .
والتوزيع مضمون لا خوف عليه ، وكيف لا يكون مضمونا وهؤلاء قراؤنا يتهافون على اقتناء الطبعة الأولى ويستنفدون منها مائتين فى يوم أو يومين ؟

* * *

ومن البديهي أننى لا أصدر الصحيفة وأنا موظف بالحكومة . . ولا أطبعها ، من ثم ، فى الزقازيق حيث طبعت القصيدة .

إلا أنها عقبة هينة لا يصعب علينا تذليلها ، فليس أهون من الانتقال إلى القاهرة بعد الاستقالة من الوظيفة ، وليس أبناء القاهرة بأقل من أبناء الزقازيق إقبالا على قراءة المنظوم والمثور . . وكنت أذهب إلى القاهرة مرة فى كل أسبوع أو أسبوعين ، أشهد التمثيل فى مسرح الشيخ سلامة حجازى ، وأزور حى الأزهر باحثا عن الكتب الأدبية القديمة بثمن رخيص . . فذهبت إلى القاهرة ، وأحببت أن أحقق وأدقق وأستوفى المعلومات اللازمة قبل الشروع فى العمل . . ووقع اختيارى - لاستقصاء البحث فى المسألة - على صاحب مكتبة عظيم الخبرة بالمطبوعات القديمة والحديثة ، كثير الاتصال بالصحفيين والأدباء ، تعودت أن أشتري منه ما أجده عنده وأن أوصيه باستحضار الكتب النادرة من الطبعات المرجوعة . .

والواقع أن « الاستقصاء » الذى عولت عليه لم يكن ليعوقنى عن المضى فيما نويت ، وإنما هو مسألة شكلية على حكم العادة فى الاستشارة والاستخارة . . وليل صاحبنا ما يقول ،

فإننى أعددت الصحيفة كتابة وتقسيما وتبويبا وتسمية وإخطارا للحكومة ، ولم يبق من معدنها شىء غير الطبع والتوزيع . .

* * *

وكنت أتردد بين اسمين : اسم « البيرق » واسم « رجع الصدى » ، ولا أحسبني يومئذ قصدت الفرق بين الاسمين وعנית ما فيه من الدلالة على الصحيفة التى تقود الآراء ويلتف بها الشعراء كما يلتفون بالبيرق ، أو عנית ما فيه من الدلالة على الصحيفة التى تردد أصداء الآراء ولا تريد على عرض الحوادث والأنباء . .

لا أحسبني قصدت إلى هذه التفرقة ، ولكننى انتهيت على غير قصد منى إلى تفضيل اسم « رجع الصدى » على اسم « البيرق » . . وكنت العنوان بخطى ليخرجه الحفار كما كتبه ، بدعة من بدع التجديد فى العناوين ! . .

ولست أنسى نظرة الكتبي العتيق إلى من تحت نظارته الملحومة فى موضعين أو ثلاثة ! . . « ماذا ؟ تترك خدمة « الميرى » وتشغل بالفزازيط والجرائل ؟ إن كنت لا تترك ما أنت مقدم عليه فانتظر هنية لئلا تتركه من هؤلاء « الصائعين » الضائعين يتمنون التراب تحت قدميك فى وظيفتك ولا يصلون إليه . . لا ياصلحى . . إننى أراك أعقل من هذا يابنى . . فلا تخيب أملى فىك ! . . »

ولم يقنعنى كلامه ، لأننى لم أسمع منه جديدا عن خدمة « الميرى » وقداستها فى عرف أبناء جيله ، ولم يزحزحنى تحذيره قيد شعرة عن نية المضى فى الاستعداد والتنفيذ . . وإنما زحزحنى عن هذه النية قيد فرسخ - لا قيد شعرة وحسب - منظر أو منظران من المناظر التى كانت تتكرر فى كل حلقة صحفية ولا يستغرها أحد من المتفرجين لأنها من أدوات المهنة المتفق عليها ومن أدوارها التى تعاد فى كل قصة ، فلا يجهلها إلا الذين يجهلون الصحف والصحفيين أو الجرنالجية وسجاعة الغزازيط ونجار التجريس والتنبيط !

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها الصحف الأسبوعية وكان « مدير » إحدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يجعل بإصدار العدد ويأبى صاحب المطبعة أن يخرج العدد ، ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد السابق الذى صدر قبل أسابيع ، ووقف المدير يتظر وكيفا له أرسله إلى المشتركين للحصول وعاد الوكيل على صورة يقصر عنها أمل التسول الذى يريد أن يبالغ فى إثبات صناعة التسول واستلزار شفقة المحسنين ، والمسيئين ! . .

فصاح به المدير : ما وراءك ؟
فأخرج له الوكيل إيصالا معادا من أحد المشتركين ، وقال إن الاشتراك مسدد قبل الآن .
فسأله المدير : وأين الإيصال الآخر ؟
قال الوكيل : إن الرجل قطعته ورماه في خلقتي ! ..

فهم المدير بضربه وهو يقول مختفيا من الغيظ : رماه في خلقتك ؟ مستحيل . . إن فضيحة بيته معروفة ويخشى من الإشارة إليها بكلمة ، فلا تقل أنه قطع الإيصال ورماه في خلقتك الشريفة ، بل قل أنك سكرت بالاشتراك كمعادتك وجئتنا برائحة الخمر تفوح من فيك . .
وكان هذا أول الادوار التقليدية المحفوظة ولم يكن آخرها ولا أقبحها ، وفي واحد منها الكفاية للعدول على الأقل عن الخطوة الاولى ، وقد عدلت عنها إلى الآن .

ولكن لم أحقر الصحافة :

إن هذه المناظر المخجلة حققت في نظري طائفة من المتطفلين على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة الصحافة ، ولا تزلت بأعلامها النابئين إلى منزلة أولئك المتطفلين ، ولست أعتقد انني كنت مستطعا أن أحقر هذه الصناعة من أجل ذلك المنظر المخجل ، ولو كنت من المستخفين بها والزاهدين فيها .. لان قوة الدعوة القلمية في تلك الفترة قد بلغت في القاهرة مبلغا لا يدانيه مابلغته في عاصمة من عواصم المشرق والمغرب ، ولا انحالها تبلغه اليوم على عظم الفارق بين صحافة اليوم وصحافة مصر والشرق قبل خمسين سنة ..

كانت القاهرة مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذوات المطامع في الشرقيين : الادنى والأقصى ، ومركزا لكل دعوة يديرها دعاة الجامعة الإسلامية ودعاة الوحدة العربية ودعاة تركيا الفتاة ودعاة الإصلاح في ايران وأواسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية في مصر نفسها وفي سائر الأقطار الأفريقية من شامها في بلاد المغرب إلى جنوبها في بلاد السواحل وزنجبار .
وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى أرواحهم وأبدانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلوا أو يغفلوا طريقة عين عن أخطارها وعواقبها ، وقد حدث أن حركة في القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد في الآستانة ، وإن رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب إلى ايران لإتمام هذه الدعوة فطرده الشاه وأهانة اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم أنهم قضاوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين . كانت هذه

الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال ، ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام في بلدز وعيناه في شارع محمد علي بالقاهرة ، واتفق يوما أن المولى الكبير^(١) صاحب « مصباح الشرق » - دخل مكتب « المؤيد » ووجد فيه نجبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه إلى سقف الحجرة : قادر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من تحته فيستريح عبد الحميد ! .. قال محمد عبده ، وكان من زوار الحجرة : نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين ! وتلك نادرة من نوادر الفكاهة التي تخلقها الحقيقة الواقعة ، وما يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح !

تهأت القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين عواصم الشرق بمركزها التاريخي ومركزها الحديث ، ولم تهأت لها مدينة أخرى على مثالها من الآستانة عاصمة الخلافة إلى مادونها من عواصم الولايات المتحدة والحكومات ، ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعللة من العلل العارضة ..

فالآستانة هي عاصمة الخلافة ، ومركزها بهذه الصفة أهم المراكز في العالم الإسلامي وعالم السياسة الشرقية على اجماله .. ولكن قيام الدعوات القلمية ، أو اللسانية فيها أمر لا يخطر على بال الدعاة لشدة الحجر فيها على الأقلام والألسنة ، وحظر الاجتماع فيها وتأليف الجماعات للمقاصد السياسية ..

وعواصم الشرق الأدنى مهمة بشهرتها وموقعها ، ولكنها لم تكن قط مركزا يتلقى منه العالم الشرق دعوة عامة على نطاق واسع ، وحكمها حكم الآستانة في حرية الدعوة والاجتماع .. أما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت في أيام الفاطميين مركز داعي الدعاة ، أستاذ الأساتذة في فنون الدعوة بالقول والإشارة . أي بالخطب والرسائل والرموز السرية والموالد والزفات ! .. ثم أصبحت مركز الاعلان الاقتصادي والسياسي في الحقبة التي اشتدت فيها المنافسة بين أصحاب التجارة من طريق البحر الأحمر وأصحاب التجارة من طريق رأس الرجاء .. ثم جعلها الخديو اسماعيل قطعة من أوروبا بمحاكمها المختلطة ، وامتيازاتها الأجنبية ، واشتباك المصالح المتعارضة فيها بين الدول ، وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية في شئون الحكم أو شئون الثقافة ..

(١) يقصد ابراهيم المولى صاحب صحيفة « مصباح الشرق » ووالده محمد المولى .

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، قمت فيها معدات الدعوة ، وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة الحديث ..

تاريخ الشرق مرتبط بصحافته ..

وفيما تقدم من العوامل والمهيات كفاية .. ولكننا نحسب أنها لم تكن لتفعل فعلها بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة في هذه الفترة مطلوبة من كل صوب ، ولو لم تكن بلاد الشرق متعطشة الأسماع إلى كل صوت ينادى بكلمة الأمل ، أو كلمة النصيحة والتحذير ..

ولا ننسى سحر « الكلمة المطبوعة » في جدتها قبل أن تبتذلها كثرة التداول ، وتدخلها الألفة في عداد اليوميات الرتيبة التي تنتظر في أوقاتها ولا تحتاج إلى لفة الانتظار .. وإن تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة في نفاذها ، وبعد مداها ، فاعجب للبون الشاسع بين ضخامة أثرها وضآلة وسائلها ، وانظر إلى البون الشاسع مثلاً في صحيفة كصحيفة « العروة الوثقى » أو « أبو نصارة » أو « الطائف » أو « الاستاذ » . وريقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الأخبار البوليسية أو البرقيات المقتضبة ، وتحاول أن تنبع أثرها إلى أقصى مداها فلا تستقصيه ، لأنك قد تسمع صدها في تخوم الصين وعلى متون الرمال في جوف الصحراء .. ولا عمل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة وصحافتنا اليوم ، ولكن لا عمل كذلك للمقارنة بين دعوة يطلبها الناس ويتشوقون إليها ودعوة تطلبهم وتحتال عليهم بأفانين الترغيب والتقريب .

إن منظر الحساب بين مدير الصحيفة الأسبوعية ووكيلها قد يصحح أن يثنى عن طبع العدد الأول من صحيفتي المطوية وأن يضعف أمل في تحصيل تكاليفها بعد عدد أو عشرين .. ولكن هل تراه يذهل عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها من حولي كالدوامة المدوية في لجة البحر المواري بالأمواج والرياح ؟ ..

إن ألف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر قداسة الدين ، وأن ألف دجال باسم الصحافة لا يمسحون قداسة « الكلمة » الحية بين أناس يحتاجون إلى الكلمة حاجتهم إلى العمل في ساعة اليقظة من سباتهم الطويل ..

إن الصحف التي تستغل مخاوف الملوك وفصائح الدول لا تستطيع أن تملأ الجو من أعلاه

إلى أدناه ، ولا أن تستوعبه بجميع زواياه . .
 فإذا وجدت هذه الصحف ، فهي الشفاعة المقبولة أو غير المقبولة لوجود طبقات في الجو
 الصحفي إلى جانبها ، تنزل من الملك إلى الوزير ومن الوزير إلى الرئيس الصغير ومن الرؤساء إلى
 عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن هؤلاء مادون ذلك في طبقات ذلك الجو الفسيح . .
 وليقل العائب العائب ماشاء ، فإنه لن يستطيع أن يقول في النهاية شيئا عن تاريخ الشرق
 الحديث دون أن يقول معه شيئا عن الدعوة القلمية وعن الصحافة والصحفيين .

صحيفة الدستور :

كانت صحيفة « الدستور » التي أصدرها الأستاذ « محمد فريد وجدي » منذ نصف قرن
 أول صحيفة يومية عملت في تحريرها . .
 ولا أقول أنه كان « عمل ضرورة » .
 ولا أقول كذلك أنه كان عمل اختيار .
 ولكنه كان ضرورة مختارة بين ضرورات ، إذا صح هذا التعبير ، وأبادر فأقول أنه صحيح
 غاية الصحة ، لأننا في أعمالنا التي نعلوها من معالم حياتنا لا نستطيع أن نقول عن عمل واحد
 أنه كله اختيار ، أو أنه كله اضطرار . .
 وكان في وسعي قبل العمل في تحرير الدستور أن أعمل في تحرير « اللواء » أو في الترجمة
 باللواء على الأصح . . لأنني علمت أنهم يطلبون مترجمين يعرفون الإنجليزية أو الفرنسية ، بعد
 تفكيرهم في إنشاء « لواءات » غير « اللواء العربي » تصدر باسم « الاستانلرد »
 و « ليتنارد » . .

التحرير أو الترجمة :

وكانت الترجمة الصحفية من أعمال تلك الفترة التي كان أمثالي يستطيعونها ، وكانت
 ظروف التعليم والنشأة « الأسوانية » مما يرشحني لأدائها ، ويجعلني من المفضلين في
 « امتحاناتها » .
 فقد كنا نتعلم دروسنا المهمة باللغة الإنجليزية ، ومنها دروس الجغرافيا والمعلومات العامة
 « أو الأشياء » .

وكانت صحف المدارس المقروءة في إنجلترا بين « المطالعات » الإضافية المقررة علينا في السنة الرابعة الابتدائية .

وإلى هنا تتساوى جميعا في مدارس القطر كله ، ثم يأتي دور النشأة الأسوانية بمزية تنفرد بها مدينة أسوان ولا تشاركها فيها سائر المدن في الوجهين . كانت المكتبات الأفرنجية تفتح في موسم الشتاء لبيع الكتب والمجلات والصحف الأجنبية المحلية ، وكان كبار الزوار لا يقطعون عن زيارة المدرسة خلال الموسم الذي كان يمتد من ديسمبر إلى مارس ، وتتبع زيارتهم أحيانا دعوات خاصة بجلوس فيها مع أبنائهم ولا نتكلم أثناءها بغير اللغة الأجنبية .

وتضاف إلى ذلك حالتان طارئتان على أسوان - في ذلك الحين - لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة ، وهما حملة السودان وبناء الخزان . .

ففي أثناء حملة السودان ، كان الحاكم العسكري ومحافظ المدينة وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح ، طائفة من الإنجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه « ولد من أولاد المدارس » مرجعا نافعا لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة العرائض إلى « الحكام » على حسب الاجتهاد ، وكان « نصف الفرنك » نفحة سخية يحصل عليها « الولد » المترجم الذى يستطيع أن يخط في الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالإشارة أو التخمين . . فأما « الولد » الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد في معاملته إلى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرامة أو الحوار . .

أما بناء الخزان فقد جلب إلى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرءون الصحف الأفرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع إلى النظر في هذه الصحف وفي صحف السائحين ، فلا يفوتنا - مع تتابع النظر - أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها ، وأن نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا ينفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح . .

مع مصطفى كامل ..

فلما علمت أن « اللواء » يطلب مترجمين يعرفون الإنجليزية خطر لي أن أستقيل من وظيفتي وأن أشرح نفسي للعمل فيه ..

ولكني ترددت ، وطال التردد حتى أحجمت ، ثم فضلت ترك هذه « الفرصة » وانتظار فرصة غيرها لسيين :

« أولها » أنني إذا أقدمت على هجر الوظيفة الحكومية مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك لأكتب لا لأترجم ، فلنني ما أحببت الصحافة لأنها مورد رزق أفضل من موارد الوظائف الحكومية ، ولكنني أحببتها لأنها مجال للكتابة أو صناعة القلم بغير وساطة من صناعة النقل أو الترجمة ! ..

والسبب الثاني شخصية مصطفى كامل رحمه الله ، فإن محادثتي الأولى له لم تشجني على مزاملته في عمل دائم ، وصورته لي رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة أو « اللقافية » أن تفتح عليه بابا لتصحيح قوله قالها أوريا ارتآه .. كنت أتبرع بالتعليم في المدرسة الإسلامية بأسوان ، وحضر مصطفى كامل متفقدًا للمدرسة ومعه الكاتبة الفرنسية مدام « آدم جوليت » وسيدة إنجليزية ، وكانت الحصة حصّة محفوظات ولغة .. فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :

والمرء ما لم نقد نقعا أقامته غيم حمى الشمس لم يخطر ولم يسر
وترجمه للسيدتين بطلاقة وإيقاع ، ثم طلب من التلاميذ أن يشرحوه ويلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ..

والثفت مصطفى كامل إلى ، وإلى الأستاذ « محمد شلبي عيد » متسائلا ، فأدركته قائلا إن التلاميذ معذورون .. لأنهم في أسوان يعلمون أن الغيم الذي يظلل الرؤوس شيء نافع لا يضرّيون به المثل لقلة النفع .. فلعله أنفع لهم من شعاع الشمس ومن المطر ..

« حسن تخلص » كنت أقدر من « خطيب » مثله أن يتقبله بالاستحسان والارتياح ، ولكنه تجهّم وزوى وجهه ، وبدأ لي أن الاستدراك عليه - ولو من باب الفكاهة - أمر كبير على طاقته

الفكرية والنفسية ، وأرى الآن أنها لم تكن منه فلتة عارضة في زيارة عاجلة ، لأن حياة الرجل كلها لا تعرض لنا لحظة واحدة فيها شيء من سماحة الفكاهة أو سماحة التوفيق بين الآراء . .

فريد وجدى . . والدستور . .

ولم يطل بي الانتظار حتى أعلن الأستاذ فريد وجدى عن عزمه على إصدار « الدستور » . ولم يكن اسم « فريد وجدى » غريبا عني ، ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الإسلامية الفلسفية . . فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الإسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر الحديث ، فلما لقينته وحادثته لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل في صحيفته ، وخرجت أقول لنفسى إن أكبر خلاف بيني وبين كاتب كهذا لن يعوقني عن العمل معه ، لأنني عجبت لحرية فكره ، مع اشتباره بالتعصب والمحافضة ، بل بالترتم والجرح في شئون الدين والدنيا . . فما من فكرة قط كان يرى أنها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة .

وأظن اليوم أن فرط الثقة بقوة الحجة والقدرة على الإقناع هو الذى يسوغ له أن يسمع كل رأى ، ويقبل كل تحد ، ويجب عن كل سؤال . ودام عملي في صحيفة الدستور من عددها الأول إلى عددها الأخير إلا أشهراً قليلة فارقتها فيها ثم عدت إليها . . فأكاد أقول إن ما خالفته فيه أثناء هذه المدة أكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبها لمخالفة رأيه . كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية على منهج قريب من مناهج الرسميين ، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة ، بل كان ينحسر الكثير في أحوال الحاجة إلى المال . ومن ذلك أنه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار « الدستور » - لسان حال للحزب في سياسته العثمانية بعد أن تكفل الحزب بالاتفاق على الصحيفة وسداد ديونها ، لأن الحزب كان يشترط أن ترفع من عنوان الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الإسلامية » . . ولم تخض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كنبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدى مرتبات الموظفين والعمال .

وعلى هذا التشبث بهذه الدعوة كنت أخالفه فيها ، وأرى أنها تعمل لنفسها ، ويعمل لها الزمن أضعاف ما يعمل المقتطعون لها من دعائها المخلصين وغير المخلصين . . فلم يحاول قط أن يفرض على رأيا في قضية من قضاياها بغير الإقناع أو السكوت . .

وكانت صحيفة «الدستور» لسانا ثانيا للحزب الوطني بعد «اللواء» ، وكان موقف الحزب الوطني معروفا من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جابيش على تحرير اللواء ، ولكنني كنت أؤيد سعدا وأرد على ناقديه في الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبت في هذا الموضوع .

وكان من غلواء الأستاذ وجدى في محاربة الاختلاط الجنسي أنه كان يشجع الهواة على إنشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح ، وهذه حذقة تغرى بالسخرية حتى في تلك الآونة . . ولم يكن الرجل على جهل بتاريخ التمثيل في الغرب الحديث أو القديم ، فكان إذا لمح منى بادرة من بواذر السخر الخفية لم يزد في حديثه على أن يقول : « لقد أجازها شكسبيركم لضرورة من ضروراته . . فهل وقفت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير !

الغاضبون :

وأعتقد أن اختيار اسم الصحيفة وحده كان ميزانا لتراة هذا الرجل ولحيته الفكرية والدستورية ، يغنى عن كثير من الموازين . . وماذا في « اسم » على رأى شكسبير أيضا ؟ . . فيه كثير وكثير ، ولا سيما في العصر الذى سميت فيه الصحيفة باسم الدستور . . كان اسم « الدستور » يغضب قصر « يلدز » ويغضب قصر عابدين ، ويغضب « قصر الدويارة » . .

وكان الحزب الوطني يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة إليه ، لأنه ينكر مقاصد المطالبين به من رعايا الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد . ويراجع القارئ اليوم صحيفة « اللواء » فيرى أنها كتبت عن المطالبين بالدستور في تركيا ، قبل إعلانه هناك بيوم واحد ، فقالت أنهم قوم يسبحون في الخيال . . وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلها أراد بالتحريض عليه إحراج الإنجليز والحد من سلطة المندوب البريطانى والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الإصغاء إلى هذا الطلب كلما تاب إلى شيء من الوفاق بينه وبين المحتلين . . ولهذا كان حزب القصر يسمى نفسه « حزب

الإصلاح على المبادئ الدستورية» . . ولا يخفى الفارق بين الدستور وإصلاح الدواوين على مبادئ الدستور !

وكان حزب « الأمة » كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم المطلق للعرش في مصر وللعرش في عاصمة الدولة العثمانية ، وكان ينادى بالاستقلال التام فيهدده « المؤيد » بحكم القانون لأن السيادة العثمانية مقررة فيه ، ولكن حزب الأمة على مناداته بمحصر الحقوق كلها في الأمة لم يخل من أقطاب مخلصين كانوا يحسبون الطفرة في الحكم النيابي خطرا حقيقيا بالخطر والاجتناب . فإذا ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا سند له من أصحاب العروش ، ولا من جمهرة الأحزاب ، فاختار كلمة « الدستور » دون غيرها اسما لصحيفته الوليدة ، فهو اسم يدل على كثير وإن غضب صاحبنا شكسبير ! . .

صحافة المتطوعين :

في هذه الصحيفة بدأت على الأول ، فإذا كان على الأول هذا ؟ أو بماذا نسميه في « تقاسم » الصحافة الأخيرة ؟

لا يوجد له اسم واحد ، وقد يحيط به على الجملة أنني كنت نصف هيئة التحرير برمتها ، إذ لم يكن في قلم التحرير غير كاتبين اثنين ، أحدهما أنا والآخر صاحب الصحيفة ! ولا نبخس في هذا المقام فضل « التطوع » في تحرير صحيفة الدستور ، ولا في تحرير غيرها من صحف تلك الفترة . . فقد كان قوام المقالات الصحفية من « تحرير المنازل » وكانت أشهر الفصول على الإطلاق في ذلك العهد فصولا كتبها المحررون المتطوعون ، وكل حامل قلم في البلد محرر متطوع ما عدا الجالس على مكاتبهم في دور الصحافة المحدودة ، وهم معدودون على الأصابع .

ولقد كان نصيب « الدستور » من التطوع أوفى نصيب ، إذ كان فيها « محرر متطوع » دائم يكاد ينهض بعمل الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب إلى جانبها التعليقات وحواشي الأخبار والمفردات . .

كان الأستاذ « أحمد وجدي » شقيق الأستاذ فريد صاحب الصحيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان رحمه الله شابا ألقى الذكاء كريم الخلق مستقيم الذهن مجتهدا في كل عمل تولاها ، وقد تولى عملا قليلا في الصحافة ثم تولى عمله في المحاماة أمام محكمة الزقازيق

والمقصورة ، فاشتهر في الإقليمين أبما شهرة ، وقامت شهرته على الذمة والعفة كما قامت على البراعة والبلاغة ، ولو أمهلت النية بضع سنوات لما عرفت مصر اسما أشهر من اسمه في عالم المحاماة .

وكان زملاء « الأستاذ أحمد وجدي » يتطوعون معه بالكتابة والترجمة من حين إلى حين ، ولكنهم أضربوا جميعا - أو كادوا - بعد الخلاف الذي حدث بين فريد وجدي ومصطفى كامل . . وكان فحوى هذا الخلاف أن صاحب الدستور اعترض في مجلس إدارة الحزب على اختصاص وزارة الخارجية البريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال إن هذا الاختصاص ربما أعطاهما الصفة « الاستثنائية » التي تدعيها في مصر ، ولا ضرر من تعميم الاحتجاج على صيغة من الصيغ إذا كانت الصيغة المكتوبة لا تسمح بتوجيهها إلى أكثر من دولة واحدة ، فأعرض مصطفى كامل عن اقتراحه وأعرض معه أكثر الأعضاء ، وكتب فريد وجدي خلاصة المناقشة في الدستور فحسبه المؤيدون الآليون منشقا على الحزب وقاطعوه ، ومنهم بعض أولئك الطلبة « النجباء » الذين كانوا يتطوعون للكتابة في صحيفة الحزب الثانية !

إلا أننا - نحن هيئة التحرير - للمؤلفة من صاحب الصحيفة ومنى ، كنا نعمل في التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار . . وكان الأستاذ وجدي قليلا ما يبرح داره ، فكنت أنوب عنه في أعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الأخبار وعلى الأحاديث ، وبينها أول حديث للوزراء المصريين . .

والأخبار لم يكن خطبها في ذلك العهد بالأمر العسير . .

كان لها مكتب بديوان الداخلية ترسل إليه النشرات من جميع الدواوين ، ومعظمها عن التعيينات والتقلات وصرف الأموال في المشروعات العامة . . ولم تكن هناك حاجة بالمخبرين إلى استطلاع النيات والتقاط الأسرار ، فإن السياسة الكبرى كانت في علم النشوب البريطاني ومستشاريه ومفتشيه ، وليس لأحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير أصحاب « المقطم » وبعضهم وكلاء الصحف الأوربية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهم شيئا من أسرار السياسة العليا ، ولا تطلعهم على خبر من أخبار الميزانية قبل أوانه .

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، في النهاية على حد سواء إلا أن طائفة من المخبرين كانت تساوهم « الإدارة » على تكاليف المهنة وتوهم وكلاء الحسابات فيها أنها تحصل على أخبار النقل والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات « المسودات » في سلال المكاتب المهمة ، وظلت

هذه الحيلة تروح عند بعض الصحف إلى ما بعد أيام الثورة في أعقاب الحرب العالمية ، ورأيت
بعض واحد من هؤلاء المخبرين ييسط هذه القصصات ويجمع متفرقاتها ويلصقها ليزعم بعد
ذلك أنه قد جاء بالخبر المضمون به على غير المجتهد الأريب .

* * *

كنت أذهب إلى مكتب الأخبار الصحفية بديوان الوزارة فأرى هناك على التناوب
عشرين أو ثلاثين صحفيا من مندوبى الصحف العربية . .

وليس من هؤلاء جميعا واحد فرد يذكر اليوم أو يعرفه السامعون إذا ذكر ، ولكن
القارئ قد يعجب لاختلاف مقاييس النظر والتقدير إذا علم أننى كنت فى نظريهم جميعا
فضوليا متطفلا على الصناعة ، وسمعت أحدهم يتكلم عن « عمر منصور » مندوب المؤيد ،
و « عبد المؤمن الحكيم » مندوب الأهرام ، و « سامى قصيرى » مندوب المقطم ، و « جورج
طنوس » مندوب الوطن . . فإذا هو يشيعنى بالإشارة الساخرة ، وهو يسب الزمن لأنه قضى
عليه بالعمل فى الصحافة مع أمثالى :

« يحرق دين ها » البريس » Press ما عاد غير ها الزعران يسود ورقاتها . . .

الصحافة قبل خمسين سنة

بعد شهرين من العمل في داخل الصحافة المصرية ، أمكننى أن ألخص حياتها عند أوائل القرن العشرين فى كلمة واحدة :
تلفيق ! . .

فلولا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ على صورة من الصور لكان من أعجب العجائب حقا أن توجد صحيفة واحدة ، وأن تعيش - إذا وجدت - أكثر من بضعة شهور . كانت موارد الصحف كلها من الاشتراكات ، وثن النسخ الموزعة ، وأجور الاعلانات . . وكانت هذه الموارد لا تكفى كل الكفاية للإنفاق على الصحيفة إلى أمد طويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها وموانعها ولا من جرائر الخلل الدائم فى وسائلها ومواعيدها .

فلم يكن للصحيفة ، المنتظمة ، بد من مورد آخر غير الاشتراكات وغير البيع وغير الإعلانات ، وهو كذلك مورد مضطرب معرض بطبيعته للفضى وتبدل الأحوال ، ونعنى به مورد « الإعلانات » السرية من أصحاب الدعايات ، ومعظمها دعايات تصدر من قصور الملوك والأمراء أو من دواوين وزارات الخارجية والسفارات .

فالاشتراكات الصحفية قبل خمسين سنة - كانت من الموارد الثابتة المنتظمة ، بالقياس إلى موارد الصحف فى العصر الحاضر لأن الصحف فى العصر الحاضر تعتمد على البيع فى الأقاليم ولا تعول كثيرا على الاشتراكات ، ولم تكن وسائل البيع فى الأقاليم ميسورة للصحف اليومية ، فضلا عن الأسبوعية أو الشهرية إلى زمن قريب . .

وكانت الاشتراكات خليقة أن تمد الصحف بمورد نافع لوخلت من موانعها وعثراتها ، ولكنها كانت فى الواقع مولودة بموانعها وعثراتها ، إن صح هذا التعبير . .

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا فى الصحف اليومية لأنها مظهر من مظاهر الوجهة و « الأهمية » فى القرية أو البلدة الصغيرة . . ولم يكن بالقليل من مظاهر الوجهة اليومية أن

يحضر ساعى البريد إلى الدار يوميا ليدق الباب على مسمع من الجيران وينادى بصوت يشبه صوت المنادى باسم « المحكمة » فى ساحة القضاء :

« بوسطة » ! . .

فإذا بالحلى كله يترقب « سماعا » جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بأنباء الأرض والسماء ، ويتحدث عن المسكوف و « الانجلاطرا » وملك « فرنسا » أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالأسطورة الطريفة التى تسمى بالترنسفال . . وبينها وبين السودان فى الجنوب ألوف الأميال ، وباله من « واقع » وراء الخيال ! ولم يكن الوجيه الرقيق يخل بثمن هذا المظهر ، أو يماطل الصحيفة بقيمة الاشتراك حبا للمطال . . ولكنه يجود به عن طيب خاطر لو وجد أمامه من يقبضه منه لحساب الصحيفة ، وأين هذا الذى يقبضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالأمانة والوفاء ؟ . .

لقد كانت الصحف تنشر ، بين آونة وأخرى ، خبرا مكررا عن الوكيل « فلان » الذى ألغى توكيله وأصبح غير معتمد فى تحصيل الاشتراكات . . وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلك إعلانا موجهها إلى وكيلها فى هذا الإقليم أو ذاك تنبهه إلى موعد السداد وتلوح له بالتهديد والإنذار . وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد ثم يعاد ، ويتجدد مع الوكيل الجديد تارة ومع الوكيل القديم تارات ، ولا تستغنى الصحيفة عن مراجعة الوكيل القديم لقلة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة أو المدرين عليها فى معاملة الصحف والمشاركين والموظفين وأفراد « الجمهور الصحفى » على التعميم . .

« حق » الصحيفة :

وكانت للوكيل فنون فى معاملة الموظفين وإغرائهم بالثناء أو تهديدهم بالتشهير والانتقاد . . ولا غنى له عن هذه الفنون لأنه كان يستعين على الدوام بالموظف الكبير والموظف الصغير فى تحصيل « حق » الصحيفة و « حقه » هو فى سوقه السوداء . . من وراء الستار . . ولا مناص من الوكيل لتحصيل الاشتراكات . .

ولاحيلة فى قبول الوكيل على علاقته ، لأن معاملات الصحف لم تكن فى ذلك العهد قد ثبتت ذلك الثبات الذى يسمح « بتكوين » طائفة من الأعوان المدرين ينقطعون لها ويثابرون

عليها ، فإذا نجح من الوكلاء واحد من عشرات فإنما ينتج بعد ابتلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات !

ولتذكر أن الوكيل - على عييه هذا - لا يستطيع أن يعمل في بلاد يجهلها ولا يقيم بين ظهرانيها . . فلا بد له من موطن في إقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الإقليم المحدود لأكثر من مائتي مشترك على أكبر تقدير . .

وكم يصل من هذا المحصول إلى خزانة الصحيفة بعد المطال والعمولة والسوق السوداء ؟ قليل . ، جد قليل !

وكل صحيفة احتاجت إلى هذا القليل ، فقد كان عليها أن تقبل وسائله وتتجرع غصصه ، وتغضي عما تعلمه من عيوبه ومخططاته . .

عدة الشغل :

ومنها - بل في مقدمتها - أن تنشر الصحيفة كل ما يصل إليها من رسائل الوكيل أو من مدائحه وأهاجيه في الواقع ، لأنها « عدة الشغل » التي يعمل بها ، ولا عمل له غيرها ، بين الأعيان والموظفين . . فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات - وتحصيل غيرها في السوق السوداء - فلا أمل له في محصول ينفعه ويضع الصحيفة بغير تخويف وإغراء ، ولا ضير بالتخويف والإغراء في سبيل الخدمة العامة والمصلحة القومية . . ولكنه الضير كل الضير على الوكيل « الأريب » الذي يستطيع أن يجمع المئات من لدعة هنا وأكذوبة هناك ثم يتركها ليقنع بالعشرات وما دون العشرات .

وأحسب - بعد هذا كله - أن التفاؤل فريضة على الناس يضطرون إليها الصديق الواقع إن لم يضطروهم إليها شعورهم بالحاجة إلى الأمل والعزاء . .

إن الأمور لا تقاس بأسوأ الظروف في جميع الأوقات ، فكثيرا ما تتمخض الظروف السيئة عن حسنات لم تكن في الحسبان ، ولقد رأينا في ذلك العهد أناسا عملوا في وكالة الصحف يدينون أنفسهم بتراهة القاضى وأمانة الطبيب ، ويشغلون بهذه الصناعة لأنها « هواية » تملأ الفراغ بالرحلات والمقابلات في غير عنت ولا اضطراب ، ولكنهم شذوذ القاعدة الذي يبعث فينا التفاؤل كما أطبقت علينا ظلمات الشوم والقنوط . .

أما القاعدة المطردة يومئذ ، فقد كانت صفحة من صفحات الصحافة الحالكة في تطورها

الأخير.. وكانت «تصنيفة» الوكلاء الصحفيين في القرن العشرين تدل على المورد الذي تسرب منه اشتراكات الأقاليم، فهي «تصنيفة» يتلاقى فيها الكاتب العمومي المتجول، وقارئ الأعراس والمآتم، ومأذون الشرع المفصول: وصاحب الصناعات التي لا تحصى.. لأنه «متشرد» عام يشتغل بجميع الصناعات!

التوزيع:

أما التوزيع بأيدي الباعة فقد كان موردا للصحف اليومية أهم من مورد الاشتراكات وأيسر منه في متاعب التحصيل، ولكنه لو اجتمع برمته من جميع الصحف الكبرى التي كانت تصدر في القاهرة قبل خمسين سنة، لما كان فيه الكفاية لإصدار صحيفة يومية واحدة في هذه الأيام.

وكان أربعة أخماس النسخ المعدة للبيع توزع في القاهرة وضواحيها.. ولولا أن الإسكندرية كانت مستعدة بموزعيها المشتغلين ببيع الصحف الأجنبية لما تآتى تدبير مسألة التوزيع فيها..

ومن المناظر المألوفة اليوم في عواصم القطر أن يرى المارة للصحيفة اليومية أربع سيارات أو خمسا تتسع الواحدة منها لحمل عشرات الألوف من النسخ وتتولى نقلها يوميا على خطوط الإسكندرية أو بورسعيد أو الأقاليم الوسطى في الوجه البحرى أو أقاليم الصعيد..؛ فقبل خمسين سنة لم تكن في القطر المصرية سيارة واحدة من هذا القبيل، ولو وجدت فيه سيارة واحدة لفرغت من عملها في حمل صحف القاهرة جميعا بعد نصف ساعة..

المعلم عكريشة:

وكان المعلم عكريشة يجلس إلى ناحية المكتب وفي يده الجوزة التي لا تفارقه، وأذناه إلى الكاتب الذى يسأل، «أولا فأول»، عن عدد الوارد من كل صحيفة، إلى أن يتم الوارد من جميع الصحف اليومية.. ثم تبدأ عملية التفريق على المساعدين من المتعهدين، فأنصاف المتعهدين، فالباعة المتفرقين..

ولا يكلفك الأمر أكثر من جولة سريعة بالنظر في هذه الزاوية الضيقة لتحصر كل ما صدر من صحف مصر الكبرى في ذلك النهار: المؤيد، واللواء، والأهرام، والمقطم، والوطن،

ومصر، والظاهر، والرأى، الجوائب المصرية، والمحروسة، فى بعض الأحيان.. .
وكانت هذه الصحف تصدر معا فى وقت واحد بين الساعة الثانية والساعة الثالثة فى
المساء، ومحملها عمال عكريشة أو عمال الصحف من مطابعها إلى الزاوية المعروفة، فلا تلبث
«عملية» النقل والصف والتفريق أكثر من ساعة واحدة بنصف حملها.. .
وما كانت صحف القاهرة الكبرى تحتاج إلى مكان للتوزيع أوسع من «زاوية عكريشة»
على جانب من رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء.. .

ولم تكن «زاوية عكريشة» هذه مكتبا ولا شبه مكتب، ولكنها كانت منصدة من مناضد
الكتابة العموميين على ذلك الرصيف.. . وكان المعلم «عكريشة» متمهد بيع الصحف جميعها
يستعيرها فى مبدأ الأمر من كاتبها الذى كان يستغنى عنها بعد الظهر - أى بعد الفراغ من كتابة
العرائض للمحكمة وكتابة الرسائل لصندوق البريد - ثم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة
واحدة، لاتساع دائرة العمل وزيادة الإقبال على الصحف اليومية بعد قيام الأحزاب
السياسية، على أثر قضية دنشواى.. .

ثم يخلو الرصيف إلا من المعلم عكريشة وكاتبه ومنصدته وقلمه الذى يحمله وراء أذنه، إلى
أن يودعه مكانه فى الدواة النحاسية الصفراء.. . ومتى خلا الرصيف هناك لم يبق مكان فى
القاهرة خلوا من صى من صبيان المعلم الكبير. تكاد تحسهم أسرع من الترام لأنهم يصلون
حيث لا يصل الترام. وتكاد تختلط أصواتهم بأصوات بائعى الخضراوات والفاكهة. ومنها النداء
على «الوطن ومصر العال!».. .

وليس أمامى إحصاء دقيق لتوزيع الصحف فى تلك الأيام. ولكنه على الحد الأقصى
لا يزيد على خمسة آلاف للصحيفة الواحدة. لأنه الحد الأقصى الذى تبلغه طاقة المكائن
الطباعية. قبل وصول مكائن البخار والكهرباء!.. .

الإعلانات :

ولا نعرف اليوم صحيفة تستطيع أن تسقط الإعلانات من حسابها ثم تطعم فى البقاء
واستيفاء أبواب الأخبار والتعليقات. ولكن صحافة أمس كانت تستطيع بلا تردد أن تسقط
إعلاناتها من عددها الأول ثم لا تفقد شيئا يعوقها أسبوعا عن الصدور.. .
وكانت التقاليد الموروثة - والأمية معا - عائقين طبيعيين لظهور «الإعلان» الصحفى إلى

سنوات قليلة مضت . . لعلها هي السنوات التي ظهرت فيها أول شركة للإعلان الصحفي في هذه البلاد . .

كان من التقاليد الموروثة أن يشتري الإنسان لوازمه « المهمة » من حيث اشتراها أبوه وجده .

وكان الريفي يتزل القاهرة لشراء لوازم الفرح ، أولوازم البناء والأثاث ، فيذهب إلى أمكنة معروفة بأسمائها لا تتغير من جيل إلى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مذكور والموردى والجمال الحمصانى ومخازن الحدائد والأخشاب في ناحية القلعة وسوق السلاح ، ولا نظن أن متجرا من متاجر القاهرة المشهورة نشر إعلانا واحدا ليكسب به « زبونا » لم يكن يعرفه قبل ذلك الإعلان . .

أما المتاجر الصغيرة التي تباع فيها لوازم البيوت اليومية ، فقد كانت معروفة في أحيائها وقراها بغير حاجة إلى إعلان مكتوب . . .

ولهذا بقيت إعلانات الصحف سنوات عدة وهي مقصورة على إعلانات البيوع القضائية وإعلانات الوفيات أو إعلانات « ختمى فقد منى وليست على ديون ولم أوقع على سندات أو كمبيالات . . »

وإعلانات « الأختام » وحدها عنوان صادق لنصيب الصحف من قراء الإعلانات . . لأنها عنوان للأمية التي تعجز عن كتابة الأسماء . ومع هذه الأمية لا إعلان ، ولا قراء للإعلان ! . .

الإعلانات السرية :

ونحن الآن نكتب ونقدرونتذكر ولا نرجع إلى الصحف التي عاشت في مصر وانطوت بعد حين . . ولكننا لا نجازف إذا قلنا أن مصاريها كانت على التحقيق أكبر من مواردها التي يدل عليها حساب البيع والاشتراك والإعلان . . ولولا أنها اعتمدت في وقت من الأوقات على مورد الإعانات « السرية » لما طال بها الأجل شهورا ، فضلا عن سنوات . .

وقد تعلم مبلغ الحاجة إلى هذه الإعانة إذا علمت أن شركات البرق - كشركة روتر ، وهافاس - كانت تتلقى اعانة رسمية من الحكومة المصرية ، وأن مطبوعات الدواوين والسفارات كانت تحال - علانية - إلى بعض الصحف لطبعها ، مع وجود المطبعة الاميرية .

ولم تكن مصادر الإعانة مجهولة بين العاملين في الصحافة والسياسة ، وإن لم تبلغ من الصراحة في زمن من الأزمان مبلغ الاعتراف المكتوب .

وربما انقسمت هذه المصادر في جملتها إلى مصدرين اثنين على شيء من الدوام والانتظام . . وهما القصور الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخارجية ، وقصر « بلدز » في الآستانة كان مصدر القسط الأوفر من إعانات الصحافة والصحفيين المتطوعين . . وقصر « عابدين » بمصر كان المصدر الآخر الذي يتنافس يوما ويعمل معه يدا بيد في عامة الأيام . .

وكان بخل عباس المشهور يغفل يده عن التبرع بالمال من خزائنه الخاصة ، فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة إلى ديوان الأوقاف وتارة إلى ديوان الرتب والنياشين . .

أسعار الرتب :

وكانت للرتب أسعار مقررة من الباشوية إلى البيكوية من الدرجة الثالثة . فكانت رتبة الميرامون الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورتبة البيكوية من الدرجة الأولى تباع بثمان يراوح بين خمسمائة جنيه وسبعائة جنيه أو ثلاثمائة جنيه . وتقدر أسعار النياشين والأوسمة بمقدار قيمتها من المعدن والجواهر وقيمتها من الأولية في ترتيب التشريعات . ولقد بيعت رتب كثيرة في القهوات ، وبيعت رتب مثلها في مكاتب التحرير والتوكيل . . ولكنها لم تهبط في السوق - على ما نعلم - إلى ما دون مكاتب التوكيل في القاهرة والإسكندرية . . ولو أن سمسارا من سماسرتها خانه الحظ أو غلبه الطمع فباع رتبة من هذه الرتب لرجل محكوم عليه في جريمة شائنة ، ل بقيت هذه التجارة موردا للصحافة إلى ختام عهد الخديويين . .

والوكالة البريطانية وسفارة فرنسا كانتا في هذا المجال ندين كفاين - أو أكثر من كفاين - لقصور الملوك والأمراء ، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكافئ خدماتها بالمنافع الجزيلة من الوساطات والشفاعات في دواوين الحكومة ، وقد تجود بالمال من مصروفات « الميزانية » ومن مصروفاتها هي إذا اقتضى الحال . . ولا تقصر السفارة الفرنسية عن زميلتها في بذل هذه الإعانات على اختلافها ، ولكنها كانت تعوض الخدمات الحكومية بالصفقات التجارية ومساعدات المصارف والشركات ، وقل فيها ما لم تكن للفرنسيين مساهمة فيه . .

ومن الوظائف التي كانت تبدو للنظر - بريئة - من هذه الشبهات وظيفة المدير العام لدار الكتب المصرية التي كانت موقوفة - باتفاق العرف - على علماء الألمان . ولكن هذه الوظيفة عملت في الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفة في السفارات السياسية ، وكان اتصال المدير العام لدار الكتب بزمرة الصحفيين وحملة الأقلام أمرا لا غبار عليه ، لأنهم كانوا يقصدون إلى دار الكتب للمطالعة والمراجعة والنسخ في جميع الأوقات . وماذا يحول دون الاتفاق على حملة منظمة في الصحف خلال مقابلة أو مقابلتين لنسخ هذه الورقة أو استعارة ذلك الكتاب ؟ . .

ونعود إلى الدستور :

ونعود إلى صحيفتنا التي بدأنا فيها عملنا نسأل : كيف عاشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو أن تعيش كما عاشت الصحف في أيامها ؟
نقول اليوم أن ظهورها بوسائلها التي عهدناها ، ولا يخامرنا الشك فيها ، كان عجبا من العجب ، وخلاصة ما يقال عنها أن قلة مصروفاتها كانت هي السند الأكبر لبقائها المزعزع في عمرها القصير .

ضاع الأمل في الاشتراكات بعد شهر أو شهرين ، ولم يكن صاحب الصحيفة - على شهرته بالنظريات ، مجردا من الدراية الحسنة في تنظيم الأعمال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهري بالأذونات مع خصم رسوم البريد من بعض هذه الأذونات ، وأفادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل للقضاء المحتوم .

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين الدستور واللواء ، فقصرت الإدارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي ، ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من أسبوع إلى أسبوع . .
ومن لطائف الأستاذ فريد وجدي - وكان يمزج أحيانا ولا يقول إلا صدقا - أن موظف الإدارة فأنحه في نقص أجور الاعلان فقال له متمللا : ألا تحمد الله لأننا لا نغرم حتى الآن اعلانات في الصحف عن ظهور الدستور ؟ !

أما الإعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا أن يجمع منها الكثير لولأن الأستاذ فريد وجدي رحمه الله كان يحسب أنه يسخر أصحاب الدعايات لرسالته الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية . . وقد يصل الأمر إلى تبرعات الأفراد ، فلا يقبل منها الرجل

ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة على الصحيفة . وحدث من ذلك أن السيد « توفيق البكرى » أراد أن يعرب للصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو في مسألة « زفة المحمل » وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل إلى الأستاذ وجدى مبلغا لا أذكره على التحقيق ، ولكنه يزيد على قيمة الاشتراك بكثير . فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد ايصالات بقيمة الاشتراك ، ويعيد إليه بقية مبلغه مع الإيصال . .

وماذا تكون النتيجة ؟

تكون على هذا نتيجة مكتوبة قبل المقدمة ، ولولا قلة المصروفات - كما أسلفنا - لاتصلت النتيجة بالمقدمة في أيام ، أو على الأكثر في أسابيع !

سنة جنيهاً :

كانت المصروفات القليلة سببا من أسباب بقاء الصحف المصرية في سنواتها الأولى . . وتظهر قلة المصروفات من تكاليف التحرير في الصحف اليومية الكبرى ، فقد كان قلم التحرير في أكبر الصحف لا يزيد على خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصي الأخبار من الأقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهاً في الشهر ويندر جدا أن يجاوز العشرين . .

وكان قلم التحرير في صحيفة الدستور يشتمل على محرر واحد غير صاحب الصحيفة . . وهذا المحرر الواحد هو كاتب هذه السطور ، يشترك في التحرير والترجمة وتلخيص الأخبار ، ويتناول في الشهر مرتبا لا يقنع به الآن أحد يعمل في الصحف من البوابة إلى السعاية ونقل الأوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة وجلب الأخبار . . ذلك المرتب « مبلغ وقدره » ستة جنيهاً ، ولم يكن يزيد على مرتبى من وظيفة الحكومة بأكثر من جنيه واحد . . فلم تكن زيادة المرتب إحدى المغريات لى على ترك الوظائف الحكومية للاشتغال بالصحافة ، لأن المرتبين متقاربين مع الفارق في الضمان والترقية ومستقبل المعاش . . إلا أن القيمة في هذه المرتبات لا تحسب بحساب الأرقام ، فإن الستة ربما ساوت ثلاثين في الوقت الحاضر أو أربت على الثلاثين . .

كانت خمسة مليات في ذلك الحين تعطيك مائدة إفطار حسنة في الصباح ، وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة في طعام الغداء أو العشاء . .

مليم ثمن نصف رغيف (شقة من الخبز) يساوى وزن الرغيف فى منتصف القرن العشرين . .

ومليان ثمن الفول والزيت .
ومليم ثمن صفحة من السلطة .
ومليم ثمن برتقالة أو يوسفية أو أصبع موز أو أربع بلحات . .
فإن أردت التنوع أمكنك أن تغير هذه الأصناف بالحلاوة الطحينية أو العسل والطحينية أو الجبن أو البيض ، ومن هذه الأصناف ما يغنيك عن الفاكهة والحلويات ! . .
ولك أن تتوسع فى طعام الغداء ، فلا تقنع بالأصناف التى تقدم على مائدة الإفطار . .
ولكنك لا تحتاج إلى أكثر من عشرة مليات للصفحة من الخضر المطبوخة وعشرة مليات للصفحة من الأرز ، وعشرين مليا للصفحة من الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن .
وقس على ذلك سائر المأكولات . .

دروس التلغراف :

وكانت مشكلة السكن يومئذ أيسر من مشكلة الطعام . .
فكنت أنا من سكان الضواحي الخلوية ، لا يكلفنى السكن فى الشهر أكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ مظلة على الطريق ومروج الحلاء ، ولم يقع اختيارى على الضاحية التى سكنتها - بجوار حدائق القبة - لأننى كنت من طلاب الترف وسكان المنازل الخلوية ، ولكننى كنت أتعلم دروس التلغراف بمدرسته فى ضاحية الدمرداش ، فاخترت السكن إلى جوارها وضمنت أجور المواصلات باشتراكات « مجانية » على حساب مصلحة السكك الحديدية . فلما اشتغلت بالصحافة خسرت أجور المواصلات ، ولم أعوضها بتذاكر الاشتراك فى الترام أو قطار كبرى الليمون . . إذ كان طلب هذه التذاكر مخالفا لمبدأ صحيفتنا « الخنيلية » . . فعوضتها بخمسة مليات فى الترام ، أو بمشوار على الأقدام ، وقد كنت من الفلاسفة المشائين قبل أن أسمع باسمهم بين الفلاسفة الأقدمين ، وكنت لا أعجز عن مشوار بين أسوان والخران أو بين أسوان وأبى الريش ، فلماذا أعجز عن مشوار بين القاهرة وحدائق القبة أو الدمرداش ؟ . .
لا موجب لهذا العجز على التحقيق ، وبخاصة بعد العلم بمدرسة الفلاسفة المشائين ، وبعد

ترشيحي بهذه الصفة للتلمذة على أستاذ الأساتذة ومعلم المعلمين : سيدنا أرسطو كما كان يقول أستاذ الجيل « أحمد لطفى السيد » .

ديوان زهير . . بقروش :

هذه ضرورات المعيشة المادية ، فما القول في ضروراتها النفسية أو الأدبية ؟
لقد كانت أيسر من ذلك فيما أعرفه من شؤون الخاصة . . ولعلها أيسر من ذلك في شؤون الكثيرين . .

ففيما عدا شهود التمثيل مرة أو مرتين عند عرض الروايات الجديدة لم يكن لي مطلب عزيز غير شراء الكتب العربية والأجنبية .

فهل ترائى أعجز عن « قرش صاغ » ثمنا لديوان البهاء زهير ؟ أو عشرة قروش ثمنا لديوان المتنبي ؟ أو قرشين ثمنا لكتاب المستطرف في كل فن مستظرف ، وعلى هامشه ، أو في ذيله ، كتابان آخران ؟ . .

وإذا زادت الحسبة إلى الجنيئات ، فهل ترائى أعجز عن رحلة إلى دار الكتب المصرية لمراجعة المجلدات أو للنقل منها « عند اللزوم » ؟ . .

أما الكتب الأفرنجية فقد كانت لها طبعات يباع فيها الكتاب بشلن واحد ، وكانت هذه الطبعات تحيط بالنخبة المختارة من كتب المنظوم والمثثور ، وما يصعب الحصول عليه في طبعة منها لأنها مخصصة لصنف من الكتب تنتقيه ولا تعنى بغيره ، فليس من الصعب أن تحصل عليه في طبعة مثلها في الثمن وفي جودة الورق والتغليف . . وعلى هذا أمكنني في خلال ستة أشهر أن أجمع مائتي كتاب من عيون كتب الأدب الغربي في جميع اللغات ، مترجمة إلى اللغة الانجليزية . .

بارك الله في مصطلحات السياسة وفوارق الأشكال والعناوين في العلاقات الدولية .
فمازلت من ذلك الحين أؤمن بأنها شيء صحيح ملموس الأثر ، وليست حروفا على الورق ، ولا ألفاظا تطير مع الهواء . .

فالبلاد المصرية كانت - في الواقع - تابعة للدولة البريطانية في سياستها الخارجية وحكومتها الداخلية . .

ولكنها لم تكن كذلك في مصطلحات السياسة ، ولا في أشكال العناوين . .

ولهذا استطعت أن اشترى كتابا يباع في إنجلترا بثلاثة جنيهات ولا أبذل فيه أكثر من أربعين قرشا في مكتبات القاهرة ، لأنه صادر من مطبعة ألمانية حصلت على حقوق طبع الكتب وبيعها في كل مكان غير « الأملاك البريطانية » .

ولم تكن مصر قط من الأملاك البريطانية بحكم القانون ، فليس في العرف الدولي ما يمنع المطبعة الألمانية أن ترسل إلى مصر جميع مطبوعاتها لتبيع الكتاب منها بمارك واحد ، أو بشلن واحد على وجه التقريب . . فاستغنيا بهذه الطبعة زمنا عن الكتب الإنجليزية في طبعتها الغالية ، وهانت مشكلة الكتاب بعد مشكلة الغذاء .

ولم تبقى إلا مشكلة الكساء ! . .

وقد كانت حقا مشكلة المشاكل لا مرء ! . .

لأنها تحتاج إلى مبلغ متجمع لا يوجد في اليد ساعة الطلب ، ولا تحلها عندي حيلة التقسيط لأنه - على ندرته في ذلك الحين - لم يكن مريحا لمن يبيع الكساء ولا لمن يلبس الكساء . .

ومرة واحدة حلت هذه المشكلة بشراء بذلتين قديمتين ، ولكن الجوار الصالح هداى إلى حيلة أصلح من هذه الحيلة لتدبير هذه المشكلة ، وهى درس خصوصى لتاجر أقشة يتولى تفصيل القماش وتسليمه كسوة كاملة ، ويوفى الأجر - بذلك - كسوة كل ثلاثة أشهر . . ولم تزد مدة التعلم كله على كسوتين ، لنشاط التلميذ أو لبراعة الأستاذ أو لرغبة الفريقين معا في « فسخ » العقد بسلام !

خصلة مشتركة :

وأخال . بعد هذه القصة عن الكفاية ، أننى نسيت أن أقول إن قلة المصروفات كانت خصلة مشتركة بينى وبين الصحافة التى عملت فيها ، فقد كنت فى سن الحاجة إلى المصروفات قليل الحاجة إلى المصروفات . وأصح من ذلك أن أقول إن مطالبى فى حياى ليست بالقليلة ولكنها ليست كذلك من النوع الذى يتوقف على المال . .

وكفاية المرتب ، على أية حال ، مهمة جدا فى كل عمل نعمله لنعيش من رزقه .
هى شىء مهم جدا ولا كلام . .

ولكن هل ترانا نفهم أنها هي الشيء المهم الوحيد ، أو أن شيئا آخر لا يهمننا مثلها على تفاوت المرتبات والأجور؟ .

من يفهم ذلك ففي تجاربه نقص يتعبه في عمله ويتعبه في معيشته . . فالرغبة في العمل الذي تتوفر عليه مهمة جدا كالمرتب الذي نتقاضاه منه ، ونحن نستريح بستة جنيهات نتناولها من عمل نرغب فيه ولا نستريح باثنى عشر نتناولها من عمل نبغضه ونساق إليه ولا نود أن نتجزه محسنين أو غير محسنين !

وقد بدأت عملي في الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه . .
 وجدت من اللحظة الأولى أنني أريد أن أفرغ فيه جعبة المعرفة التي حصلت بها من مطالعتي الصحفية ، ومن مطالعتي في الكتب ، وفي الحياة . .
 وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع ، ولكنها تدل على حكم العادة وتواتر النظر والسمع . .

« عم » العقاد :

كيف أوقع مقالتي الأولى ؟ وكيف يكون توقيعى الملتزم في جميع المقالات ؟
 وقعت كما توقع المقالات التي أقرأها في المجلات الأجنبية ، فكان توقيعى باللقب والحرفين الأولين من الاسمين « ع.م العقاد » .

ومثل هذا التوقيع لا ينتجو من ألسنة الزملاء المازلين في بلد « القفش » والقافية . .
 فسرعان ما ظهر لي مقالان أو ثلاثة حتى دغموا الحرفين في اسم واحد ، وراحوا يتحدثون عن مقالات « عم العقاد . . ! »

وماذا قال عمك ؟ . . وماذا تقول يا عم ؟ . . واكتب لنا يا عمنا بما تراه . . وقس على ذلك بقية القافية في مختلف الأوضاع والنداءات . .
 ويأبى العناد أن يرجع عن « عم العقاد » . .

أو لعله لم يكن عنادا محضا ولا صبرا على السخرية بغير مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الناشئ أن يذكر وأن يكون في توقيعهِ إغراء بذكره . . وأما السخرية فهي شهرة نائية في جميع الأسماع ، ولكنها تهون إذا أصابت الفطاحل النابهين كما تصيب الناشئين المبتدئين . .

وهكذا مضى « عم العقاد » يكتب بهذا التوقيع من العدد الأول إلى آخر الأعداد !
أما الموضوع فقد كان « المقالة الأدبية » في المرتبة الأولى ثم تليه المقالة على الإجمال في
مختلف الشئون . .

وكان أدب المقالة في تلك الآونة يستوعب مطالعاتي الحديثة أويكاد . .
كنت أدمن القراءة في كارليل ، وماكولي ، وهازلت ، ولي هنت ، وارنولد ، وغيرهم
من أئمة فن المقالة في القرن التاسع عشر . . وكان بعض هذه المقالات مما ينشر في الصحف
اليومية ، لأنها تمتد حتى تبلغ في المجلة ثلاثين أو أربعين صفحة ، وبعضها مما يصلح للنشر في
الصحافة الأسبوعية كما يصلح للنشر في الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كنت أترجم
ما يصلح للنشر في الصحيفة السيارة ، وعلى غرارها كنت أكتب ما أكتب عن أدباء العرب
والفرس ومسائل النقد والتعليق . .

فن المقالة :

ولم يخطر لي أن أخترع جديدا في فن المقالة الأدبية ، إذ كانت الصحافة المصرية كلها قد
قامت على فن المقالة منذ إنشائها قبل الثورة العربية ، وكانت « الجريدة » قد سبقت
« الدستور » في تاريخ الصدور ، وكان من كتابها المتقدمين « محمد السباعي » تلميذ « لي
هنت » في فن المقالة على أسلوب المدرسة الإنجليزية ، فكان رائد هذا الفن في تحرير الصحف
غير مدافع ، وكان له فيه إبداع يعرفه قراء كتابه الذي سماه « بالصور » وأراد أن يعارض به
مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باسم « الاسكتش » Sketch في أدب الغرب
الحديث ، فلم أحاول في كتابة مقالاتي جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ،
ولم أطرق غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعي أو موضوعات المقالة الوصفية والمقالة
العاطفية ، لأنني كنت مع اشتغالي بالكتابة مشغولا بنظم الشعر في موضوعاته ، وهو أولى
بالوصف العاطفي من المقالات . .

على أنني أحمد الله ، لأن المتقدمين على في الصحافة لم يغلقوا على جميع الأبواب ، فبقى
لي في الصحافة المصرية باب واحد أستطيع أن أقول أني كنت أول السابقين إليه . .
وذلك هو باب الأحاديث مع الوزراء والساسة . . فلا أعلم أن أحدا من الصحفيين
المصريين سبقني إلى إجراء حديث عام مع وزير مصرى أورئيس شرقى يسمع له قول في

السياسة ، وأخاهم معذورين بعض العذر في هذا التأخير ، وإخالي محظوظا بعض الحظ في هذا السبق المقدور ، لأن الأحاديث أمر مرهون بأوانه لا يدركه أحد قبل موعده ولا بعده . ولا هو بالمعقول في صحافة مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواي وقيام الأحزاب . . من كان يحدث الوزراء المصريين في شؤون السياسة العامة ، وماذا يقول الوزير للرأى العام إذا أراد المقال ؟ وأي برنامج له يعرضه على الناس ؟ وأي رأى كان له بعد رأى المستشار ورأى قيصر قصر الدوبارة من وراء المستشار ؟

أحاديث الوزراء :

إن حديثا يجري مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير التوقيع والسكون هو اللغو بعينه ، فلا حرج على الصحفيين المصريين إذا تجنبوه . . وقد تجنبوه معذورين حتى خطر لى أن أقتحم هذا الباب لأول مرة ، فكان اقتحامى إياه فى الحق عنوانا لصفحة جديدة فى تاريخ الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق فى الصحافة يتكرر كل يوم . .

وجرى الحديث الأول مع سعد زغلول فى وزارة المعارف ، وجرى غيره من الأحاديث مع الغازى أحمد مختار « قوميسر » الدولة العثمانية كما كانوا يسمونه فى زمانه ، . وكان على ضالة نفوذه فى مركزه شخصية من أقوى الشخصيات العسكرية والسياسية التى عاشت فى ذلك الزمان . .

وكنت أعلم أن حديثا يتطرق إلى نظام الجيش فى عهد الاحتلال ، ويفوه به أكبر القادة العثمانيين فى مركزه الرسمى بالديار المصرية - لن يخلو من ضربة تقض مضاجع المحتلين . . ولقد كان ما قدرت ، فإن الرجل خبطها خبطة عنيفة ، وقال لى لما سألته عن العدوان على المحمل المصرى فى جزيرة العرب : أن الذنب ذنب النظام لا الأمن فى الجزيرة العربية ، وأنه كان يستطيع أن يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرقة التى تحرس المحمل فى كل عام !

ياخير ! . .

إن كلمة دون هذه الكلمة فى المساس بنظام الاحتلال العسكرى قد أوشكت أن تطيح بعرش عباس الثانى ، وقد حركت الدولة البريطانية بخدافيرها لتهديده وإرغامه على الاعتذار . . فكيف تراهم يصبرون على تلك الضربة من قائد عسكرى يمثل الدولة العثمانية ؟ . . إلا أنهم مكروا ولم يجهروا ، وبدأت بينهم وبين القائد الكبير أزمة متواترة . . نصرهم فيها

عليه سمسرة الخذلان في الآستانة ، فكان الغازي مختار خاتم « القوميسيرين » في هذه الديار . .

ثورة على الخديو :

إذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من أوليات الصحافة المصرية ، فهذه هي « أوليتي » التي خرجت بها من أول عمل في صحيفة يومية : أول صحفى مصرى حصل على حديث من وزير عامل في الوزارة ، أو من رئيس شرقى كبير يسمع له رأى في السياسة . . وقد كدت أن أضيف إليها « أولية » أخرى ذهبت غير محسوس بها ، قبل أن تحبو من مهدا . .

كدت أكون أول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة إلى سياسة الأمير في شئون مصر وفي شئون الإصلاح الأزهرى على التخصيص . .

كانت سياسة الوفاق يومئذ في عنفوانها ، وكان مدار هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية ، سلطة الاحتلال ، وبين السلطة الشرعية سلطة الأمير . . وقامت السياسة فعلا - بعد عزل اللورد كرومر - على اطلاق يد الخديو في مسائل الحكم التي تعنيه ، ومنها مسألة الأزهر والأوقاف ومسألة الرتب والنياشين . .

وفي هذه الفترة تتمر الخديو للحركة الوطنية ، وأدار ظهره لطلاب الدستور ، وعمل جهده على استئصال نهضة الإصلاح في الأزهر بعد وفاة الأستاذ الإمام ، وأعلن عداؤه لمدرسة القضاء الشرعى وكاد يقضى عليها . .

وثارت الثائرة على الخديو من داخل الأزهر وخارجه ، فتكلم مرة عن نهضة الإصلاح الأزهرى وأقسم أنه يغار على الإصلاح غيرة أصدق من دعوى المدعين للغيرة عليه . .

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الأولى من صحيفة « الأخبار » التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ومحررها الأستاذ توفيق حبيب . قلت فيه مافحوا : إن الملوك لا يحتاجون إلى القسم لأنهم يثبتون نياتهم بالأعمال لا بالأقوال !

براءة المشايخ :

وكان في وسعي أن أكتب هذا المقال في صحيفة الدستور لأن صاحبها - الأستاذ فريد وجدي - كان كما أسلفت من أرحب خلق الله صلدرا لحرية الرأي وحرية المناقشة ، ولكنني قدرت له حرته هذه فلم أشأ أن أخرج في مسألة ترتبط بالأزهر والإصلاح الديني . وقد كانت له في العالم الإسلامي مكانة تشبه مكانة الأقطاب الدينيين . .

فلما ظهر المقال في صحيفة الأخبار بتوقيع (ع الأسواني) قلقت له الحاشية الخديوية ، وظنوا أنه من إحياء بعض المشايخ الأزهريين . . فأكبروا هذا « التمرد » من معقل الخديو الأمين في أيامه ، فاستدعت النيابة صاحب الأخبار وسألته عن اسم صاحب المقال ، فأذنت له أن يطلعهم عليه ، ولعلمهم اطمأنوا إلى هذه النتيجة بعد أن علموا ببراءة المشايخ من الشبهة ، فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحد ، اشفافا من إثارة القضية الأزهرية في أطوار التحقيق والمحكمة والدفاع وتعليقات الصحف وأحاديث المتحدثين .

ولولا ذلك لسبقت نفسي بثلاث وعشرين سنة ، فكنت أول من حوكم على تلك العيوب الملكية التي يحملها أصحاب العروش ومحاسب عليها أصحاب الأقلام .

يومية وغير يومية :

كانت الصحف المصرية عند أوائل هذا القرن تنقسم إلى يومية وغير يومية ، ولم تكن هناك صحف أسبوعية بالمعنى الذي نفهمه من الصحافة التي تصدر مرة كل أسبوع . . فإن لم تكن الصحيفة يومية ، فالصحف التي يقال عنها أنها أسبوعية قد تصدر مرة كل شهر أو مرة كل شهرين ، أو تنتظم على الصدور يوما في كل أسبوع إلى أمد محدود ، ثم تقطع دفعة واحدة ، أو تعود إلى الانقطاع على دفعات . .

وكانت مواعيد الانقطاع على الجملة أصدق من مواعيد الصدور . . لأنه كان يتكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقق من موعد للصدور . .

وربما انتظمت الصحيفة « الأسبوعية » خمسة أسابيع أو ستة أسابيع متوالية ، ولكنك تنتظرها عبثا إذا انتظرتها في يوم معلوم من أيام الأسبوع ، فإذا ظهر هذا العدد منها يوم الأحد فلا مانع أن يظهر العدد التالي يوم الخميس أو يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور

العدد الذى سبقه ، ولا معول فى ميعاد من هذه المواعيد على شىء غير « توافر المادة اللازمة للحصول . . »

شىء لزوم الشىء :

وما هى المادة اللازمة للحصول ؟ . .

حملة على مشهور أو فضيحة فى أسرة تخاف الشهير ، أو تهديد مقدور على حسب المناسبات ومصالح الضحايا المعرضين للتهديد ، أو ضجة سياسية ، أو اجتماعية تشتبك فيها المطامع والدعايات وتتعدد فيها الفرص للمنهزين من هنا ومن هناك . .

وكان أفضل هذه الصحف « الأسبوعية » الذى يسرع إلى الاحتجاب وتمنع عليه وسائل الثبات والاستمرار .

وقد ظهر من هذه الصحف الفضلى كثير لم يبق منها بعد حين كثير ولا قليل ، ولم يقل أحد من الصحفيين الأفاضل أو غير الأفاضل ، أنه يصدر صحيفته لمصلحة خاصة أو يصدرها لمحض الشهير والتهديد ، ولكنك تراجع الأسماء فلا ترى بها من خفاء . . وماذا يبقى من الحفايا وراء اسم كاسم « الكرياج » أو « البعيج » أو « الجاسوس » أو « اللجام » أو « الصاعقة » أو « المرصاد » أو « العفريت أو عفريت المقاولين على التخصيص ؟ . .

هذا إلى أسماء أخرى كالخلاعة والصبوة والغندرة والمرستان والفوضى ، وما أشبهها من أسماء يختارها أصحابها وهم فى سعة من الاختيار ، وفى سعة من الادعاء كما يشاءون بما اختاروه من كلمات ! . .

ولم يمض غير يسير حتى افرقت الكفايات اللازمة لإصدار الصحيفة الأسبوعية على هذا المتوال . .

فقد يكون الرجل من أجهل الجهلاء ، ولكنه من أقدر الناس على الشهير والتهديد واستغلال الفضائح والإشاعات .

وقد يكون الرجل عاجزا عن كسب ملهم من هذه الصناعة ولكنه قادر على تسويد الصفحات وتلفيق الأقاويل والأباطيل . .

ولابد من الكفائتين لإصدار الصحيفة فى موعدها الملائم . . فإن لم توجد الكفائتان فى

رجل واحد فقد توجدان في رجلين ، وقد يهتدى أحدهما إلى الآخر بحكم المصادفة إن لم يهتد إليه بحكم الضرورة . .

وهكذا كان . .

بين العتبة والفجالة :

فقد جددت في القاهرة ثلاثة مكاتب أو أربعة لتحرير المقالات حسب الطلب والاقتراح مقرها حانات وقهوات موزعة بين باب الخلق والعتبة الخضراء والفجالة وحى الحسين ، وهى الأماكن التى كثرت فيها المطابع الصالحة لطبع الصحف الصغيرة ، لأنها تكلف القليل من الأجور وتتقبل المقلقات . .

ورأينا من هذه « المكاتب » قهوة في العتبة الخضراء يجلس إليها محرر مشهور يكاد يرتجل المقالة في دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات قبل اقتراحها على وجهين متناقضين ، أحدهما للمدح والتأييد والآخر للقدح والتهديد . . ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب في حينه ، وقد يأتيه الطلب على التقيضين من طالب واحد في ساعة واحدة ، ولا يعجزه في اللحظة الأخيرة أن يدخل التعديل المطلوب في القياس والتفصيل ، إن كان لابد من تعديل ! . .

كان المكتب العام من « مكاتب التحرير تحت الطلب » ، في قهوة على مفترق شارع محمد على وميدان العتبة الخضراء ، وكان المطعم الذى تعودت أن أتناول فيه الغداء إلى جوار تلك القهوة . . فكنت أجلس فيها هنية قبل الغداء أو بعده ، وكنت ألقى فيها بعض الصحفيين والأدباء ، وأحضر مجالسهم ومحاوراتهم وأستمع إلى أحاديث غزواتهم وأحاييلهم في تحصيل أتاوتهم ، فرأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الأسبوعية في أيامها يجلس إلى مائدة « الشيخ الحرر » ويبادره بطلب من « البار » على حسابه ، ويفاتحه قبل حضور الطلب في موضوع مقالين مستعجلين ، يثنى في أحدهما على سرى معروف من أصحاب القصور الباذخة على مقربة من حى عابدين ، لأنه يثابر على عمل البر وإسداء المعونة إلى الجماعات الخيرية وإصلاح المساجد التى تجاور قصره وإطعام الفقراء الذين يرددون على تلك المساجد لوجه الله الكريم ، وينحى في المقال الثانى على ذلك السرى بعينه لانه مبتذل العرض والكرامة يفر بالأبرياء فيسوقونه إلى ساحة القضاء ، ويطالبونه بالتعويض عما أصابهم به من الأدواء . .

ثمن الفخر والثناء :

وخرجت من القهوة إلى المطعم والمقالان يكتبان ، ولعلها عرضا في ساعة واحدة على السرى المصلح المفسد ، النافع الضار ، المحمود المذموم . . ولعله قد بذل الثمن ضعفين : ثمن الفخر والثناء و ثمن السلامة من الحزى والبذاء .

ومجمل ما يقال في هذه الصحافة أنها كانت في مجموعها على هذه الوتيرة . . بين صحافة صالحة تسرع إلى الاحتجاب ، أو صحافة فاسدة تعيش متقطعة متسكعة ، ويقطع لها الخثالة من نفايات البلد ، وقل أن تعتمد على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتبال . . ولنا أن نقول في كلمتين أنها صناعة مرذولة ولا حرج ، وعلينا أن نذكر أننا نتكلم عن الصحافة ، وأن الصحافة يومئذ كانت ظاهرة اجتماعية تبحث عن مكانها . . ومن أعجل الأحكام أن تدان الظواهر الاجتماعية بحكم واحد في فترات النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلا بد من استثناء في هذه الفترات ، بل لابد من حكم مثند يقابل الحكم العاجل ويلغيه أويكاد . .

صناعة مرذولة محتقرة . .

هذا هو الرأي المجمل في صحافة مصر غير اليومية منذ خمسين سنة . . ولكنك لا تستطيع أن تبخل بوصف الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ في مصر إذا التفت من ناحية الصحافة « غير اليومية » إلى ناحية الصحافة اليومية ، لما كان في مصر يومئذ من صناعة تضم بين أبنائها أناسا أحق بالاحترام من على يوسف مدير المؤيد ، ومصطفى كامل مدير اللواء ، وأحمد لطفي السيد مدير الجريدة ، كائنا ما كان المقياس الاجتماعي الذي تقاس به الصناعات .

طبقة من المجاورين :

ولا استثناء في ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فإن الرتب والألقاب التي حصل عليها أقطاب الصحافة المصرية من الدولة لم تكن تقل في قيمتها الرسمية عن ألقاب الوزراء . . ومن حصل منهم على « البيكوية » فإنما كان يحصل عليها من الصنف الذي ينادى صاحبه بلقب الباشوية ، ولولا أن الأستاذ « أحمد لطفي السيد » كان من المعارضين للسيادة العثمانية لجاءته - الرتبة التي أنعمت بها الدولة على صاحبي المؤيد واللواء . ،

ومن الملاحظات التي لا تهمل في هذا الصدد مسائل الزوجية التي تعرض لها كبار الصحفيين في تلك الآونة ، فإنها تدل على إحساس عميق داخل أصحاب هذه الصناعة أودع في نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية في شئون يتغلب فيها العرف التقليد على كل اعتبار جديد ، فلولا « الاحترام الاجتماعي » الذي كان يحسه الزعيم النابه في الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل أن يخاطب « الأميرة شويكار » ولا خطر لعل يوسف أن يتزوج بسليمة بيت السادات ، وهو طموح أبعد من الطموح إلى مصاهرة بيت الإمارة ، لأن اعتداد بيت السادات بشرفه الديني كان في ذلك العهد أقوى من اعتداد الأمراء بمراتبهم الدنيوية .

ولا يرجع شيء من هذا الاحترام الاجتماعي إلى مزية من مزايا الطبقة أو مزايا الثروة . .

فإن مصطفى كامل كان في طبقة الموظفين الصغار ، وعلى يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء « المجاورين » للجامع الأزهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسط يذكر بعد أن بلغا في الصحافة قمة النجاح . .

* * *

من الكلمات التي قرأتها ولم أنسها منذ قرأتها كلمة الروائي العبقري « شارلز ديكنز » في مقدمة قصة المدينتين حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

« إنه كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان . . كان عهد اليقين والإيمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام . . كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط ، بين أيدينا كل شيء وليس في أيدينا أي شيء ، وسبيلنا جميعا إلى سماء عليلين ، وسبيلنا جميعا إلى قرار الجحيم . . تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاحبون من ثقافتها أن نأخذها على علائها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » . .

فقد قرأت هذه الكلمة فخطر لي يوم قرأتها أنها لعبة من ألعاب المجانسات اللفظية لا تصدق على زمن من الأزمان ولا على حالة من الحالات ، فما برحت منذ قرأتها أعيدها أوتعيدني إلى ذكرها كلما صادفتني مرحلة من مراحل التاريخ الكبرى ، لأنها وصف يصدق على كل مرحلة من هذه المراحل ويصدق على كل جديد . . ومنها فترة اليقظة المصرية في أوائل هذا القرن العشرين . .

حائر بين الاثنين :

وطالما حيرتني وحيرت غيري هذه المناقضة بين الصحافة اليومية المحترمة ، والصحافة « غير اليومية » التي لم يكن لها حظ من الاحترام . .
وليس مما يدفع الحيرة أن نعلم أن « الفترات الخالقة » بطبيعتها متناقضة مشتملة على المحاولة من طرفها ، إلى النجاح أو إلى الإخفاق . .
ولكنني أحسب أن الصحافة في أوائل هذا القرن قد أصبحت « هامة » ولم تصبح « عامة » إلا بعد حين . .

وهذا فيما أحسب هو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة - بمقاييس المجتمع - وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس . .
فالصحافة إذا كانت وظيفة هامة ، أثبتتها القوة الاجتماعية التي تعرف لها أهميتها وتحذر من إهمالها ، وهذه القوة الاجتماعية تأتي من قوة المجتمع ومركز القيادة فيه . .
وأما « الوظيفة العامة » فلا غنى لها عن « رأى عام » يسندها ويراقبها ويتعهد بها ويتكفل لها كما تتكفل له بالحماية والرعاية . .

ولم يكن لهذا « الرأى العام » وجود في أوائل القرن العشرين ، ولم تكن الصحيفة الأسبوعية قد بلغت من القوة أن تؤدي الوظيفة الهامة التي تؤديها الصحيفة اليومية وتهتم بها قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقن عواقب الإهمال فيه . .
كانت الصحيفة اليومية توجد لأنها لازمة مهمة في اعتبار طائفة تتولى القيادة الاجتماعية . .
أما الصحيفة الأسبوعية فإنما كانت توجد لأنها لازمة لصاحبها ومن يعمل فيها ، فإن لم يتكلفوا بتدبير أمرها فما من أحد غيرهم يتكفل بتدبيره . .

* * *

وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة - يومية وغير يومية - عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لأنهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها . . فربما سمي الكاتب في الصحيفة بالتحريجي ، أو الجورنالجي ، أو الغازيتي ، أو المحرر من صناعة التحرير في المطابع والدواوين التي تكتب فيها الرسائل . . فأما كلمة « الصحافة » فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن

« فعالة » كالنجارة والحداثة والملاحة والتجارة وكل ما يأتى على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحافي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمستول .

صناعة بغير عنوان ، أو عنوان بغير جهة ، ولا فرق في هذا بين جهة المكان وبين « الجهة المعنوية » إذا استعرنا هذه العبارة من لغة القانون . .

في « سيلندد بار » :

فقد ترى في « سيلندد بار » أناسا من الصحفيين ، ولكنهم لا يقصدونه لأنهم صحفيون مشغولون بهذه الصناعة . . وإنما يقصدونه لأنه ملتقى المهاجرين من سورية ولبنان والعراق وغيرها من الأقطار العثمانية . .

وقد ترى أناسا آخرين في قهوة الشيشة ، أو القهوة الوطنية ، أو قهوة يلدرز أو قهوة متاتيا ، أو قهوات الحى الحسى ، وباب الخلق ، والفجالة . . ولكنك لا تراهم هناك لأنهم يعملون في هذه الصحيفة أو تلك ، وإنما تراهم حيث كانوا لأنهم يسخنون الشيشة أو يشجعون القهوات المصرية في أول عهدها بمنافسة القهوات الأجنبية ، أو لأنهم يلعبون الشطرنج والدومينة ، أو لأنهم تناقلوا سنة الجلوس في هذا الحى أو ذاك من أيام الطليعة الأولى بين الأدباء رواد الأندية العامة . .

وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية ، أو البيئات القلمية ، تتحقق من أمر واحد لا اختلاط فيه ، وهو اتصال تلك البيئة بالحركات العامة في الشرق كله . . فلم تعرف حركة عامة في قطر من أقطار الشرق لم تكن لها صلة ببعض الجالسين . .

هنالك ترى الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء أو مذاهب الاشتراكية أو تحرير المرأة ، ومعهم ترى رئيس جماعة « تركيا الفتاة » أو صاحب الصحيفة الإيرانية الحرة ، أو مؤلف كتاب طبائع الاستبداد ، أو عصابة الحملة على فتوى الترنسفال . وهناك رأينا ابراهيم ناصف الورداني بهياجه الدائم ولطفته الدائمة على أطباق الأرز واللبن ، ورأينا مصطفى الصغير الداعية الإسلامى الهندى الذى جازت حيلته في مصر واعتقله الكماليون من الآستانة فحكوا عليه بالإعدام ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج الدولة البريطانية . .

وهناك كنا نلقى من نلقاهم من الأدباء الذين لا يشتغلون بالصحافة إلا إذا كتبوا إليها ،
ومهم كانت صفوة الصحب والزلاء على قلة ترددهم وترددنا على القهوة لغير موعد أو
مصادفة .

وكانت الصناعة كلها عارضا غريبا في بيئات غريبة . .

صناعة بغير عنوان :

صناعة بغير عنوان أو عنوان بغير جهة . . ومن هذا التيه بين البيئات تعرف ما يحيط به من
القلق أو من « التوزع » والبثرة بين مختلف الشواغل والهموم . .
إلا أننا نبرئ الذمة قبل ختام هذه الفاصلة من المذكرات فنسأل : أكانت الصحافة حقا
عارضا غريبا كل الغربية في المجتمعات المصرية أو الشرقية ؟ أيمن أن توجد صناعة في مجتمع
من المجتمعات دون أن تسبقها صناعة متشابهة لها قائمة على أساسها ؟ . .
أكد أقول أن وجود هذه الصناعة مستحيل ، فلا بد من صحافة قبل الصحافة على صورة
من الصور ، ولابد من صحفيين قبل الصحفيين . .
وللصحفي في المجتمع المصري أب أوجد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته ، فن يكون
هذا الأب أو هذا الجد الذي ننتهي إليه أجمعين ، نحن معاصر الصحفيين ؟ .
هو « اللبيب » على أحسنه وأعلاه ، وعلى أسوئه وأدناه . . واللبيب الذي يعلو حتى يتبوأ
مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذي يصغى إليه المتعلم المستفيد كما يصغى
إليه « الفهم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة . . واللبيب الذي يهبط حتى يصدق عليه
وصف « الثرثرة » أو « الأدباني » الذي يفهم بالإشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق
المباح والمحظور ، ولا يبالي ما يصيبه في سبيله من الزرابة والابتذال . .
اللبيب هو « جد » الصحفي في المجتمع المصري ، على أسوئه وأدناه وعلى أحسنه وأعلاه .

أزمة قلم

تعطيل « الدستور »

بقيت في تحرير صحيفة « الدستور » حتى فرغنا من كتابة الكلمة الأخيرة في عدده الأخير..

وقد مضت علينا قبل احتجاجه أشهر ونحن نعلم اننا نكتب أعداده الأخيرة ، وإن كنا لا نعلم أيها يكون الأخير الذي ليس بعده آخر..

وأبت المروءة على صاحب الصحيفة أن يطل أحدا من أصحاب الديون عليها أو أصحاب الأجور فيها بدرهم واحد .. فاتفق مع تاجر من تجار الورق المشهورين على أن يشتري مؤلفاته جملة واحدة سدادا لثن الورق وما إليه ، واتفق معه في الوقت نفسه على أن يشتري النسخ من الموظفين والعمال بأثمانها المتفق عليها ، وأذكر أن ثمن النسخة من معجم « كتر العلوم واللغة » لم يزد في هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشا ، وكانت قبل ذلك بمائة قرش ثم بيعت بعد أشهر قليلة بخمسين قرشا ، ثم بسبعين ..

ولقيت الرجل مودعا فقال لي أنه يرجو أن نتعاون معا في عمل صحفي نحن أقدر عليه وأصلح له من الصحافة السياسية ، وأنه يدرس الفكرة ويلخصها لي عسى أن أفكر فيها ، ويرجو أن يبلغني نتيجة درسه لها بعد أسبوعين أو شهر على الأكثر ، إذا صح العزم على الشروع في تنفيذها ..

مقالاتي مرتين ! ..

كان الأستاذ فريد وجدى يصدر مجلة شهرية تسمى « الحياة » ويكتب فيها أحيانا مقامات خيالية تسمى بالوجديات ، ثم تفرغ لإصدار الدستور وترك المجلة إلا في فترات متباعدة يعاودها كلما اجتمع لها من مادة الفصول الأدبية ما يملأ عددا من أعدادها ، وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتي التي كنت أنشرها في الصحيفة اليومية ..

أما « الوجديات » فقد كان يكتبها على أسلوب المقامات ويديرها على المواعظ الاجتماعية ،

وتقريب المثل العليا التي تصطبغ على الدوام بصبغة الدين أو بصبغة الأخلاق المثالية ، وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيبتها وقد تصدر منها طبعتان وثلاث طبعات .
قال الاستاذ : « إن الحياة » أولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية ، وإنك تستطيع أن تجرب قلمك في المقامات فظهر « الحياة » وفيها مقاماتك ومقالاتك إلى جانب « الوجديات » ولولا أنني أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن عمل آخر لشرعنا فيه منذ الساعة ، ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع ..

.. بلا عمل :

ومضت الأسابيع ولم أسمع من الاستاذ خبرا عن هذه الفكرة ، ولم أصل من دراستها بيني وبين نفسي إلى نتيجة تدعو إلى الثقة بنجاحها ، فوجب البحث عن عمل لي في الصحافة أو ما يناسب الصحافة ، ولكن ما العمل الذي يتيسر لي عند طلبه على عجل ، ولا بد من العجل ، ولا طاقة بالانتظار ..

أفق الصحافة في تلك الآونة مظلم يطبق عليه الظلام من قراره ، ولا تلوح منه شعاعة برانية ولا جوانية ، لأن البلاء الذي كانت تصاب به الصحافة من داخلها قد كان أشد عليها من البلاء المسلط عليها من أعدائها ..

كان « اللواء » في حياة مصطفى كامل يعول على موارد يلدز وعابدين ومعونة بعض الغيورين من سراة الترك والمصريين ، وانقطعت موارد يلدز وعابدين من قبل وفاته .. وانقطع الأمل في موارد يلدز بعد زوال عهد عبد الحميد ، وفي موارد عابدين بعد اعراض الخديوي عباس عن الحزب الوطني في عهد سياسة الوفاق واستحكام العداء بين الحاشية الحديوية وخليفة مصطفى كامل « محمد فريد » .. وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده بأعباء اللواء المالية والسياسة ، لولا ما أصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع عزيمته آخر الأمر على هجرة الديار ..

وكان « المؤيد » يزدهر في ابان نشاط صاحبه « على يوسف » .. ثم نكب هذا الرجل العصامي نكبة قاسية عصفت بشاطئه قبل أوانه ، إذ فجعت المنية في وحيدة في مقبل صباه ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الأسرة أو مشكلات « مشيخة السادات » التي ساقته قضية الزوجية إليها ، وما زال دبيب الملل يسرى إليه ويزهده في صحيفته العزيزة عليه حتى

تركها بعد حين للمقادير ، وهو لا يبالي ما سوف تلقاه ، أو ما سيلقاه ! ..
 وكانت « الجريدة » أسلم الصحف من هذه الزعازع وأشباهها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها السياسيين وفي مقدمتهم الحاشية الخديوية ، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية .. فإن حاشية الخديو افتتحت عهد الوفاق بين السلطين الشرعية والفعلية بمحاربة « حزب الأمة » قبل غيره من الأحزاب ، لأن أعضاء الأحزاب الأخرى كانوا يلوذون بالقصر ولا يقاطعونه ، خلافا لأعضاء حزب الأمة الذين كانوا يقفون من القصر موقف الاستقلال أو يتعرضون لغضبه في كثير من الأحوال ، فسعى رجال الحاشية سعيهم لتحويل الأعضاء من حزب الأمة إلى حزب الإصلاح ، ونجح مسعاهم بعد اختيار وكيل حزب الإصلاح للوزارة وتتابع الانعام بالرتب والألقاب على أعضائه البارزين .. ولم تبق للحزب بقية قادرة على الصمود والمقاومة إلا بمجهود جهيد ، ولكنه بقاء لم يعصم الجريدة من أزمات المال والخلافات الداخلية ، وعرفت من محرريها يومئذ من تركها لأنها اضطرت إلى القصد في وظائف التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها ، حتى كانت تقنع من المحررين في اليوم ، ولا تسأله إذا وفي عن كتابة هذا النهر عدة أيام ..

حياة الظلام :

وتلك هي الصحف التي أنظر إليها إذا نظرت إلى عمل في الصحافة اليومية ، فأما الصحف الأسبوعية فلم يكن فيها مجال لغير أصحابها أو لغير كتاب المقالات - بالقطعة - على حسب الطلب ، وعلى كل لون ، وفي عرض الطريق !
 وربما تأتى للصحافة في مجموعها أن تغالب هذه المحنة ، وأن تغلب عليها في النهاية لو لم تطبق عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات الرهيب : قانون الحجر والرابة وتقييد الرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور ، وعلى الأقوال والنيات ! ..
 وقد انطوى هذا القانون بعد نشره في أيام الثورة العراقية ، ثم بطل العمل به زمنا طويلا حتى نسينا نحن الصحفيين الناشئين أن في البلد قانونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات ، وأن الكاتب يسأل عن شيء قاله في حدود النقد المباح كائنا ما كان مقام المنقود في الحكومة أو في البلاد ..

ومما يؤسف له أن نصيب الصحافة من هذه الطامة التي جرتها على نفسها لم يكن أهون من

نصيب الحكومة ، وانها جنت على حريتها ولا ريب بما زودت به « السلطة » من معاذير ،
يقبلها كل من يؤمن بحق القانون ..

فلا نذكر أن أحدا من أعلام الصحافة كتب في صحيفته كلمة تتعلل بها الحكومة لتقييد
حرية الكتابة أو قال في خطبة من خطبه كلمة تتعلل بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع ، ولا
نستثنى من ذلك « مصطفى كامل » على تطرفه واندفاعه في الخطب ، وفي المقالات ..
ولكن الصحافة اليومية لم تلبث أن صارت إلى الأعلام التي لا تحسن شيئا كما تحسن أن
تسقط معاذيرها وأن تمهد العذر لمن يتمحلون العلل عليها ، ولا نخال أن حاكما حرا أو مستبدا
كان يعيه أن يتمحل العلل للحجر على الدعوة الصريحة إلى القتل وإهدار الدماء ، ومن أمثلتها
ما نشر في ديوان « وطني » من أبيات يقول فيها ناظمها :

هل سال في مصر الدم أم هل افاق النوم
ومضوا إلى أهل الضلا ل فأعدموا من أعدموا

فإنه لمن سخافة القائل أن يتهم بالاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض ، فإن لم
تكن مستبدة فمن السخف أن يحاسبها على منع هذا التحريض وتحريمه .. فما كانت حكومة حرة
أو مستبدة لتحاسب على هذا المنع وهذا التحريم .

حطرت قبرها بيدها :

وكأنما كانت الصحافة الاسبوعية والصحافة اليومية في سباق بينها على تدبير المعاذير للسلطة
التي تعمل على تقييدها والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين الاسبوعيين في ذلك الحين
يستبيحون كل محظورة في التشهير واستغلال الفضائح وافتراء الكاذب لاغتصاب الاتاوات
التي تعمل على تقييدها والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين الاسبوعيين في ذلك الحين
سوء حظها وحظ الأمة أن يكون ممثلو البلاد أكبر أهدافها وأول من يصاب بسهامها ، فكان
التشهير بأعضاء مجلس الشورى بابا ثابتا من أبواب كل صحيفة أسبوعية تبحث عن الفريسة
بين ذوى الاسماء المعروفة ، ولم يكن لأعضاء مجلس الشورى سلطان في الحكم يحاسبون عليه أو
يناقشون فيه ، وإنما كانوا من أعيان البلاد وكان أكثرهم بعاصمة البلاد على مقربة من جمهرة
الصحفيين الاسبوعيين فكادوا أن يتوبوا عن البلاد جميعا في مصابها بالصحافة الأسبوعية

وتصدى بعضهم للمطالبة بتقييد الأقلام قبل أن يتصدى لها الوزراء والحكام .
قال أحدهم للأمير حسين كامل مستثرا لنخوته : هل يرضيك يا صاحب السمو أن يقال
عنتك أنك رئيس مجلس الشورى ؟ ..

وعلى هذا النحو تبلى البلاد بالنكسة وقلب الحال ، وينادى بالحجر على حرية الصحف
من كانوا أحق الناس بالغيرة على حريتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية الناس ..

في القائمة السوداء :

وطالت محنة الصحافة هذه بمن يجنون عليها من أبنائها العاملين فيها ومن أعدائها الساخطين
عليها ..

وطالت حيرتى بين العمل فيها والعمل فى غيرها ، وابن يكون العمل فى غيرها ؟
إنه التدريس ولا شىء غيره .. فإن لم يتيسر فى المدارس الأهلية فقد يتيسر بإعطاء
الدروس الخصوصية ، وأما وظيفة الحكومة فهيات الآن «هياتين» لا هيات واحدة ..
لأننى كنت قبل اشتغالى بالصحافة اتحنى عن وظيفة الحكومة لفورى منها .. فالآن أطلبها -
إن طلبتها - ولا أظفر برضاها ، بعد أن ثبت اسمى فى سجلات الحكومة بين أسماء القائمة
السوداء وبعد أن صار الغضب على الصحافة والصحفيين غنيا عن الأسباب ..
ولا بد من عمل عاجل على أية حال ، لأن تكاليف المعيشة على الشاب الذى لا يكسب
رزقه من وظيفة . ولا من مورد يملكه ، ضرورة ملحة لا تتحمل إلا رجاء من يوم إلى يوم ..
ولا نقول من أسبوع إلى أسبوع .

وكرهت نفسى أن ألبأ إلى أحد من الميسورين من أهلى ، وهم غير قليلين بحمد الله ..
كرهت نفسى أن ألبأ إليهم ، لأننى تحديتهم جميعا وخيت رجاءهم قاطبة بالخروج من
الخدمة الأميرية بعد أن وصلت إليها بين مزدحم الطلاب المتهاوتين عليها ، وشق على أن أرفض
نصيحتهم ثم أسعى إليهم لا أتمس معونتهم ، وخيل إلى أنهم قائلون بلسان الحال أن لم يقولوا
بلسان المقال : إنك أعرضت عنا وذهبت إلى الصحافة .. فأمالك اليوم صحافتك العزيزة ،
فخذ منها ما تعطيك .. !

وإلى أن يوجد العمل ، ما العمل ؟ ..

تبين لى بعد قليل أن المصرف الأكبر بالأمس صالح أن يكون اليوم موردى الأكبر، إن لم يكن موردى الوحيد ..

هذه الكتب الكثيرة لم لا تباع إلى أن تتجدد القدرة على شرائها ، إن تجددت الحاجة إليها ؟ ..

إنها الآن بالثلاث بعد الاقبال على شرائها نحو ثلاث سنوات .. وليس من المنظور أن تباع بضمن الشراء مع الحاجة الملحة إلى البيع السريع ، ولكنها تباع بما يكفى لقوت اليوم واليومين والأسبوع .. وقد تكفى خمسة قروش لقوت اليوم فى تلك الفترة ، ولا علينا من أجرة البيت وأمثاله من النفقة المتجمعة التى تقبل التأجيل زمنا طويلا أو غير طويل ..

ولقد كان موردا نافعا قد يمتد فيسعدنا - مع الدروس الخصوصية - بضعة شهور .. لولا حواء ، وبنات حواء ، جزاهن الله بما هن أهل له من جزاء .. من سكن الريف عرف خير ما فى بنات حواء من مروءة وصفات ، ولم يخف عليه شر ما فيه من كيد والتواء ..

هن الأمهات المتطوعات للشباب الناشئ المنفرد بمعيشته فى عقر داره .. من ترى يبيئ له طعامه ؟ من ترى يهتم بتنظيف ثيابه وترتيب أثاثه ؟ ولم لا يتزوج ؟ ومن تراها تنفعه وتلائمه من بنات الجيران ؟ ..

وقد كنت أسكن فى حدائق القبة فى ضاحية كالقرية الريفية فى كل شىء ، ومنه - بل أهمه - الامهات المتطوعات والخطيبات « المزعومات » ..

وكانت لى خطيبة منهن لم أنخطبها ، ولم أتحدث إليها ولا إلى أحد من أهلها فى حديث زواج .. وكانت لها صاحبة لعوب فى مثل سنّها متزوجة من بعض ذوى قرباها ، فقالت لى ذات يوم : إن فلانة لا تأتى إلى ناحيتك فى هذه الأيام لأن صويحباتها يعاكسها ويسمينها خطيبة « أبو طويلة » . ولا تغضب هى من هذه التسمية ، بل تقول لمن مزهوه مستخفة ، وماله أبو طويلة أليس خيرا من المساحيط ؟ ..

ولم أشأ أن أجيب الفتاة اللعوب جوابا يكسر خاطر الخطيبة التى لم أنخطبها ، ولم أشأ كذلك أن أجيبها جوابا يربط الخطبة المزعومة ويؤكد لها ! .. ولم أزد على أن قلت : شكرا للفتيات العابثات ، فقد أحسن والله الاختيار والانتقاء .. ولو كان فى نيتى أن أتزوج أو أنخطب لما وجدت فى الحى زوجة أجمل من صديقتك الحسنة ..

قالت : كأنك في غير هذا الحى تجد من تحطبه ؟ ..
قلت : ولا في غير هذا الحى .. ولكنى الآن في شغل عن الزواج .. أفلا ينبغي أن أعول
نفسى قبل أن أفكر في زوجة أعولها ؟ ..
وكأنها خطبة قد انعقدت بهذا الحوار ، وكأنه حق مكتسب للسؤال عن الحركات
والسكنات ، وعن المبيت في المسكن وغياي عنه بعض ليال ..
ولم أفارق المتزل بمحمل من الكتب على دفعتين أو ثلاث حتى اعتقدت الخطبية أنى أنوى
الرحيل ، وأهم بفسخ الخطبة التى لم تتعقد قط بكلمة تصريح أو تلميح .. وعزز اعتقادها
عندها أنى كنت أحمل كتابى للمطالعة إلى حقل من حقول الليمون بجوار جدول في طريق
كنيسة ، فقيل لها أنه يهيم بفتاة قبطية هناك ، وأنه يؤجل مسألة الزواج بها لأنها مشكلة ،
لا تنحل إلا إذا انحلت بينهما مشكلة الاختلاف في الدين ..
وأين أنتم يا أصحاب المتزل الغافلين عن سكانه وعن زواره وجيرانه ؟ إن ساكنكم
الأعزب ليستعد للهرب بالأجرة المتأخرة عليه .. فإن لم تصدقوا فتربصوا له في الطريق وانظروا
إليه وهو يحمل كتبه دفعة بعد دفعة ليترك لكم حجر تكم خواء خلاء ، لا يعوضكم عن
أجرتكم الضائعة إن حجرتكم عليه !
وصدق أصحاب المتزل الغافلون ، أو الزعوم عنهم بالباطل أنهم غافلون ..
وحيل بينى وبين أول « رصة » من الكتب خرجت بها بعد هذه الوشاية ، وكادت أن
تكون مشاجرة ريفية من طراز الشجار بالنبوت على الحقوق الضائعة ، ولكن الله سلم والهمنى
أن أسلم الكتب وأمضى بسلام ..
وفي يومها اقترضت أجرة السفر للعودة إلى أسوان ..
وفي اليوم التالى لوصولى إلى أسوان ، أرسلت منها حوالة بريدية إلى صديق لى من أبناء
الأقليم يدبر عيلا مشهورا لبيع الطرايش وتركيبها ..
وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد المقادير التى لا تقع في حسابان ..
فقد كان صاحبنا الطرايشى ممن اشتركوا في ترويج الطريوش الأبيض احتجاجا على دولة
النمسا التى كانت تصدر إلينا الطرايش الحمراء ، لأنها أعلنت ضم بلاد البشناق إليها من أملاك
الدولة العثمانية ، فقاطعها المصريون واستغنوا برهة عن الطرايش الحمراء بالطرايش
البيضاء ..

واضطفنا وكلاء المعامل النسوية في القاهرة ، فنصبوا فخاخهم وحبائلهم لجماعة التجار الذين اشتركوا في حركة المقاطعة ، ومنهم صديقنا الطرايشي من إقليم أسوان .. فلما وصلت الحوالة البريدية إلى القاهرة ضاعت في تيه الحراسة والحجز والتصفية وإجراءات « السنديك » وأمناء الحسابات .. ومضت سنوات وأنا لا أعلم مصير كتي في معتقلها المهجور . وإلى أن لقيت الاستاذ عبد العزيز الصدر عرضاً فأنبأني أن جيرانه في حدائق القبة عرضوا عليه تلك الكتب فاشتراها ، وأنه على استعداد لردها إلى بئنها إذا أردتها ، فشكرته وقلت له أنني لا أحتاج إليها ، ولكنني قد استردها بئنها إذا اتسع لها مكان عندي ، ولم يتسع لها - بعد - مكان ..

بين الأمل واليأس

وصلت إلى أسوان كالساهر الذى طوى الليالى وصالا بغير راحة ، ثم ركن بجانب لحظة واحدة إلى طرف الفراش .
أنه فى سهرته يواصل الحركة ولا يبالى متى يرقد ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدرى متى هو قادر على النهوض .
كنت أجور على جسدى ولا أعرف لهذا الجور حدودا يرجع عنها ، لأن تلك الحدود لم تصلنى قط بصخرة من صخورها ولا بحاجز من حواجزها ..
وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان المديرية بالزقازيق ، ثم أعبى المدينة فى ليالى الشتاء إلى مسكنى على حافة كفر الصيادين .. فلا أكثرث للمطر ولا للبرد ، ولا ألبس المعطف ولا أحمله تخففا من مؤنة حمله على الذراع ، وهو معلق فى حجرة الدار يعلوه الغبار ..
وكنت أقضى اليوم فى حدائق القبة على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول ، ولا يخطر لى أن أهمل الغذاء ضرر أذكره لحظة بعد ذهاب الجوع .
وكنت أفتح الكتاب الجليلد فيروقى ما قرأته فيه فلا ألقيه من يدي حتى أفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء فى البيت غير شمعة أو مصباح ذى فتيل ..
وكنت أحسب أن سفرى إلى أسوان ضرورة ألجأتنى إليها قلة « المصروف » فى القاهرة ، فلما وصلت إلى أسوان علمت أنها ضرورة ما فى ذلك جدال .. ولكنها ضرورة الإفلاس فى ذخيرة البنية وأعصابها وليست بضرورة الإفلاس فى ذخيرة الجيب ! ..
وقد وقع فى خلدى أننى أزداد نشاطا فى بلدنى لأنها مصحة للجسم ومصحة للنفس بين الأقرباء والأعزاء ، فعجبت بعد أيام حين رأيتنى أفقد النشاط لايسر الأعمال ، وكنيت أحسبه تيارا متجددا لا يقبل النفاذ ..
تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدأ لى كأننى مريض بكل داء ، معروف وغير معروف ..

ولا مرض هناك غير الركود والاعياء وإجهاج الأطباء ، ومنهم الفطاحل العالميون الذين يفدون إلى المدينة مشغولين أو يفدون إليها في حواشى الأمراء ..
وتملككنى فكرة الموت العاجل ، فأدهشنى أننى لم أجد فى قرارة وجدانى فرعا من هذه الفكرة ، وكدت أقول لنفسى أننى أطلبها ولا أنفر منها .. !
وأخال أن صدمة اليأس كانت أشد على عزمى من صدمة المرض ، أو على الأصح ، من صدمة الإعياء ..
وأشد ما أصابنى من هذا اليأس أنه كان يأسا من جميع الآمال ، ولم يكن يأسا من أمل واحد ..

خلاصة الأمل !

كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية فى الحياة ، لأننى قبل ذلك بشهر عكفت على القراءة فى كتب « الفلسفة المادية » وأكثر من النظر فى مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لى أنه أصدق من أقوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الأوربيين باسم الدين ، ولاح لى من النظرة الأولى على غبروية فيه أن يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبق بينه وبين السماء معراجا واحدا يرتفع عليه ..
وكذلك كتبت فى مقدمة كتابى « خلاصة اليومية » .. ان « الإنسان حيوان راق ولكنه حيوان » ..

وقصة « الخلاصة » هذه هى قصة الأمل الذى بقى عندى يومئذ فى شهرة الأدب ، وفى عدد الأيام التى أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب ، وكنت أطنى مبالغا إذا حسبته بأكثر من الأيام !

هو الموت إذن كما استقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر .. وهو الموت إذن أمضى إليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبق بعد ذويه ..
وهل هذا يلىق ؟ يا ضبيعة لرجاء المجد المتطلع إلى عشاقه وعباده ؟ .. فعل أقل من هدية فى اليد تجبر خاطر العرف على أبواب الأبدية ؟ وهل يقال أنه يجلس على الأبواب فى انتظار زيارة فارغة اليدين ؟

ويحوز أننى كنت أطيق فى تلك الغاشية أن أوفى القربان المطلوب بتصنيف كتاب من وحى

الساعة والمناسبة ، ولكننى عدلت عنه لضيق الوقت والشك فى اتساع الأجل .. ويجوز أنى أحاوله واستنفد به الفضلة الباقية من مطالب العمر المحدود .. فإذا كان ما تسركافيا فذاك ، وإن كان للمجد ضريبة أعلى مما تسرظه أن يتقاضاها حيث يلقاها .. فلا خير فى جود بغير الموجود ..

وما تسر يومئذ هو « خلاصة اليومية » .

يوميات اليأس !

و « اليومية » هذه هى دفتر صغير كنت أقيد فيه الحواطر والتعليقات ، وأبادر إلى إيداعه آيات الشعر التى نظمته ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رؤوس الموضوعات التى نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات ونوادير الأحاديث العابرة التى أعاودها فى مناسباتها ، وقد اجتمع عندى من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات .. فلما وقع فى وهى أنى سأذهب - بغير أثر ولا خبر - تصفحت هذه الدفاتر ، ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها ، وبعثت بها إلى صديق فى القاهرة أقول له أن هذه الصفحات هى كل ما أتركه إذا تركت الحياة ، فإن وجدنى أهلاً للذكر ووجدتها أهلاً للنشرفلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقى ، وإلا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان يطويها حيث طواها فى زاوية من زواياه ..

ولبثت هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحاً من أسلحة الفكاهة والنكاية يشحذه لإخواننا الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها .. فمنهم من يقول متمللاً : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد طال الأمد على انتظارها .. ومنهم من يقول مستمهلاً كلما شكرت أو التمتت العلاج : على رسلك بالله .. ! إن المطابع مشغولة فى هذه الأيام .. فاصبر هنية حتى تفرغ لطبع خلاصتك وأمثالها .. !

وما يرحوا يستعجلوننى ويستمهلوننى حتى أرحتهم وأرحت نفسى بطبع خلاصة اليومية ، بعد أن أضفت إليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التى لم أترقبها أنها نفذت فى أقل من ستة شهور ، فلم يبق من التى نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو لنجاح غريب لكتاب ولدته فكرة بائسة من الحياة ..

الأكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معى وهم الموت حقبة فى أسوان ، وعاش معى حقبة أخرى فى القاهرة .. بعد أن رجعت إليها فى وقدة الصيف ، ولكننى التفت فلم أجده معى فى شاطئ الإسكندرية يوم ذهبت إليها لأول مرة ، بل وجدتني مع عرائس البحر وعرائس الشعر فى لجنة من لجج الأمل والمغامرة . وبرزت الإسكندرية بعد شهرين لأبحث عن عمل بالقاهرة .. أين ؟ أفى الصحافة ؟ كلا .. فما زالت الصحافة فى مثل محنتها التى عهدتها يوم انتهت من عملى فيها .. أفى التدريس ؟ .. كلا أيضا .. فإن المدارس قد بدأت عملها ، ولا معرفة لى بأحد من أصحابها ..

ولم يطل ببحثي هذه المرة ، فإننى وجدت « المأوى » الذى لا بد منه فى عمل بين الصحافة والوظيفة ، أو بين خدمة الميرى والخدمة الحرة ، فعملت فى قلم السكرتارية بديوان الأوقاف ..

كان الأستاذ « عبد الرحمن البرقوقي » رحمه الله قد أصدر مجلته « البيان » وكتب فيها بعض الفصول ، ومنها تلخيص لكتاب « ماكس نوردو » المشهور عن أكاذيب المدنية الحاضرة ..

وكان من دأب الشيخ البرقوقي أن يسأل شيوخ الأدب رأيهم فى مقالات المجلة وأبوابها .. فسأل حافظ عوض ، وسأل مصطفى صادق الرافعى ، وسأل محمد المويلحى صاحب عيسى بن هشام ، فانتقد حافظ عوض عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة ، وزاد انتقاده فى ثقة الشيخ بكتاب هذه السطور ، لأننى ترجمت عنوان الكتاب « بالأكاذيب المتفق عليها » واقترح الشيخ البرقوقي أن « نسجعه » ليوافق أسماء الكتب فجعلناه « الأكاذيب المقررة فى المدنية الحاضرة » .. فلما جاءه النقد من بعيد - وهو على عادته سريع التصديق - قال لى أنه لن يرفض رأى مطاوعة لرأى السجعة بعد الآن ..

وسأل مصطفى صادق الرافعى فزاده انتقاده ثقة لى كذلك ، لأنه قال لى أنه يسمع حكمه فى البيان العربى ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابه « الفكر ومباحث العصر الحديث » ، وقد أنحى الرافعى على « نوردو » وعلى كاتب هذه السطور ، فحسنت هذه الشهادة المعكوسة عند الشيخ ..

ولقي صاحبنا المويلحي فسأله عنى قائلا :

- بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شىء !

قال : أترأه يعيش على شىء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ أننى لا انتمى إلى « السيد حسن موسى العقاد » المشهور ، وأنه لا قرابة بينى وبين ذلك البيت ، وأننى أعيش بالقليل مما يردنى من أهلى ، وبالقليل من أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة .. فقال المويلحي مبتسما : « أنه أولى بالوظيفة من أكثر » التنايلة » التى عندنا فى هذا الديوان » فطلبها ، فأجيب طلبى لساعته بغير امتحان ..

وقد كان ديوان الأوقاف فى تلك الحقبة يجمع الأدباء والشعراء من شيوخ وشبان .. كان فيه محمد المويلحي ، وأحمد الأزهرى صاحب مجلة الأزهر ، وأحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصرى ، وعبد العزيز البشرى ، وحسين الجمل : وحسن المدرس ، وعلى شوقى ، ومحمود عباد ، ومصطفى الماحى ، وغيرهم من « المحررين » المغمورين .. وكان عملى الأول فيه مساعدا لكاتب المجلس الأعلى بقلم السكرتارية ، وهى وظيفة من أخطر وظائف الديوان فى ذلك الحين .

سميرة الحديدو :

وكأنما هى قسمة واحدة تلقانى على صور متعددة فى جهات مختلفة .. فكلما اشتغلت بعمل من الأعمال وجدته فى أبان أزمة من أزماته أو مرحلة من مراحل الاضطراب فى تاريخه ، وأول هذه الأعمال عملى فى وظائف الحكومة باقليمى قنا والشرقية ..

فى هذين الإقليمين بدأت أول حركة من حركات الشكاية الاجماعية بين الموظفين بعد الاحتلال ، ولم ترل قائمة حتى انتهت بزيادة الحد الأدنى لمرتبات الوظائف إلى خمسة جنيهات والشروع فى تعديل نظام العلاوات وقانون المعاشات .

واشتغلت بالتحرير الصحفى يوم كانت الصحافة المصرية فى أخرج أوقاتها بعد قيام الأحزاب وقبل إعادة قانون المطبوعات ..

ثم هأنذا اشتغل بديوان الأوقاف ، وهو ميدان المعركة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الإصلاح . ولست بأسف على هذه القسمة التى تسوقنى إلى الأعمال فى أبان

أزماتها ومراحل اضطرابها ، فقد كانت أنفع لترييق النفسية من فترات الهدوء والاستقرار .. وكان عملي في ديوان الأوقاف بين سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤ أكثر من عملي في وظيفة من وظائف الارتاق ، فقد كنت أجهل الكثير من حقائق بلدي ومن أسرار شؤونه العامة لو لم أقص تينك الستين في ذلك الديوان ..

كانت يد الخديو مطلقة في وظائفه وأمواله .. وكان مع الأسف الشديد يحتكرها لإشباع نهمه من المال والدسيسة ، ولا يأتي أن يسف إلى الاختلاس من أموال الصدقات واستباحة السمسرة على صفقات الاستبدال .. وشاعت في تلك الأيام قصة أرض المطاعنة التي أخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه باسم « العمولة أو الوساطة » وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له في طريقه من الموظفين الترهأ ، فعاقبهم على الأمانة والبقظة بالفصل والاهمال .. وكان المحتلون يجربون الخديو على تقليد التراع بين السلطين ، ويأبون عليه أن يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة في داخل الحكومة الكبيرة ، ويعلمون أنهم لا يستطيعون المساس بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا إلى الآستانة لجلس النبض في دار الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الإسلام بجواز الرقابة الرسمية على نظار الأوقاف ، وعلى ناظرهم الكبير وهو أمير البلاد .. وكان طلاب الإصلاح يهتمون بأمر واحد ، وهو القضاء على المفاصد في ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية أشد الارتباط .. فلا أمل في إصلاح هذه المعاهد ، ولا في إصلاح القضاء الشرعي معها ، ولا في إصلاح الأزهر بفروعه ما لم تكن إدارة الأوقاف خاضعة للرقابة العلنية خارجة من تلك العزلة التي جعلتها أشبه شيء بضيعة من ضياع الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين ضيعة يغار عليها مالكها وضيعة يبددها من يملك الأمر فيها ..

مقالات بلا توقيع :

وبين هذا المضطرب عملت في الديوان .. والقلم الذي عملت فيه هو حومة المعركة في ميدانها ، لأنه القلم الذي تمر به مذكرات مجلس الإدارة ومذكرات المجلس الأعلى ، وهذه هي المذكرات التي تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا الصفقات .. والسنة التي عملت فيها بالديوان هي السنة التي انتهت بتحويله من ديوان إلى نظارة ، وصدر الأمر بعرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية .. ولقد كانت فضائح الأوقاف سرا مباحا لكل من يميل إليه بأذنيه .. فليس فيها من باب

أولى سريخنى على موظف فى قلم السكرتارية يتصل كل يوم بموظفى الديوان ممن يشتغلون بمسائل المذكرات التى تعرض على مجلس الإدارة أو المجلس الأعلى ..
وقد هالنى ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وإن كنت لا أجهل قبل ذلك أنها شىء يهول ..
وكنت أتكلم ولا أتخفظ ..

وربما كتبت إلى الصحف بعض المقترحات لإصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها فى المجالس التى أختلف إليها ، وكلها فى بيئات الادباء المدرسين بمدارس العباسية الأهلية حيث كنت أقيم ..

وكان الأستاذ حسين روحى الإيراني صاحب إحدى المدارس الكبيرة فى العباسية البحرية ، وكان يعمل فى ساعات من اليوم بالترجمة فى دار الوكالة البريطانية ، فجاءنى عصارى ذات يوم يقول معتذرا :

— أرجو أن تغفر لى غلطة وقعت فيها بغير اذنك ا ..

قلت : خيرا .. لما أظن أننى عرضة منك لغلطة تضير ..

قال : أنهم سألوني اليوم عن مقترحاتك فى الصحف وأنا اترجمها لهم فقلت أننى أعرف كاتبها ، وذكرت لهم أننى أراك فى كثير من الأيام .. فهل يغضبك ما فعلت ؟
قلت : أننى كما تعلم كنت مستعبدا أن أكتب فى الصحف بتوقيعى لو كنت أستطيع ذلك مرتين دون أن يبادرونى بالفصل من الوظيفة ، فلا لوم عليك ولا حرج على ..
قال : ليس هذا كل ما فى المسألة .. فإن السكرتير الشرقى يريد أن يلقاك فهل لديك مانع ؟

قلت : لا مانع لديه فما المانع لدى ..

قالوا : لا يزال صغيرا :

وبعد يومين لقيت مستر ستورز مع الأستاذ حسين روحى ، فاستهل الحديث بالكلام على الأدب وعلى برنارد شو .. ثم استطرد إلى الكلام على الصحافة ، وأكثر من الكلام على صحيفة « المؤيد » وقرأتها ومحررها ، ثم مضى مستطردا إلى الكلام على الأوقاف فسألنى عن صفقة منوية على أرض يملكها عين مشهور من أعيان القليوبية ، وعجبت لعلمه بنجربها وهى

لا تزال في دور التحضير الأول ولما تصل مذكرة من مذكراتها إلى قلم السكرتارية ..
ثم بدرت منه كلمة جافية لا أدري كيف جرى بها لسانه ، إلا أن يكون قد تعود الجهر
بأمثالها ولم يتعود من أحد أن ينكرها عليه ، فقال : ألا ترى أن حرمان الأوقاف من الرقابة
الأجنبية هي علة هذه المفاصد التي شاعت فيها .. ؟ !

فصدمتني هذه الكلمة النابية ، ولم البث أن اجبتها بمعدة ظاهرة ، فقلت : ان المجلس
البلدي الإسكندري يتمتع برقابة أجنبية من كل جنس وملة ، ولا أظنكم تحسبونه مثلاً من
أمثلة التزاهة والنظام ..

فتنبه وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بعبارة صالحة للختم ، واستأذن هنية ثم عاد
قائلاً : ان اللورد - يعنى كشتنر - كان يسره أن يراك لولا أنه يخرج الساعة إلى موعد سريع ..
فنهضت وودعت ، وصادفني اللورد على باب المكتب فأومأ بالتحية ومضى في طريقه ،
وجاءني الأستاذ حسين روى في المساء يقول ويضحك : ماذا صنعت يا أختانا .. أن الرجل
اجفل من جوابك الصارم ولكنه قال : أن حديثك كان شائقاً جداً ..

* * *

وأراد الأستاذ روى أن يصرف الموضوع ، فقال أن مسألة « المؤيد » كانت عندهم أهم
من مسألة الأوقاف ويلوح لي أنهم كانوا يودون لو توليت تحريره ، وكانوا يظنونك أكبر سناً من
عشرة العشرين ولكنهم حسبوا عليك جريرة الشباب وقالوا : أنه لا يزال صغيراً .
وهكذا عدنا إلى حديث الصحافة من طريق ديوان الأوقاف ، وهكذا سنعود إليه بعد
قليل ..

بين الوظيفة والصحافة

معركة الأوقاف

عملت في ديوان الأوقاف .. وكان عملي في مكاتب السكرتارية أقرب المكاتب إلى دخائل الديوان ، ولكنني أعترف اليوم بأن ما علمته في أيام خدمتي بالديوان من خفايا المعركة التي دارت حوله لم يكن غير الفقايع التي تطفو على وجه الماء ..

كانت معركة حامية تدور وقائعها بين القاهرة ولندن والآستانة ، وتشترك فيها حاشية الخديو ودار الوكالة البريطانية وحزب الأمير حلیم وأعدائه من رجال تركيا الفتاة ، وأناس متفرقون في القاهرة من طلاب الإصلاح .

وكان الخديو يستमित في التثبث بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الأحوال أن تسحب ميزانيته من ميزانية الدولة ، وحجته في ذلك أنه صاحب الولاية على الأوقاف بحكم الشرع وبنصوص الواقفين في كثير من الأحوال ..

وكان المحتلون بحاربون السيطرة الخديوية على الأوقاف كما يحاربونها في كل جهة أخرى .. ويريدون في حربهم لهذه السيطرة في ديوان الأوقاف - بصفة خاصة - أن يحولوا بين الخديو وبين استخدام أموال الأوقاف في حماية سلطانه ونشر دعوته ، سواء كانت مما يخصه ويخص العرش ، أو كانت مما يعم الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال ..

وكان طلاب الإصلاح في حرج شديد لأنهم يريدون أن يقطعوا دابر الفساد في الديوان وما يتصل به من المعاهد الدينية ، ولكنهم يكرهون أن يتسولوا إلى ذلك بمعونة المحتلين .. ثم حدثت في السنة الأخيرة التي عملت فيها بالديوان حوادث مختلفة بين القاهرة والآستانة غيرت وجوه المسألة ، ويسرت ما لم يكن ميسورا قبل ذلك بسنة واحدة ..

الخديو بين نارين :

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الإصلاح منبرا « قوميا » يتادون من فوقه
بوجوب الإشراف على ميزانية الدولة كلها ، ومنها ميزانية الأوقاف ..
وتولى الحكم فى الآستانة أناس يكرهون الخديو مصادرتة لجماعة تركيا الفتاة تمهيدا للمطالبة بجزيرة
« طشيوز » التى كانت فى حوزة محمد على الكبير ، ثم استولى عليها السلطان عبد الحميد الثانى
مدعيا أنها كانت هبة شخصية لرأس الأسرة ، ولم تكن من أملاكه التى تنتقل بالمراث ..
واستطاع المحتلون فى ذلك العهد أن يكسبوا لهم عضدا قويا بدار الخلافة ، وأن يحصلوا
على وعد من أقطاب الحكومة التركية بمساعدتهم على تقييد سيطرة الخديو فى الديوان
ولو اقتضى الأمر خلعه واستاد الإمارة إلى أمير فى بيت حلیم ..
وتم أخيرا تحويل الأوقاف من ديوان إلى نظارة أو وزارة ، وكان اسم الوزارات يومئذ -
وهو النظارات - مما يسوغ ادماج الأوقاف فى عدادها ، لاشتهار الإشراف على الوقف باسم
النظارة ..

أول وزير :

واختير للنظارة رجل من أنصار الخديو ترضية له وتغطية لخلدانه ، فكان ناظرها الأول فى
عهد هذا الجديد « أحمد حشمت باشا » رحمه الله .. وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب
القصر بين الأحزاب الثلاثة ، وهو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ..
وبعد أيام قليلة من قيام الوزير بعمله فى الوزارة ، جاءته بطاقة صغيرة من بطاقات
الدعوة إلى مكتبه ، محدود فيها للمقابلة ساعة قبيل الظهر من ذلك النهار .
وكدت أجزم بالبائع إلى دعوتى لمقابلة الوزير ، وأنا موظف فى أصغر درجات الوظائف
فى سلك الخدمة فى الديوان .
وماذا يكون الباعث إلا أننى من المشهورين بإدارة الديوان ، وأننى ممن تتجه المظنة إليهم
فى الكتابة عنه بالصحف والعلم بأسراره من المذكرات وكتابة المذكرات ؟
ليس فيها قولان كما هو ظاهر ..

ولكنه فى الواقع كان تخميننا نادرا يدل على وجوب التردد فى قبول التخمينات مها تبلغ من الرجاحة والقوة ، فإن الوزير لم يتعرض لمسلكى فى قضية الديوان بغير التلميح من بعيد .. وإنما خاطبى فى أمر مقالة من مقالتي نشرتها فى الصحف وذيلتها بتوقيع الصريح ، وهى مقالة كتبها تأيينا للشيخ على يوسف صاحب المؤيد رحمه الله ، ونشرتها صحيفة « عكاظ » الأسبوعية التى كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والمازنى ، وشكرى وبعض الزملاء .. ومن أضحك المصادفة أن الوزير كان صديقا للشيخ على يوسف ، وكان وكيلا لحزبه وخصما لكثير من خصومه .. وكان من أشياعه القليلين الذين مشوا فى جنازته وأشرت إليهم فى بعض ما ذكرته عن وفاء المشيعين له بعد الوفاة .

من فصول الشيطنة :

وكان الشيخ على يوسف قد ترك « المؤيد » وهجر الحياة العامة ، واصطلحت عليه العال والنكبات .. وقضى نحبه غير مذكور من أقرب المقربين إليه ، فلم يسر فى جنازته منهم غير آحاد معدودين ، بينهم وزير الأوقاف .. وقلت فى تأيينه أن الرجل كان « نفاعا ضرارا » ولكنه كان ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الأعوان فى مشكلاته وقضاياه .. فمن وصلت إليه يد من إياديه لم يكافئه عليها بالحبّة وخلوص النية ، ولكنه يحس أنه مدين مطالب بدين يوفيه فى يوم من الأيام .. فلا جرم يشيعونه غير محزونين ويمضون فى جنازته متحدثين متشاغلين ، لأنهم فى حالة نفسية أشبه بحالة المدين الذى أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه ..

خاطبني الوزير بلهجة هادئة كأنها لهجة الأستاذ الذى يلوم تلميذه على فصل من فصول الشيطنة لا يبلغ عنده مبلغ السخط الشديد ولا يخلو من بعض الرضى ، فقال بعد الإشارة إلى مقال التأين : « كان أحرى بقلمك الناشئ أن يتخذ له فى تأين الموتى منهجا أطيب من هذا المنهج .

وكان عليك الاتسنى : فى هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام :

« اذكروا محاسن موتاكم .. » .

فاجتهدت ان يكون جوابي فى لهجة توائم لهجة الوزير ، وقلت ما معناه : « إننى لو علمت

للشيخ حسنات غير التى ذكرتها لما فاتنى أن أذكرها .. » .

فاقتضب الحديث ، مصطنعا الجدد ، وقال :
« على كل حال ، اجعل لقلبك مستقبلا كمستقبل الشيخ إن استطعت ، واستخدمه في
عملك ، ودع عنك فضول الأقاويل والأحاديث » .

شيخ المؤيد :

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

ما هذا المؤيد الذي يلوح لى أننى ألقى شيئا منه أينما ذهبت هذه الأيام ، حيث أريد
وحيث لا أريد ..

قبل أسابيع - على ما أذكر - جاءتنى تذكرة مطبوعة كتذاكر الدعوة إلى المحافل
والاجتماعات يقول كاتبها « سيد كامل » إنه يتصدى لتحرير المؤيد ويود لو يستعين بالأقلام الفتية
في تجديد حياة « شيخ الصحافة » .. أوكلاما من هذا القبيل ..
فمن يكون « سيد كامل » هذا ؟ ..

إننى لم أكن أعلم عنه شيئا ، وأشفقت أن يكون مرشحا للقيام على تحرير المؤيد من قبل
الانجليز .. لأننى تبينت من حديثى مع مستر « ستورز » أنهم يهتمون بهذه الصحيفة ويودون
لوبيعوثها بإشرافهم وتحت رعايتهم ، وقال لى الأستاذ حسين روى أنهم كانوا يظنون أننى
« أصلح » لهذه المهمة ولكننى خيبت رجاءهم ..

مولاه :

فهل « سيد كامل » هذا ممن حققوا عندهم هذا الرجاء ، فاخترأوه لتوجيه هذه
الصحيفة ، ولومن بعيد ؟

خطر لى هذا الخاطر لأول وهلة ، ولم يفارقنى حتى علمت المزيد من تاريخ « الدكتور سيد
كامل » فعلمت أنه أفضل وأصدق فى الوطنية وفى الولاء لمولاه من أن يصلح لتلك المهمة من
بعيد أو قريب .. وقد كان مولاه الذى تولى تعليمه فى فرنسا على حسابه بتوصية من صاحب
المؤيد هو الخديو عباس الثانى ، وهو الذى رشحه للقيام على تحرير المؤيد بعد اعتزال الشيخ

على يوسف لعمله فى الصحافة .. عسى أن يحتفظ بأمانة التراث الموكول إليه من ولى نعمته ومن أستاذة الموصى عليه ..

وها هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الأول لى بحديث عن المؤيد وصاحبه وأصحابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو ما هو شأننا مع المؤيد ؟ أهو « لحظ الغيب » يرانا على مقربة من تلك الصحيفة من حيث لا نراه ؟ ..

يحق لى - لو أردت - أن أصدق هذه المواقف الغيبية ، فإنها لم تنته عند هذه النهاية ، ولم تزل تلاحقنى بخبر من هنا وأشارة من هناك حتى عادت لى إلى العمل الصحفى محررا بالمؤيد .. وكان السبب المباشر لعودتى إليه قصيدة نشرها المؤيد .. ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية بنظارة الأوقاف ، وهو المرحوم عبد الحليم المصرى الذى كان يتطلع إلى مكان « شوقى » فى القصر الخديوى ، ووصل إليه ولكن بعد زوال الخديوية ..

فضيحة الأدب :

نظم عبد الحليم قصيدة من أحسن قصائده عن « الخصب » أمير مصر فى أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر النيل :

وشاعر النيل دون الخلق يشربه بينا يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعنى فى الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره أحمد شوقى ، وما كان بالقارئ من حاجة إلى البراعة لفهم هذه المواربة المكشوفة .. فقد فهمها كل قراء المؤيد من الأدباء ، ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد الأول فى تلك الآونة : أحمد حافظ عوض الذى ترك منصبه فى قصر عابدين ليشرف على تحرير هذه الصحيفة فى أدق مرحلة من مراحلها ، ونخاتها ..

أولا : تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره إلا فى المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والأسبوعية ؟ ..

فضيحة من فضائح الأدب والصحافة لم ينم لها حافظ عوض ، ولم ينم لها شوقى ، ولم تنم لها نظارة الأوقاف .. وأولهم ناظرها فى ذلك الحين - محمد محب باشا - وقد كان متبها فى الحاشية الخديوية بمحابة الإنجليز ..

وحضر «حافظ عوض» ذات يوم إلى ديوان الوزارة ، ولقيته في مكتب الوزير ولا أدري على التحقيق هل دعاني أحد إلى المكتب للقاءه ، أو ذهبت إلى المكتب بغير دعوة من أحد لسبب من أسباب العمل في مذكرات المجلسين : مجلس الإدارة ، والمجلس الأعلى .. ولكنني لقيت حافظا ينتدني بالسؤال والسلام ويقول لي مازحا : ماذا تصنع هنا ؟ إن مكتبك مستعد بدار المؤيد ، وإن عملك الذي خلقت له أن تكتب المقالات لا أن تلخص المحاضر والمذكرات .

ثم قال : إن صفحة الأدب في المؤيد تحتاج إلى أديب يتفرغ لها ، ولا ينظر في عمل من أعمال الصحيفة غير كتابتها أو الإشراف على ما يكتب فيها ..

قال : ولو أن وقتي كان يتسع للتفرغ لهذه الصفحة لما استغفلني هذا «الولد» ودس علينا تلك القصيدة المسمومة التي جعلتنا سخرية المجالس الأدبية .

ولم أتردد في قبول الدعوة إلى تحرير الصفحة الأدبية في شيخ الصحافة العربية ، فإني لم أكن أطمح في الرابعة والعشرين إلى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة .. فإن كانت لدى بقية من الرغبة في صناعة القلم من طريق الصحف فلا انتظار إذن لما هو أولى بالقبول من هذه الدعوة بعد أن جاعتنى بغير عناء وبغير طلب .. ولا محل للتردد إلا أن يكون عملي في نظارة الأوقاف أحب إلى وأجدي على من العمل في الصحافة ، ولم يكن عملي في النظارة مرضيا لي في حياتي الأدبية ولا في حياتي المعيشية ، فعلام التردد ؟ وفيم البقاء ؟ ..

العودة إلى الصحافة :

وامتلا مكتبي «الحالي» بدار المؤيد قبل أن ينقضى الأسبوع .. ولم يمض أيام حتى عاودني الطالع القديم : ذلك الطالع الذي تحدثت عنه في مذكرة سابقة من هذه المذكرات .. لا أدخل عملا إلا وجدته في مرحلة من أدق مراحل تاريخه ، منذ عملت في الوظائف الحكومية ، إلى أن عملت في الصحافة ، إلى أن عملت في ديوان الأوقاف ، إلى أن عاودت العمل في الصحافة كرة أخرى ! .

ولا أطيل في شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغني القارئ عن شرحها أنها وافقت الشهور الأخيرة من تاريخ الحديوية المصرية قبل الحرب العالمية الأولى ، واني لم أسلخ في المؤيد شهرا أو شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التي شغلت رئيس التحرير عن الدار وعن

صفحتها الأدبية وصفحاتها الأخرى ، وتركنت فيها بين دسائس القصور ودسائس الصحيفة التي لزمها من مخلفاتها التقليدية !

كان الحديو يعلم أن لورد كتشنر يصير على خلعته ويرشح للحدوية أميراً من أمراء بيت حلم ، وكان يعلم أن كتشنر لن يغلبه بقوة غير قوة الخلافة في الآستانة أو قوة الرأي العام في مصر ، وفي طليعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية .
فأما قوة الخلافة في الآستانة فقد احتاط لها الحديو بسفره في تلك السنة إلى الآستانة ، وعدل عن زيارة المصائف الأوربية كعادته في السنوات الخالية ، ليبقى إلى جوار الخليفة متأهباً لإحباط المؤامرة عليه .

الحديو يزور سعد زغلول :

وأما قوة الرأي فقد احتاط لها برحلة شعبية في الوجه البحري تعتمد فيها زيارة الأعيان في قصورهم وزيارة الفلاحين بين أكواعهم واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حينما تزل بقرية من قراهم ، غير ممنوع منها أحد من الكبار أو الصغار ولا من الرجال أو النساء . ولج به الحرص على إبراز صداقته للمعارضين في الجمعية التشريعية ، فجعل اسماءهم في الصف الأول بين أسماء الأعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم إلى مصاحبته في غير قراهم ، وأولهم سعد زغلول .

ولم يشأ الحديو أن يؤتمن على مراسلة « المؤيد » بأخبار الرحلة أحد أقل من رئيس تحريره فأخذ حافظ عوض في ركابه ، وجاء في حافظ إلى مكنتى قبل سفره يمدد للطلب الذي يريده منى : وهو تنقيح أخبار المراسلين بالصيغة الأدبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبل اثباتها في الصحيفة بالصيغة الأخيرة ، وهى الصيغة التي ستظهر بها في الكتاب الذهبي ، وكرر كلامه عن الرحلة وعن الصيغة التي ستظهر بها بعد ذلك في سجل شبيه بالسجلات الرسمية ، وانصرف وهو يقول :

- إنه عمل أدبي خالد على أية حال ، وأنه يستحق أن أؤجل من أجله صفحة الأدب إلى حين .

الكتاب الذهبي :

وانهالت الرسائل كالطرر المنهر من المراسلين وأعيان الأقاليم وكل من قال له الخديو كلمة أو قال كلمة للخديو ، وضاق الوقت عن ملاحقتها بالقراءة والترتيب فضلا عن التنقيح والتصحيح ، ثم انطوى الكتاب قبل أن تفتح صفحة من صفحاته ، ولا يزال منطويا إلى الآن .

مشترك من مشركيه الموعودين ضل طريقه إلى حجرى بدلا من حجرة المحرر الذى كان منوطا بتسلم الرسائل وتسليمها إلى بقائمة مكتوبة لايداعها فى ملفاتها إلى حين الفراغ من تدوينها ، فعلمت من خلال كلام المشترك الموعود أنه أعطى المحرر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهات باسمى ، وأنه حضر فى ذلك اليوم ومعه شىء زهيد على سبيل الهدية : ساعة وسلسلة ذهبية .. ولى بعدها هدية على « قد المقام » بعد ظهور الكتاب .

وتركت « الملفات » فى أماكنها ريثما يعود رئيس التحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاستعفىته من العمل فى الكتاب وأبلغته ما سمعت ، وقلت له أن محررى « المؤيد » أحرار فيما يأخذونه ويدعونه ، ولكنهم لا يملكون أن يزجوا باسمى فى معاملاتهم ومبايعاتهم ، وبحق لى إذا فعلوا ذلك أن أصبح ظنون الناس ، وسأترك له - أى لرئيس التحرير - أن يختار طريقته لتصحيح هذه الظنون ..

فتجههم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسؤول بالويل والثبور ، ووعدنى أن يكتب غدا فى المؤيد كلمة تزيل اللبس وتبعد الشبهة عنى فى أمر الكتاب ورسائله واشتراكاته ، ورجانى أن أغض النظر عن المسألة ولا أنقطع عن العمل فى الكتاب .

ويعلم أصحاب الأستاذ حافظ رحمه الله أنه كانت له مواطن ضعف فى تحياته ومقابلاته ، ومنها أنه يشبه بالأمير فى مناورات الرضا والغضب والتقريب والاقصاء ، وأنه يجعل من زمرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات التشجيع والأعراض ولحات الابتسام والعبوس ، وقد شهدنا فى مساء ذلك اليوم تمثيلية وجيزة من هذه التمثيليات ، كانت هى فصلها الأخير ! .

آخر عهدي بالصحافة :

فى مساء ذلك اليوم زارنى الأستاذ المازنى والأستاذ محمود سعيد الذى أصبح بعد ذلك مستشارا فى المحاكم الأهلية ، وزلنا إلى باب الدار ننتظر مركبة خالية تمر بنا لنستقلها إلى ندوتنا

المهودة عند دار القضاء « في الوقت الحاضر » .. ولم نكد ننادى المركبة العابرة حتى مر بنا الأستاذ حافظ عوض يميننا يمينه ويضع يسراه في ابط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليه بالضحك والحديث ، ثم صدر المؤيد في اليوم التالي وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون .

وكان هذا آخر عهدى بالمؤيد وآخر عهدى بالصحافة قبل الحرب العالمية الأولى ، لأنها نشبت قبل نهاية الصيف !

يجوز ..

أغلب الظن عندي أن قصة خروجي من نظارة الأوقاف ثم من صحيفة المؤيد كانت « قضاء وقدرًا » كما يقولون في لغة التحقيقات القانونية .

أما العارفون بتحقيقات الحواشي الملكية فقد كان لهم رأى آخر في القصة بخلافها ، وكان من رأيهم أن الخطة وضعت يومئذ في القصر لفصل كل موظف بالأوقاف عرفت عنه المعارضة في نظام الديوان ، لافرق بين أكبر الموظفين وأصغر الموظفين !

وكان أكبر المعارضين من الموظفين لصفقات السمسرة والاستبدال عبد الرحمن فهمي « بك » وكيل النظارة ، فخرج محالا إلى المعاش .

وكنت أنا أصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم في فصلى بالإحالة إلى المعاش ، فليكن فصلى « بصنارة » الصحافة ، ثم بمائة سبب ميسور بعد الوصول إلى البر .. غير الأمين ! و « يجوز » هي كل ما أقوله في التعقيب على هذه الفكرة القريبة البعيدة ، ولولا أنني استقلت من النظارة ورفضت استقالتي قبل ذلك ، لرجحت التدبير بفعل فاعل على القناعة « بالقضاء والقدر » في تعبير العارفين بالحواشي الملكية !

في الحرب العالمية الأولى

ساعات بين الكتب :

أقمت في القاهرة أياما بعد استقالتي من تحرير « المؤيد » على نية السفر إلى الصعيد الأعلى ، وقد منيت نفسي موسما كاملا من المواسم الجميلة في مدينة الشتاء ، وسميت برنامجي لذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعي ومضامين الآثار في أسوان ، وهي غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة ، من أيام الفراعنة إلى أيام الممالك إلى أيام الدولة العثمانية ..

وأعددت العدة للكتاب الذي نويت تأليفه باسم « ساعات بين الكتب » وجعلت عنوانه دليلا على موضوعه أو موضوعاته ، فهو كتاب أسطر فيه خلاصة ما قرأت وزيدة التعليقات التي وقعت في خاطري واطلعت عليها أثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتب اردت به أن أصل بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما تبدو لي من النظر والمراجعة والأحاديث .

وكان الموسم خصبا حقا بشمرات التأليف ، لأنني انتهيت من كتاب « ساعات بين الكتب » في نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث ، وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه في السورمان .. وهذا الكتاب غير الكتاب الذي ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين الكتب » التي كتبها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة .

الإنسان الثاني :

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة ، سميت « الإنسان الثاني » ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأتعمت رسالتى « مجمع الاحياء » تلخيصا للآراء فى فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ، وهى الكتاب الوحيد الذى تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة ..

ونظمت فى هذا الموسم الاسوانى أكثر من نصف قصائد الجزء الأول من الديوان ، ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول ..

أما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت إلى أسوان وأنا أحسبني فى إجازة منها إلى موعد غير مسمى .. وخيل إلى أنها ستكون أقل الشواغل شغلا لى حتى فى الاطلاع عليها والعناية بأخبارها ، فإن عاودنى الحنين إليها فلتكن عودتى إليها بقصيدة من الشعر ، أو مقالة فى حكم القصيدة الشعرية ، توحى بها لمحة من لمحات الخاطر أو عارض من عوارض الشعور .. وتقدرتون فتضحك الأقدار ..

وقد رت أن الكتابة الصحفية لن تشغلنى قارئا ولا كاتبا خلال مقامى فى أسوان ، إلا أنها تسلية من قبيل ترجية الفراغ ، فإذا بمقالة واحدة كتبها - من هذا القبيل - تشغلنى أضعاف شغلى بمقالات الصحف سنوات فى أخرج أيام القلاقل والقضايا والأزمات ، مع أنها قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة ، ولم ترد نسخها المتداولة أولا على عدد أصابع اليدين .. تلك هى مقالة « نادى العجول » ، كدت أذهب من جرائنها إلى جزيرة مالطة وأنا أحوج إلى المقام بأسوان أوفى جو القطر من المشتى إلى المصيف .

« شهوة » و « شبهة » !

أدركننى الحرب العالمية الأولى وأنا فى أسوان ، وأحس الناس بوطأة الأحكام العرفية فى هذا البلد الثانى على طرف الصعيد الأعلى قبل أن يحسوا بها فى سائر البلاد المصرية ، لأن أسوان على ملتقى الطريق بين مصر والسودان وملتقى الطريق بين النيل والبحر الأحمر من جانب الصحراء ، ومرجع الأحكام العرفية فيها إلى رئيس إقليمى بعيد من الرقابة مطلق التصرف فى الأوقات التى تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الإدارية فى الأقاليم .. وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين وأذنانهم من المسلمين على الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع القوانين والأوامر المقيدة لحرية

المحكومين ، فلما تقرر الأحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين المقيدة للحريات ، أوشكت الرغبة في الاستبداد أن تصبح هوسا في نفوس بعض « الحكام » .. ولا سيما الحكام الذين بدا لهم أن الفرصة سانحة لاستغلال هذا السلطان المطلق طمعا في الكسب وشفاء للضعائن والأهواء ، وماذا يمنع الرشوة أن ترفع رأسها وتصبح بين الزوايا وفوق الجدران إذا كان أداء الرشوة هو البديل الوحيد من النقي والاعتقال بغير تحقيق ؟ .. وماذا يفيد التحقيق إذا كانت « شبهة » الحركة الوطنية كافية لاعتبار « المتهم » من ذوى الخطر والسابقة المندورة ؟ وكانت هذه الشبهة لاصقة بالأكثرين من المصريين ؟ ..

لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام في أسوان أنه أراد أن يقضى يوما مع أسرته في الجزيرة المغربية التي يقصدها بعض الناس للرياضة في أيام الاجازات ، فأرسل المنادي « الرسمي » يطوف أرجاء المدينة ، وينذر من تحدته نفسه بالتزول في الجزيرة أن يوطن نفسه على السيف والنار وخراب الديار ..

وشاعت سيئات الحرب العالمية على أسوتها في اقليم أسوان الأمن الوديع ! تجنيد اجبارى لفرقة العمال واعتقال متكرر لشبهة ولغيرشبهة ، وأتاوات تفرض لعة من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الأحمر ، أو ترفيها عن المرضى والجرحى أو مساعدة على مشروع كائنا ماكان من مختلف المشروعات ، وأصبح كل طلب إنذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، أو إنذارا بالسداد في غير تردد ولا مساومة .

نادى العجول :

حدث هذا في بلدى وبين أهلى وعشيرتى وأنا أنظر إليه بعينى وأستمع إلى أخباره بأذنى وأحس كل مظلمة من مظالمه بإحساس قريب وإحساس إنسان ..

حدث هذا وأنا فى الخامسة والعشرين .

وحدث هذا وأنا أقرأ الشعر فلا أزدري أبا نواس لقول من أقوال المجون كما كنت أزدريه لقوله فى الحكمة :

خل جنبك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

لا يا أبا على ، غفر الله حكمتك ومجونك ، فإن كان موت يا صاح فما باله يكون بدء الصمت ؟ ولم لا يكون بدء الكلام .. ؟ !

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتباً إلى وزير الداخلية وإلى السلطان .
وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتباً إلى وزير الداخلية قصيدة مثورة سميتها « نادى العجول » ..

نادى العجول هذا كان « ناديا » للسادة الحاكمين وسراة القوم في المدينة « فتحه » الرؤساء بكل معنى « الفتح » .. لأنه كان أشبه شيء بالغزوة في طلب الأسلاب ، من طريق المساومات والألعاب .

وكانت له سمعة سيئة غير سمعة المقامرة ، وكان الحضور فيه مفروضاً على بعض الناس في ساعات معلومة كي يخلو الجو لبعض الناس الآخرين في تلك الساعات .
ولم يكن يسمى بطبيعة الحال بنادى العجول ، ولكنني سميت ذلك لأن رؤساء كلهم من أصحاب الوزن الثقيل ولأنه « حظيرة » من حظائر « الدواب » الآدمية لا تخلو من القرون .. !
وأضعف الأعضاء نفوذاً في ذلك النادى الموقر كان يملك الترخيص لى بالسفر على حساب الحكومة إلى جزيرة مالطة ، غير مشكور منى ولا ملوم من أحد على ذلك الإحسان بالإكراه ..
ولكنني كتبت المقال ، وتناسخه الأدباء ، وارسلته إلى الصحف ، وقرأه النادى كله في جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولى الجسور الذى يجترئ على ذوات القرون وعلى ذوات القناطير المقتنطرة من الشحوم واللحوم ! ..

مقامة فكاهية :

وأعود فأقول أن القافية هي التي قضت قضاءها في الموضوع - ولا قضاء لى فيه ولا مشيئة - فخرج الموضوع كما ينبغي أن يخرج مقامة فكاهية أو قصيدة مثورة ، يقرؤه ، من خلا ذهنه من « الموضوع » فلا يشتم منها رائحة الحملة التي يجترئ بها القائل على الحكم العرفى الخفيف ولا على الحكم القانونى اللطيف .. ويقرأها من امتلاً ذهنه « بالموضوع » فتغريه بحفظها وترديدها ، وهو يسأل الله السلامة من تلك العجول .

قال رئيس النادى في مقدمة المقامة : « أيها السادة .. إن العجل مدنى بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الأجسام ، وصلابة القرون .. وقد غبر بهؤلاء

الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا ويتمسحون بأذيالنا ، حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فعبدونا من فرط الأجلال .. وسبحوا لنا بالعشى والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأسا وأرفعهم ذكرا - أعنى الإسكندر المقدونى - بذى القرنين وما اسكندروهم هذا وما قرناه ! ان أصغر عجل فينا ليهم رأسه إذا ناطحه ، ويجندله إذا واثبه أو صارعه ، فالعجب لك أيها العجول لم لا تذكرين ذلك الجند الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادى والمعاهد .. » .

وقضى حكم القافية قضاءه فى قراءة « الموضوع » كما قضاءه فى كتابته ، فأصبحت المقامة فى مدى يومين كأنها بعض المحفوظات المقررة التى يؤدى فيها الامتحان بعد يومين آخرين ، وراح أولاد الحلال يتساءلون كلما عرض لهم من يعنونه بالسؤال : لم لا تذكرين ذلك الجند الخالد ، فتقام لكم الصوامع والمعابد ؟ ومنهم من كان يتخاثر ويتجاهل ويخاطب العضو من الأعضاء التابعين غير المتحدثين ، نعى بهم زمرة الأعضاء المسوقين المسخرين ، فيقول : أنت مدنى بالطبع .. أنت أشجع من الإسكندر .. أنت يقام لك وزن .. أنت تخير على الآدميين ، إلى أشباه هذه « التلقينات » الرمزية التى كانت أصرح عند القائل والسامع من النداء الصريح .

وكانت المناوشات بينى وبين المدير سجلا قبل شيوع تلك الكلمة عن نادى العجول .. كنت أشكوه وأعزز الشكوى بالبيئات ، ثم تستدعيه وزارة الداخلية فقرا فى الصحف أنه قابل عظمة السلطان ثم يكشف هو بمحاوته عن سر هذه المقابلة التى يستدعى لأجلها من أسوان ، فتعلم أنه سمع فيها ما ليس يرضاه .

الرشوة والأتاوات :

وكانت هذه المناوشات تجري سجلا بين مرتجلة أو مدبرة حتى شاع فى المدينة ، ثم فى الإقليم ، ذلك المقال المنشور عن نادى العجول .. فإذا بالمناوشات التى كانت قصة مبعثرة الفصول تتركز وتنتهى إلى مخرجها الذى تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مناص لواحد من اثنين أن يخرج من المدينة : المدير أو كاتب المقال عن نادى العجول ..

ويتبين من مجرى الحوادث أن المدير تعذر عليه نفى لأنه نفى قبل ناظرا للمدرسة المواساة ، وكنت أنا ناظرها الثانى فأشفق القوم أن يقال أنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة فى

البلدة .. وكل ما استطاع المدير أن يقنعهم به هو أن يشدد على الرقابة ويقيّد اقامتى بالمدينة ، فلم أكرّث لهذه الرقابة ولا لهذا التقيّد ، لأننى بطبيعتى كثير العكوف فى المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة فى الحلاء أوفى النيل .

وفتحت الحيلة للمدير أن يصدمنى بمفتش الداخلية الإنجليزي ، فألقى إليه أننى أهتم بالرشوة وأذيع عنه أنه يقاسم الموظفين « أتاوات » السلطة على وظائف العمد والمشايخ و « تبرعات » الأعيان وصفقات التكوين ، ولم يكذب المدير فيما ادعاه ، لأننى كتبت فى الواقع أقول وأعيد أن المفتش الإنجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرءوسيه ..

واستدعانى المفتش إلى ديوان المديرية فقال فيما قال فى حديث طويل باللغة الإنجليزية : « لا يوجد إنجليزى مرتش Corrupt فى الحرب ولا فى السلم » .. فبدت منى كلمة لا أدرى ماذا كنت أقول - سواها - لو قصدها عن روية .. وقلت : إن الإنجليزي جديرون بالتهته لأنهم قد تغيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال ..

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح فى حالتي الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال .. فلو أننى تعمّدت الروية لما وجدت أمامى مثلا أقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة فى الحرب والسلم ، ولكننى لو تعمّدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى وأحجى .. فإن الرجل بعدها وقف إلى جانب المدير فى طلب اعتقالى واقصائى من المدينة ، وقال عني أننى أخطر من ناظر المدرسة الذى نفته السلطة قبلى إلى جزيرة مالطة ، وكنت قد تعمّدت أن أشغل مكانه تحديا للأمر الذى صدر بعد القبض عليه ، فعملت بعده ناظرا لمدرسة المواساة ..

وجزى الله مقامه « العجول » خيرا فى هذه المرة ، فإن قارئاً من قرائها الذين حفظوها أطلعنا على خبر التقرير السرى الذى كتبه المفتش ونقحه بعد مراجعة المدير .. فوجب الرحيل إذن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة .. وقضت القافية أن يكون الراحل فى هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة .. لا سعادة المدير .

لكن كيف الرحيل من المدينة والرقيب ملازم لباب الدار بالليل والنهار ؟
لقد كان الرقيب يلازمى إذا خرجت ، ويسلمنى فى المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكانه فى الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الأول أورقيب جديد ..

أصبحت من أبطال المغامرات :

لست من القراء المغرمين بروايات الحرب والمطاردة ، ولكنني أصبحت بطلا من أبطالها على الرغم مني بحكم الضرورة التي لا حيلة فيها .. فوصلت إلى القاهرة قبل أن يعود منها جواب « السلطة » على تقرير المفتش والمدير ، وكأنني كتبت بيدى قرار الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهما فترة أسابيع .

ارسلت ملابسى من المتزل فى مقطف عليه قمح يغطيه ، وذهب به حامله إلى بيت فى شارع مجاور لنا نقلوا فيه الملابس إلى حقيبة صغيرة ، وسافر بها بعض أقاربنا بتذكرة من أسوان إلى القاهرة ، وتواعدنا أن ألقاه بالقطار فى محطة « الخطارة » ويعود هو إلى أسوان على المطية التي وصلت بها من أسوان إلى الخطارة ..

وأعددنا عند ظاهر البلدة مطيتين يقودهما من نثق به من الجيران ، وبقيت مهمة الخروج من المتزل فى الصباح على الرغم من الحارس الرقيب .. وليس أيسر من ذلك إذا ترحل الحارس من مكانه إلى منعطف الطريق هتية قصيرة نخرج فيها ونترارى على الأثر فى منعطف الطريق المقابل ، من ناحية الفضاء ، حيث تنتظرنا المطيتان ..

ولم يعسر علينا أن نرحل الحارس عن مكانه خلال تلك الهتية القصيرة ، فقد كان من ذوبنا فتى نستعيد بالله من ثورات غضبه ومن خفته إلى الشجار والخناق ، فرجونه فى ذلك اليوم أن يغضب ، وأن يبالغ فى الغضب وأن يفارق المتزل بعد الفجر كأنه ذاهب للصلاة ، فيشتبك فى خناقة حامية مع أول عابر من طلاب الصلاة مثله ، أو من المبكرين إلى الأعمال . وقام صاحبنا بالواجب على ما يرام ، وعاد الحارس إلى باب البيت ونحن على المطايا متلفعين متنكرين لا يعرفنا من يرانا ولو كان من معارفنا .

أكبر مقلب للمدير :

وكنت بعد ذلك بيوم فى ديوان الداخلية أزور صديقنا الوزير الأديب جعفر والى « باشا » وكيل الوزارة ، ثم تابعت الأيام والتقارير السرية تصل من أسوان بتفصيلات المؤامرات التي أدبرها ، والأحاديث التي أذيعها والأقاويل التي أثير بها الخواطر وأستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفي من الديار ..

أنا فى القاهرة يصطحبى وكيل الداخلية كل يوم إلى مكتب المستشار ، ويشهده على
مقامى بعيدا من أسوان بأكثر من ستمائة ميل ، وأنا فى الوقت نفسه بأسوان يرانى المفتش والمدير
أثير الحواطر وأدبر المؤامرات ..
والنتيجة معروفة ..

فى هذه المرة يخرج المدير من البلدة وتلوه المفتش ، ويصدر الأمر باحالة المدير إلى المعاش
قبل موعد الحركة الإدارية ، وأعرف اسم المدير الذى خلفه فأبادر إلى إبلاغ الخبير لأصدقائنا فى
أسوان بهذه البرقية :

« شر مدبر وخير مقبل » .

وكان المدير الخلف « محده مقبل باشا » الذى اشتهر بعد ذلك فى مناصب الإدارة .

بين الموت والحياة

كنت رقيقا على الصحافة

كان نصيب التدريس من عملي في سنوات الحرب العالمية الأولى أكبر من نصيب الصحافة ، وكانت علاقتي بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها - على ذلك - كان متعددة متنوعة ، لأنني اتصلت فيها بألوان من الكتابة الصحفية لم أعرفها قبل ذلك ، وما لم أعرفه منها عملا واختبارا فقد عرفته وصفا ونظرا واطلعت على طرف من أسرار وأخباره عن كتب ، فكتبت إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية واشتغلت بالصحافة اليومية في غير القاهرة ، وفتت على رقابة الصحف أياما معدودة ، وندبت « للمراسلة الحربية » في صحراء سيناء ، وكدت أن أحيط بالدائرة الصحفية من مراكزها إلى زواياها ونواحيها .

وتشاء الحوادث أن اشتغل بالرقابة على الصحافة وهي من أبغض الأعمال إلى نفسي وإلى فكرى ، وتشاء هذه الحوادث أن اهتئ نفسي بالحنية فيها بعد أيام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الحنية الموفقة . . !

كانت لى صداقة أدبية بالمغفور له « جعفر والى باشا » وكيل وزارة الداخلية في أيام الحرب العالمية الأولى ، وكان من الأدباء « القانونيين الإداريين » الذين يجالسون أحيانا « عثمان فهمى » بك الذى كان مديرا لأسوان فديرا لقنا فوكيلا للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة الملكية مغضوبا عليه في عهد الملك أحمد فؤاد ، محالا على المعاش قبل أوانه ، لأنه لم يحسن أن يشترك في إدارة الخاصة على الطريقة التى يرضاها صاحب الجلالة !

* * *

وكان حديث جعفر والى معى في الأدب يكاد أن ينحصر في المفاضلة بين أبى تمام والمتننى ، فإنه كان يفضل أبا تمام ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه ويملا حواشيه بالتعليقات

والملاحظات التي توافق مشربه في تفضيله ، وكنت أنا تلميذا للمعري في هذه الخصلة كما كنت تلميذه في خصال خلقية أو فكرية شتى ، وأعنى بها خصلة « التعصب » للمتنى وقلة الصبر على القدر فيه والانتقاص من أدبه . . أما الأستاذ عثمان فهمى بك « فقد كان كلامه في العلميات والفلسفات أكثر من كلامه في الموضوعات الأدبية ، وكان يناصرنى أحيانا في تفضيل المتنى من الوجهة الفكرية ولكنه يناصروكيل الوزارة في حملته على « نفخة » الشاعر الكذابة ، مع تعرضه للرشد والسؤال ، مما يخالف أصول البلاغة على قوله ، وهى مراعاة مقتضى الحال ، أو المقال حسب المقام !

وعلم « جعفر باشا » أننى أبحث عن عمل في القاهرة لأن حالة « الكبد » عندي لا تسمح بقضاء الصيف في أسوان ، وعلمت منه مرة أن الرؤساء الانجليز يفتحونه بضيقهم الشديد من مشكلة الرقابة على الصحف العربية ، وأنهم يكادون أن يحملوه تبعة هذه المشكلة ، لأنه أحق الناس أن يعرف كيف يختار للرقابة أناسا من أدباء المصريين يصلحون لها ولا يسيئون فهمها . وقال لى ذات مرة « أن يوسف خلاط بك » مدير المطبوعات على حد تعبيره « في ثياب ضيقة » . . ولكنه هو يخشى أن يلبسه القوم هذه الثياب . وأزوره يوما على موعد ، فيقول لى ضاحكا : أننى آمنت بعظمة المتنى وفضله على أبى تمام .

ثم يلمح دهشتى فيأدق قائلا : ولكنه تفضيل معلق على شرط ، وهو أن تستخدم لنا حكمة صاحبك في عمل من أعمالنا هنا بوزارة الداخلية ، وهو مراجعة الصحف العربية . .

تكلم الأهلوا

قال : والحيرة في أمر هذه الرقابة إن أكثر الرقباء بإدارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون أنها تكلم للأهلوا والأقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف في المكر والحيلة ، فكلما خطر لهم أن صحيفة من الصحف تلعب بالألفاظ لتفويت خبر من الأخبار داخلهم الغرور وظنوا أنهم يغلبون الصحيفة في المكر واللعب ، فيحذفون الخبر ويصرون على منعه ومنع الإشارة إليه ، ومن ترخص منهم في السماح بنشر الأخبار التي يحرص عليها الصحفيون فإنما يترخص في ذلك بمجاملة لأولئك الصحفيين من أجل الصداقة أو من أجل المنفعة المتبادلة .

قال : ولا أدري ماذا أصنع وأنا الوكيل المصرى المفروض فيه أنه أقدر من غيره على حل

المشكلة ، فهل لك أن تؤدي هذه الأمانة الشاقة وأن تعيننا على تجربة الرقابة كما ينبغي أن تكون ، بين العطف على الصحافة ورعاية مقتضى الحال . .
 وكانت « رعاية مقتضى الحال » قد أصبحت من القوالب المحفوظة في أحاديثنا حول بلاغة المتنى وبلاغة أبي تمام وحظ الشعاعين من الحكمة على مقتضى الحال .
 قلت : اننى أقبل العمل فى الرقابة ولاغراضة ، مادامت الرقابة من المصالح العامة فى أيام الحروب .

عجزت والحمد لله !

وبعد ثلاثة أيام جاءنى تنبيه وسؤال عن بعض الأخبار التى تركتها للنشر وتحقق لهم أننى لم أحذفها .

وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنى دعوة إلى مكتب مسر « هور نبلور » الرقيب العام بتقديمها حديث مقتضب من « يوسف خللاط بك » فلما دخلت المكتب سألتى مسر « هور نبلور » مقطبا : هل راجعت هذه الأخبار ؟ وقدم إلى رزمة من جزازات الصحف اليومية والأسبوعية .

فقلت بعد اجالة النظر فيها : نعم .
 فعاد يسأل : وكيف تبيح نشر الأخبار المقلقة التى من هذا القبيل ؟
 قلت : إنها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الإنجليزية ويباح لتلك الصحف ما هو أخطر منها بكثير .

فصاح منكما : الصحف الإنجليزية ؟ ثم أردف قائلا :

— هل أنت من الحزب الوطنى ؟

قلت : أنا مصرى وطنى بطبيعة الحال .

قال : إذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فأجبت بكلام فحواه اننى لا أفهم المقصود بالعطف معهم ، ولكننى لا أبقي فى هذا العمل إذا كان يتطلب منى شعورا لا أفهمه ، وله أن يتقبل استقالتي مشكورا على قبولها . .
 وهكذا عجزت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد اسبوع واحد ، وكدت أعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة .

المراسلة الحربية :

أما المراسلة الحربية فقد نذبت لها من طريق الكتابة في مجلة المقتطف عن المقارنة بين فلسفة المعري وفلسفة شوبنهاور .

وكننت أعمل بالتدريس في مدرسة وادى النيل الثانوية بجوار محطة باب اللوق على مدى خطوات من مكتب المقتطف والمقطم ، فزارنى الأستاذ نجيب شاهين بالمدرسة موفدا من قبل الدكتور يعقوب صروف وقال لى إن الدكتور وبعض ذوى الشأن ينتظروننى بعد الفراغ من الحصة قبل فسحة الظهر ، ولم يخبرنى شيئا عن موضوع الدعوة .

فلما دخلت المكتب وجدت الدكتور وشابا من اصهاره ومعه الشيخ الغنيمى التفتازانى ورجلا انجليزيا لا أعرفه ولم يعرفنى به الدكتور ، ولكنه قال :

- انك تعلم قلق الناس في هذه الأيام من جانب الحدود الشرقية ، وكلهم يظنون أن الهجمة منها قرية على قناة السويس ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليك أن يعيد الطمأنينة لى نفوسهم بما تراه عيانا وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة وهى حاضرة عند المختصين بالمسألة . . وأشار لى ناحية الرجل الانجليزى ، وكل ما يطلب منك أن تطلع منها فى القاهرة على ما يلزمك وأن تهيب نفسك بعدها للرحلة لى الخطوط الأمامية فى صحراء سيناء ، ثم تصفها بأسلوبك المعهود لأن مجرد الوصف الصحفى الشائع لا يكفى للاقتناع والتأثير ، ولولا ذلك لكان فى مخبر من مخبرينا أو مخبرى الصحف الأخرى من يغنى هذا الغناء .

رأى الذى لم أعلنه !

وأحب أن أعيد هنا رأى الذى أعلنته فى أثناء الحرب العالمية الثانية ولم أستطع أن أعلنه فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد كان من رأى فى الحريين أن تتولى مصر واجب الدفاع عن حدودها موفرة السلاح والاستقلال وألا تتولاه - بداهة - فى ظل الحماية أو الاحتلال . فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له اننى لا أكره أن أثبت الطمأنينة فى قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم أما هو - كما يحدث الآن - من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن أرفض الحماية وأقبل دفاعها .

وكن الدكتور يعلم رأى هذا فى الحماية من أحاديثى معه قبل ذلك خلال زيارتى له فى

صدد مقالاتي الأدبية ، فكاد أن يعتذر من مواجهتي بالاقتراح لأنه نسي إننا تحدثنا في مسألة الحماية منذ شهور ، وانصرفت وهو يكرر قوله : إنه لو ذكر أن في الاقتراح شيئا لا أسيفه لما فاتحني به ، وجعل يقول مازحا : إذن تعود إلى المعرى وشوبنهور . . !
ولا أذكر أن أحدا من الحاضرين في تلك الجلسة فاه بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازاني . . . فإنه طفق يقول ويعيد : ياسيدى فيها إيه ؟ وماذا في ياسيد عباس ؟ أليس المهم الآن أن تطمئن النفوس على الحدود ؟
فلم أجبه ولم يجبه أحد من الحاضرين ،

أنا والمازنى . . بين الموت والحياة !

وقبل انتهاء الحرب العالمية الأولى عدت إلى التحرير في الصحف على غير انتظار ، بل على يأس من العمل في الصحافة والتدريس إلى ما بعد الهدنة ، إذ كان للهدنة موعد قريب .
فالعمل في التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارسته سنتين مع صديقي المازنى في مدرسة بعد مدرسة من كبريات مدارس الثانوية ، ووجرت العادة في كل مدرسة أن ينتهى عملنا فيها بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح أوراق الامتحان ، لأننا كنا نصصح اسئلة وأجوبة وكانت خزائن المدارس تنتظر إلى أوراق الامتحان كأنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات .
فلما وصلنا إلى الأوان المقدور للأزمة السنوية خرجنا من المدرسة متفقين على سكنى الإمام الشافعى حيث تقيم أسرة الأستاذ المازنى من زمن بعيد ، وقدرنا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنيننا عن التعجل في طلب العمل بضعة أشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء .

وقلت للمازنى : ابحث يا صاح عن عمل في صناعتك ولا ترتبط بى في بحثك ، ودعنى انتظر العمل في صناعتى حينما اتفق ، فلا حيلة لنا في استعجاله ولا في البحث عنه ، لأنه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه .

ووجد صديقنا المازنى عمله ناظرا للمدرسة المصرية الثانوية ، ولبثت أنا بالقاهرة اترقب أوائل الشتاء لأعمل فيما يتيمأ من عمل ارتضيه أو أزمع الرحلة إلى أسوان .
وكنت أحسبني متقربا على غير جدوى لأن ركود السياسة الوطنية في ابان الحرب قد ذهب بالصحف اليومية التى كانت تنطق بالسته الهيئات السياسية ثم هبطت أزمة الورق بالصحيفتين

الباقيتين - وهما المقطم والأهرام - إلى ورقة واحدة من صفحتين لا متسع فيها لغير البرقيات وأنباء الدواوين وما هو من قبيل « المحتويات » التقليدية في الوقائع المصرية ، فاكثفت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين .

وكان « نقد » على المدينة من « حى » الإمام الشافعى مرة كل أسبوع ، وكان يوم السبت على الأغلب هو موعد هذه الزيارة الأسبوعية ، لأنه يوم متوسط بين بطالة الجمعة وبطالة الأحد ، فلم أكد أقبل على المكتبة التى كنت أتردد عليها فى هذه الزيارات حتى تلقانى صاحبها قائلاً بل صامحاً : أين أنت يا أستاذ ؟ إن الأستاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماء وهو يأتى إلى المكتبة ويعود ليسأل عنك وقد يثس من لقاءك فأوصى الأستاذ « عبد المؤمن كامل الحكيم » بالبحث عن مكانك والاتصال بك فى شأن هام كما قال ، وقد كان الأستاذ عبد المؤمن هنا الساعة ، وترك عنوانه لدينا وكتب له عنوانك كما أعرفه بالإمام ، ولا أدري فى أى مكان هو بالحاء الإمام ..

وعلمت بعد لقاء الأستاذ عبد المؤمن أننى مطلوب للتحضير فى صحيفة « الأهالى » بالاسكندرية ، وأننى أستطيع أن أعد نفسى للسفر خلال أسبوعين أو ثلاثة ، وعنده تفويض بتسليمى مرتب شهر وما أطلبه من تكاليف السفر ، وعنده كذلك تفويض بمراجعة الصحيفة فى تقدير المرتب ، إن كنت لا أرضاه .

قلت له : لا حاجة إلى المراجعة الآن ولعلها فى الاسكندرية أجدر وأيسر ، واثنت يومئذ إلى الأمام لإعداد حقيبة السفر واختيار ما أحمله معى من الكتب إلى الإسكندرية ، والاستغناء عما هو معد للبيع فى يومين أو ثلاثة ، ولم يكن طلابه بالقليلين فى تلك الآونة . . لانقطاع البريد الأوروى فى الفترات بعد الفترات على غير انتظام .

كانت فى الثغر الاسكندرى ثلاث صحف يومية هى البصير ، ووادى النيل ، والأهالى . وكانت « البصير » صحيفة القطن والتجارة ، لا تعرض للبيع فى خارج الاسكندرية ، ولا تعرض للبيع فى الاسكندرية نفسها إلا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء ، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسماسرة ورسوم الإعلانات القضائية من المحاكم المختلطة ، ولا تذكر فيها شؤون السياسة المصرية إلا كما تذكر صحيفة « خارجية » .

وكانت « وادى النيل » صحيفة المجلس البلدى أو صحيفة المناورات والمنازعات بين أعضائه وأحزابه ، ولها - من ثم - عناية بمسائل الأسواق والدكاكين والشوارع المرصوفة وغير

المرصوفة ، وما إليها . فكان لها نصيب وافر من الرواج في الاسكندرية ، ونصيب « لا بأس به » من الرواج خارج الاسكندرية ، بعد انقطاع « الشعب » خليفة اللواء ، وانقطاع « المؤيد » و « الجريدة » .

أما « الأهالي » فقد كانت في نشأتها صحيفة « شبيهة بالرسومية » يشترك فيها مئات من الموظفين والعمد والاعيان لأنها لسان حال رئيس الوزارة محمد سعيد باشا ، وكان « محمد سعيد باشا » أحد الساسة القلائل الذين فهموا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأى العام ووجوب الاعتماد على الصحافة في مناقشة الصحافة التي تعارض الوزارة ، فأوغز إلى طائفة من أصدقائه الاسكندريين بإنشاء شركة « الطبع والنشر الأهلية » واستهلال عملها الصحفي باصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة عليها ، فاختاروا اسم « الأهالي » لصحيفتهم عمدا ، لأنه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل اباطة باشا رحمه الله ، ولأن اسم « الأهالي » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغا بالصيغة التي تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة .

ولم تزل « الأهالي » صحيفة الحكومة « الشبيهة بالرسومية » إلى أن سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدى باشا التي أعلنت الحماية على مصر في عهدها ، فلبست « الأهالي » بعد ذلك لباس المعارضة في حدود الظروف التي تسمح بها الحرب والرقابة . وكانت هذه المعارضة تقوم على أساسين : أحدهما الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدى ، والآخر إيمان سعيد بفائدة السيادة العثمانية في استنهاض الحجة « القانونية » أو الحجة الدولية على الاحتلال والحماية ، فقد كان سعيد « عثمانيا » في تفكيره وشعوره إلى اللحظة الأخيرة ، وكان هو صاحب الرأى القائل بالارتباط بين البحث في مسألة الحماية والنظر في معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة في الحرب العالمية .

وأوشكت « الأهالي » أن تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وقيام الوزارة الرشيدية ، لأن مشتركها من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها ، ثم جاء كساد الصحافة بعد فرض الرقابة عليها ونشوب الحرب العالمية فطواها فيما من الصحف المهملة أو المعطلة ، ولكن ظروف الحرب انقذتها بعض الانقاذ من حيث لا تحتسب ، لأنها حصرت الإعلانات في ايدى شركة تحتكر الإعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتتعهد للأجانب بنشر اعلاناتهم في صحيفة افرنجية وأخرى مصرية ، فكانت « الأهالي » هي الصحيفة التي تتسع لنشر تلك الإعلانات في

ملحقاتها ، وعندها بقية من الورق المخزون غير الورق الذى تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت أن تعيش ستة بعد ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها فى ذلك المعترك العصيب^(١) .

وبقيت فى تحرير « الأهالى » إلى نهاية الحرب وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصرى بقيادة سعد زغلول ، وافترقت الخطة العامة بين الصحيفة والوفد فتركها وعملت فى الصحيفة التى كانت تجرى يومئذ على تلك الخطة ، وكانت فاتحة عصر جديد فى حياة مصر وحياة الصحافة وحياة الصحيفة ، يقترن بتاريخ النهضة الحديثة فيما علمت من ظواهرها وخوافيها .

* * *

(١) وقف الأستاذ العقاد - فى الفصول السابقة - حتى عام ١٩١٩ حين قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول ، وقد اشترك بقلمه فى هذه الثورة مؤيداً للمبادئ الوطنية والسياسية التى كان يؤمن بها ، حتى اعتزل السياسة فى عام ١٣٩٥ حين أفسدها الحزبية ، وانحرف السياسيون فى ذلك الحين على المبادئ المثلى . كما أشرنا إلى ذلك فى « تقديم هذا الكتاب » وتوفر على التأليف ، وكتابة الفصول العلمية والأدبية فى المجلات الكبرى ، ولهذا تقدم هذه الذكريات وما يليها من الفصول التى لم تنشر من قبل فى كتاب من كتبه .

ذكریات وشخصیات

صديق المازنى

صديق المازنى أحوج الأدباء إلى التعريف بحقيقة فضله لأنى ما رأيت أحدا من المعجبين به إلا وهو يجهل بعض مزياه . . وليس ذلك لخمول فى الذكر ، فقد بلغ - رحمه الله - من الشهرة غاية ما يبلغه الأديب فى البلاد العربية .

وليس ذلك لغموض فى النفس ياعد ما بين ظواهرها وبواطنها ، فما عرفه أحد من طول المعاشرة إلا عرف أنه من أصنى الناس سريرة وأشبههم ظاهرا وباطن ، وجهرا وبخفاء . ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله - أو بكل حقيقة فضله - لسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأيسر ما ينال وبعضهم يسميها « ملكة السخرية » ويخيل إليه أنها على مثال السخرية التى اشتهر بها بعض المفكرين الساخرين . . ولكنها فيما أعتقد تشبه السخرية وليست هى بها ، لأنها تخلو فى جوهرها من نكاية السخرية التى تلازمها . فلا تنطوى على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية .

وإنما هى على ما عرفتها واختبرتها ، شىء آخر غير السخرية وإن كانت شبيهة بها : هى حب « المعاكسة البريئة » ، أو هى الدعابة لا ضير فيها على أحد ، ولا فرق بين الدعابة على النفس والدعابة على الآخرين .

لم يكن يبالى أن يبرز خير ما عنده ، ولم يكن يبالى أن يقدح فى أدبه وفنه بقلمه ولسانه ، فيسبق المنكر والحاسد إلى القدح والإنكار ، ولم الجهد والعناء ؟ . .

لقد كان يرى أن حقائق الدنيا كالحيال ، لأن غايتها إلى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال . . فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء . . !

وكان يرى أن الناس يضمنون بثنائهم كأنه شىء لا غنى عنه ، فكان يريهم أنه فى غنى عنه

فعلا ، وكأنه يقول لهم : « إن استطعتم فقولوا في أدبي وفني ، وفي شخصي وسيرتي ، أكثر مما أقول » .

وليست هي بفلسفة وليست هي بمظهر ، هي طبيعة فيه عهدتها منه في غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه ، كاتباً أو غير كاتب ، وغاية ما هنالك إنه كان يطاوعها حيناً فيسترسل فيها ، وإنه كان يكفها حيناً فلا تظهر كل الظهور . . كان ولعه « بالمعاكسة البريئة » تسليته الكبرى .

ولست أحصى ضروب هذه المعاكسات التي كان يرتجلها ارتجالاً في أكثر الحالات ، ولكنني أذكر حادثاً منها له اتصال بجانب نفسي في تاريخ حياته ، وهو من قبيل الوقائع التي تفسر الأقوال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التي يسميها بعضهم فلسفة حياة .
قل من يذكر أن المازني شغل بالموسيقى في عتفوان شبابه ، وأنه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروساً كثيرة فيه ، واستطاع أن يوقع بعض البشارف وأوشك أن يحسب فيه من مهرة العازفين .

وكنا نقضي السهرة ذات ليلة في ناد كبير من أندية الموسيقى والغناء وطابت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، وكان يبيت يومئذ بمنزله على مقربة من الإمام ، ولم يكن خط الترام قد وصل بعد إلى الإمام ، وقد كان الترام الذي يذهب إلى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال .

وودعته وهو يتفق مع حوذي ليوصله في مركبته ، مركبة خيل ، لأن السيارة لم تكن شائعة في تلك الأيام .

وكان الجو ليلاً رائقاً والقمر في أوانها ، وسكون المزيج الثاني من الليل يغري بالغناء ، ويظهر أن الحوذي - حين رآنا نخرج من النادي الغنائي - قد بدا له أننا من هواة السمع ، فلا خرج عليه إذا طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من « الطقاطيق » التي يهواها ، ولم ينس أن يعتذر إلى « زبونه » بعد أن رفع عقيرته بالغناء :

- لا مؤاخذه ياسيدنا البيه ، إن محسوبك من هواة السمع ، والى . . وقبل أن يمعن في الاعتذار ، بادره « الزبون » قائلاً :

- خذ راحتك . . « أنا والله أحب أسارك » . !

فلم يملك الحوذي نفسه من الطرب والارتياح . لأن الجواب الذي سمعه جزء من

«القططوقة» التى كان يغنيها . وراح يغنى تارة ويردد قصته التى بدأ فيها تارة أخرى ،
ونخلصها أنه كان -هوايته السماع - يختار موقفه إلى جانب «تخوت الآلاتية» ويسترق السمع
بين لحظة وأخرى كلما استطاع الأفلات من رقابة البوليس .
وانجلى الحوذى ، وخلا له الجوب بعد باب السيدة عائشة ، ونسى البوليس والزبون ، ومضى
كأنه فى ليلته يود ألا تنقضى به الطريق .

وتدرك أخانا ، المازنى ، تلك الشنشة التى لا تفارقه ، ويوحى إليه الموقف بالخاتمة
الصالحة لهذا «الفصل الغنائى» الذى أقحمه الحوذى عليه فأفسد عليه فى آخر الليل ما سمعه فى
أوله : ان المطرب المقترح قضى ساعة وهو يقول فى القططوقة التى يغنيها «لما أشوف آخرتها
معاك . . .»

فماذا لو كلفت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون ؟
خطر الخطر فلحق به التنفيذ ، وخلت المركبة والمطرب المشغول بغنائه لا يدرى لأن خلو
المركبة واختلاؤها بذلك الحمل الذى كان فيها يستويان . . !
والتفت الحوذى بعد أن طاللت الرحلة ولم يستمع من الزبون صوتا ولا أمرا بالوقوف . .
فطار ما فى دماغه من الغناء ، وامتلاً بكل ما وعاه فى حياته من البدء .
ولا حاجة بالقارئ إلى ترديد ما ألقاه من لسانه فى ذلك الحلاء ، وليس من حوله أحد
يحييه إذا استدل به وغريمه الباحث عنه هو دليله الوحيد .
ويزورنى الصديق فى اليوم التالى فيسألنى : «أتذكر شكل الحوذى الذى ركبت معه
بالأمس ؟»

قلت : «لا أظن أننى أحقق شبهه فلماذا تسأل عنه ؟ هل فقدت شيئا عنده ؟»
قال ضاحكا : «كلا . ولكنه هو الذى فقد . . .»
فلم أفهم ما يقوله وسألته : «وماذا فقد ؟ . . .»
قال : «فقدنى أنا» . . . وقص على تفصيل تلك القصة التى أجملتها هنا بعض
الاجال . !

* * *

انقضى أربه من المعاكسة ، وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فإذا هو مهموم بالبحث
عنه لإعطائه أجره الذى نخبيل إليه أنه قد ضاع بغير أمل ، فقلت له أن حوديا بهذه الصفة لا بد

أن يكون معروفاً بين زملائه في موقفه وغير موقفه ، فهلم إلى الموقف نبحت عنه هناك !
ولم يخطئ ظننا في جدوى البحث هناك ، لأن القصة كانت حديث زملائه جميعاً ، وإن
لم يكن هو في الموقف تلك اللحظة ، فأخبرناهم أين يجدها إذا عاد ، ولم نلبث طويلاً حتى أقبل
الرجل يهرول وهو لا يصدق أن زملاءه قد صدقوه الخبر ، فلما رأى صاحبه بالأمس أقبل عليه
متهللاً وتناول منه ضعف أجره الذي كان يطمع فيه . . !

وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادماً : « لا عدت إلى الغناء أبداً وأنا مركب » . .
وإلا « فعلى روحى أنا الجانى » . !

قال الصديق العزيز : « بل تغنى ما شئت ، ولكن تعطى وجهك للسميع ! » . . هذه هي
« المعاكسة البريئة » التي لزمّت صديقنا على صور شتى من صباه إلى أخريات أيامه ، وتردادها
الفجعية أن تذكرها فتذكر أى نفس طفلة - أى طفولة من طفولة العبقريّة الخالدة - قد
عاجلها الحجام .

بهذه الدعابة البريئة - التي لا ضرر فيها على أحد - كان المازني يستقبل الدنيا ، ويحتمل
نقائصها ومفارقاتها ويعنى نفسه من الجهد الذي يبرز للدنيا خير ملكاته ، بل يحاول أن يستر
هذه الملكات بيديه غير آسف على شيء . !

قادر على نفسه . .

على أن المازني يصحح في هذا الباب خطأ يقع فيه أولئك الذين يحكمون على الأطوار
النفسية بظواهرها وعناوينها ، فيحسبون أن طبيعة الاستخفاف تقترن دائماً بالعجز عن الجِد
وصرامة الاخلاق .

والواقع إن الذين عاشروا المازني وخبروه يعلمون أنه من أقدر الناس على نفسه وأصبرهم
على رياضة طبعه ، وأشدّهم جلداً على مواقف الشدة والصرامة ، وقد عانى من شدائد الأيام
ما يقصم الظهر ويغشى آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلقاهم ويلقونه في هذه
الأحوال إلا بالكثير من المرح والتبسيط . . فلا يعرف جلسه أنه في شدة إلا إذا تحول مزاجه
إلى التكلف المحسوس .

وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفرط الحس بالشم في مطلع شبابه على الخصوص ، وكنا
نمشي مسافات طويلة لتجنب المرور ببعض الأماكن التي تنبعث منها روائح الحانات

والنفائيات ، ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من أبغض الروائح إلى الأنوف ، لأنه أراد أن يلقى درسا حاسما على محيى « الشيطنة » من التلاميذ .

وكان أولئك التلاميذ يجهلون ويجهلون أنهم يحاربونه في ميدانه حين يعملون إلى ضروب المعاكسات المدرسية التي يغيظون بها طائفة من المعلمين ، فانتظروا حصته ووضعوا في المحابر حمضا كبريه الرائحة لا يطاق في مكان محصور ، وسبق إلى وهمهم أن الحصص ستضيق في السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصدرها وعن واضعها وعن المكان الذي جاء به منها - وهو بطبيعة الحال معمل الكيمياء في المدرسة . . ولكنهم لم يلبثوا هنية بعد دخوله إلى الفصل حتى أدركوا أنهم في وهم بعيد ، لأنه لم يسأل ولم يغضب ولم يد عليه أنه فطن لشيء غريب ، ولم يزد على أنه مضى بنفسه إلى التوافذ فأغلقها وإلى الباب فأغلقه ، وأخذ في الدرس وهو على أتم راحة ونشاط ، وكلما اشتد الضيق بالشياطين الذين انقلب عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتح التوافذ والأبواب ، وهو يزعم لهم ، في جد وسكون ، أن الحجرة المغلقة أصبح من تيار الهواء .

وكان ذلك هو الامتحان الأول والأخير !

ملكة نادرة . . . !

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التي يعانها الكاتب إذا حاول أن يعيد الكتابة في موضوع من جديد ، فأنها مشقة جهد ومشقة ملل في وقت واحد ، ولكنني رأيت المازني يعيد كتابة المقرر في التاريخ لبعض الفرق الثانوية تأديبا لرجل من الناشرين خدعه في طبع الكتاب المقرر لتلك الفرق ، فأعلن أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وأنه سيطبع المذكرات على التوالي بعد إعادة تحضيرها ، وصبر على هذا الجهد الممل ليملى على اخوان الأمانة درسا في عاقبة الحياة والحداد .

إلا أنني أظلم ملكات المازني كلها إذا رجعت باحتماله لهذه المشقة المملة إلى الإرادة دون غيرها .

فإن الذكاء المفرط في الحقيقة هو صاحب الفضل الأول في صبره على جهد الإعادة ومللها ، لأنه كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخي الضخم في اللغة الإنجليزية وأن يلخصه وهو يقرؤه ، وأن يترجمه وهو يلخصه ، وأن يكتبه على ورق الآلة الناسخة في وقت واحد . وهي أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة في لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص

وجهد الترجمة وجهد التحضير ، إلا أن السرعة في الفهم والترجمة الصحيحة أهون ما في هذه الملكة النادرة .

وأقول النادرة وينبغي أن أقول الوحيدة في تاريخ الآداب العالمية ، فإنني لا أعرف في آداب المشرق أو المغرب نظيرا للماضي في هذه الملكة التي أسميها بعبقريّة الترجمة . انه يترجم النثر في أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعر في أسلوب كأسلوب البحترى والشريف ، ثم لا يخرج في ترجمته حرفا من اللفظ ولا لحة من المعنى . . بل يأتي بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة في طبقة التأليف أو أعلى وأبلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الأوربي - العللي - بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمها في لغة الضاد .

ولا يقل شعره المترجم في مزايا البلاغة والصقل والسلاسة ، ومن دواعي الأسف الشديد انه هجر الشعر وانكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعي الأسف الشديد ان عبقرية الترجمة التي انفرد بها لم تجد من ينفع بها العالم العربي وينبغي الفقيه بعمل من أعمالها الخالدة عن كتاب الضرورة أو كتابة الظروف . .

ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة أخرى من انفس الملكات التي يرزقها الأديب والفنان . وهي ملكة الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظه من المشاهدات والمناظر عن عرض أوروبية .

كتر زآخر . .

ونعود فنقول اننا نأسف أشد الأسف لأن الفرص لم تهبئ له أسباب النفع بهذه الملكة في غير الأعمال الصحفية العاجلة ، ولو تيسرت له موارد العيش واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذي يريده لأمتع الناس بالعجب العجائب في هذا الباب ، ولظفر العالم العربي بثروة المااضي كلها ، وما أنفسها وما أجملها إذا كان هذا الذي اتسع له وقته وتهيات له أسبابه جد نفيس جليل .

كتر زآخر ضيعنا منه ما ضيعنا وهو فيا بيننا ، فإن تعلمنا شيئا من العبر فلنتعلم كيف نصون ما أبقاها فإنه لخليق أن يبقى بقاء العربية في حرز أمين ، وحسب العربية من فضله على أدها انه أثبت لها القدرة على مجازاة احدث الآداب بأسلوبها الصحيح السليم .

* * *

ذكريات مع الذكريات

وأى ذكريات ؟ وكم من ذكريات ؟ وما أكرمها ذكريات . . .

إنها ذكريات الصبا فى بواكيره . .

إنها ذكريات الأخوة فى حماسة الدعوة الأولى إلى الرأى والمذهب .

إنها ذكريات المشاركة فى الجهاد الوطنى على خلاف أو على لقاء .

إنها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة فى جميع تلك الحالات ^(١) .

ومها يكن من معرفة عامة يعرفها القراء عن أديهم المازنى ، ففى مجال تلك الذكريات أحاديث لا تحصى . .

لكن هذه « الشخصية » المحبوبة : شخصية إبراهيم الكاتب وشخصية أبى خليل الصديق - تعفى من كل حيرة فى موقف الاختيار بين تلك الذكريات ، ولا فرق فيها بين ما يقال أنه شخصى خاص وبين ما يقال أنه ترجمة من حق النقد وحق التاريخ . وهكذا تكون « الشخصيات » التى يقول النقاد إنها « مطبوعة فى الصميم » كل ما تعمله أو تقوله خاصة بعين الناقد والقارئ على فهمها وتفسيرها فى مجالها الفسيح الذى تتصل فيه بعالم القلم ، وعالم التاريخ . .

لقد كان المازنى الذى يسخر من كل شىء ، ويخرج لسانه لعابرى الطريق هو المازنى الذى يسمى كتبه فى أخريات حياته بـ « قبض الريح » و « صندوق الدنيا » و « علماشى » ، و « حصا الهشم » ، وهو المازنى الذى أعجبه ذلك الشاعر الذى أوصى أن يكتب على قبره هذا البيتان :

أيها الزائر قبرى أتلى ما خط أمامك
ها هنا فاعلم عظامى ليها كانت عظامك

(١) هذا الفصل كتبه المقاد بمناسبة ذكرى المازنى بعد سنوات من وفاته . . أما الفصل الأول فقد كتبه حين وفاته .

كأنه يخرج لسانه من تحت التراب لزاثر القبر الذى يقرأ ، وهو غافل ، ما يحدث به الدفين المزرور .

فى كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور الدعابة التى لا يفوتها الاحترام ، والاستخفاف الذى يعن مواطن الإعجاب والتقدير .
وكان صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكرى يقول له فيما بيننا بالإنجليزية . . حين نسمع تعليقاته على ما نقرأ شعرا ونثرا : إن فيك يا أبا خليل لشيئا ملكيا عفريتيا بلا افتراق Angelic Impish وكان هو - طيب الله ثراه - لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه يجيب عليه تارة اجابة الملائكة ، وتارة اجابة العقاريت ! . .

وكان موضع العجب من أمر صديقنا المحبوب المهيب أنه - على دعابته - لم يكن يفقد احترام عارفه على أوفاه ، وأنه مع استخفافه لم يكن يستخف بمواضع التقدير والإعجاب .
كان رحمه الله قصير القامة يطلع فى مشيته ، وكان يدرس التاريخ والترجمة فى مدرسة ثانوية اشتهرت بتلاميذها المتمردين ، لأنها كانت مدرسة أهلية تجمع الذين تجاوزوا السن فى المدارس الأميرية أو طردوا منها لسوء السلوك ، ولم يكن ايسر من اجترأ هؤلاء على مدرس شاب قصير القامة يطلع فى مشيته ولا يبالي كثيرا بزيه ، ولكنه كان على نقىض ذلك مهيبا عندهم إلى حد المخافة ، وكان لقب « تيمورلنك » هو اللقب الذى اختاروه له من دروسه فى التاريخ !

ولعله كسب منهم هذا اللقب بعد امتحان أو امتحانين ، ففهموا بعد الامتحان أى رجل هذا الهزيل الضئيل الذى حاولوا - على غير معرفة به - أن يجترأوا عليه ، لأنهم فهموا أنه رجل يملك زمام نفسه فلا يستعصى عليه أن يملك زمام الآخرين ، وأنه رجل كفء لعمله على مثال لم يعهدوه بين عشرات المدرسين .

وبهذه الكفاءة ، وتلك الإرادة ، أصبح مدرسههم الهزيل « تيمورلنك » زمانه المخيف ، والمحبوب .

* * *

ولم تكن المدرسة هى الساحة الوحيدة المختارة لهذه الدعابات ، بل كانت كل مفارقة يلقاها على ثقة بالجواب السريع بفصل من هذه الفصول .
دخل إلى صيدلية يشتري حامضا من الحوامض السامة التى تستخدم فى المنازل للتطهير ،

وتقضى التعليقات على الصيادلة أن يسألوا من يشتري المادة السامة عما يستعملها فيه ، فسأله الصيلى حسب التعليقات :

— لماذا تريدها يا أستاذ ؟

فلم يجب الأستاذ ، بل نظر إلى الصيلى ورفع أبهامه إلى فمه متظلماً كأنه يقول : اشربها .
وكان الصيلى الظريف كفواً لزبونه الساخر ، فناوله القارورة وهو يقول :
— قلدحان مرة واحدة كفاية يا أستاذ !

* * *

وقد كانت دعابة صديقنا الودود سلاحاً ماضياً يدفع به الأذى ، كما كانت سلاحاً حاضراً يطرف به الأصدقاء ، وكنا جميعاً « المازنى وشكرى وأنا » عرضة للإساءات السخيفة نلقاها ممن هب ودب من أنصار القديم ، ومنهم من كان يتميز غيظاً من دعوتنا ، ويتحرق شوقاً إلى الفرصة التى تهبى له سبياً من الأسباب للغض من هؤلاء « الطالعين فيها » . . كما كانوا يصفوننا فى لغو الحديث .

ولقد ثقلت هذه الإساءات على مزاج أحدنا — شكرى — فسئم لقاء الناس وانطوى على نفسه بعيداً عن المجالس ، إلا من تدعوه ضرورة العمل إلى لقائه . .
أما « أبو خليل » فقد كان بدعائه الحاضرة أمضى سلاحاً من أن يتراجع أمام المسىء أو أمام الإساءات ، ولم يكن أخبر منه بأساليب الانتقام العاجل ممن يخيل إليه أنه سيخفقه بالفصول الباردة : الفصول التى تخرج المقصود بها ، لأنه لا يدري كيف يحتج عليها ولا كيف يسكت عنها .

* * *

خرجنا ذات مساء إلى ضاحية القبة تنسم هواء الربيع ، وكان لنا صديق يسكن فى تلك الضاحية ، فلما مررنا به وجدناه بين فئة من صحبه وجيرانه على باب داره ، فلبينا دعوته ، ولما يكد يستقر بنا الجلوس . . وإذا بواحد من الحاضرين يتصدى لتوزيع السجائر ويتخطى ويتخطى المازنى عمداً ليسىء إلينا بهذا الإهمال . . وقبل أن أفرغ من سؤال نفسه : ماذا عسى أن يصنع أبو خليل مع هذا الذى خيل إليه أنه يفحمننا بإساءته ، وأنه حرقى افحامنا بها لأنه حرقى سجائره يحى بها من يشاء ويهمل من يشاء ؟ . . إذا بالدعابة الحاضرة — تحت الطلب — تسعد أبا خليل ، فيمد يده إلى علبة السجائر ، ويذهل صاحبها فيسلمها إليه ، ويأخذها

أبو خليل فيناولني سيجارة ويتناول أخرى ، ويضع اثنتين على المنضدة ، ويقول لذلك المخلوق المذهول :

- هاتان السيجارتان للدورة الآتية . . لأننا لا نريد أن نراك مرة أخرى . .
- ثم يرفع رأسه كأنه تنبه من سهوة عارضة ، ويقول في غير اكتراث :
- لا مؤاخذه . . ! حسبتك خادم الدار ، ولولا ذلك لطرّدك صديقنا الكريم .

* * *

ولقد شهد هذه الفصول المازنية كثيرون من صحبه الأقرين ومن لا يعرفهم بغير تحية الزاملة في العمل أو تحية الطريق ، فلم يعرضه فصل من هذه الفصول قط لفقدان الاحترام ، ولم يعرضه هو - بينه وبين نفسه - لفقدان الشعور بالاحترام ، وكان له قدره المرعى في كل بيئة نزل فيها ولو نزل الطارئ الراحل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخر غضبته التي لا يغضبها الكثيرون من الجادين الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف ، فإذا مست كرامته فلا مزاح ولا هودة ، وقد استقال من وظيفته الحكومية يوم كانت الاستقالة من « خدمة الميرى » شبيهة بالانتحار ، لأنه لم يعط حقه من التقدير بين قرانه في الديوان .

وفهم هذا الازدواج المحكم في طبيعته بين فلسفة الاستخفاف وشعور الاحترام ليس بالأمر العسير على الذين عرفوه وعاشروه : إن « اللامبالاة » عنده لم تكن نقصا في الشعور ولم تكن وليدة النظرة السلبية إلى الحياة ، ولكنها كانت عنده وليدة للشعور المفرط وللنظرة الموجبة إلى العاطفة الإنسانية في شعابها التي لا تحصى : كان ملء النفس عطفًا على الأم ، وعلى الابن ، وعلى الأخ ، وعلى الزوجة ، وعلى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعورا بالواقع . . هو سر هذا الضيق بالجد المتصل في حالة بعد حالة وإحساس بعد إحساس ، وكانت نظراته المثالية إلى غير الواقع المتكرر هي التي جعلته يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح : أو هي التي جعلته يعطى للواقع ما للواقع وللمثل الأعلى ما للمثل الأعلى دون أن يمزج بينهما في كل حادث وكل يوم . . فإذا جاء دور المقارنة بين الواقع الإنساني وبين الكمال المنشود فهناك تتفتح الأبواب للسخرية بجميع مصاريحها ، ولكنها سخرية عاطفة كسخرية الأب الذي هو أعطف الناس على ضعف وليده ، وأوسعهم رجاء له في الكمال .

بهذه النظرة المطبوعة إلى الواقع وإلى المثل الأعلى استطاع أن يعرف السخرية بالواقع في حينه ، وأن يعرف الغضب للقداسة التي نرفعها إلى سماء المثل العليا في كل حين .

فن غضباته التي نذكرها تلك الغضبة التي أشرت إليها في معرض الكلام على تأليف العبقريات ، وأولها « عبقرية محمد » صلوات الله عليه .

* * *

كنا نزور ساحة المولد النبوي على مقربة من مسكني بالعباسية ، في جولة من جولاتنا التي كنا نسميها بالفتيش الفني على أحياء المدينة . . فذكرنا مقال البطولة النبوية في كتاب الأبطال للفيلسوف الايقوسي توماس كارليل ، كان يعرف إعجابي بما يكتب ذلك الفيلسوف ، فقال : - ولم لا تكتب أنت ذلك المقال من جديد ونحن أولى بهذا الواجب من كتاب الغرب ، مهما يكن من إخلاصهم في تقدير البطولة المحمدية ؟

وكان في الجماعة فتى متحدث بحسب أن حرية الفكر إنما تقاس بمقدار التطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى مقدساتنا نحن دون سائر العالمين . . فقام بكلام هازل يشير به إلى السيف وإلى الزوجات الكثيرات . . وما راعنا إلا المازني الوديع الساخر يتفرض غضبا كأنما لمست لهفة من وقود مضطرم ، والا حركة يوشك أن يتبعها عمل وهو يقول تعقيا على صيحتي في وجه ذلك الدعي المتحدث : كلا . كلا . إن هذا الهجر لا يثبت الحاجة إلى الضرب بالسيف في نشر الدعوات ، إنه ليثبت الحاجة إلى ما هو أصلح من ذلك لداء البذاءة والقحة : إنه الضرب بالحذاء توفيراً للسيف عن مثل هذا المقام . . !

على أن الزمن قد كان يصنع صنيعة في هذا المزاج الذي وفق هذا التوفيق العجيب بين الجلد والقداسة ، وبين السخرية و « اللامبالاة » في عالم الأدب الخالد ، وفي عالم المعيشة العارضة من يوم إلى يوم . فكان من صنيع الزمن أنه لم يزل يوسع المسافة بين الواقع والمثل الأعلى عاما بعد عام ، حتى كاد أن ينتهي بها إلى الطرفين المتقابلين ، فلم يكن للواقع عنده في أخريات أيامه نصيب غير التحدي والسخرية والاستخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الأباطيل ، وغير النظرة « عالماشي » ، وغير التفويت والاغضاء . . ولم يكن في أكثر الأحيان أهلا للمصالحة بينه وبين المثل الأعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنظور والمأمول .

* * *

وسكنت في طويته قوة النضال حتى عاد بشيء من الندم إلى نضاله القديم ، وحتى استكثر الرد على من ينكرون حقه ويحفلون فضله حيث هو أحق وأجدر بالاعتراف ، وأحق وأجدر بالفضل والتفضيل .

فما كان إنكاره لشعره - فيما أعلم وأعتقد - إلا تحدياً منه للإعجاب والاستحسان ، ممن يظنون أنهم ينعمون عليه بإعجابهم واستحسانهم ويسلبونه نعمة يتكالب عليها بما ينكرونه عليه ، أو يبخسونه ، مؤمنين ومكابرين متعنتين . .

وفي هذه الفترة كان يقول ما يقوله وهو لا يبالى أن يحسب جوابه من الجلد أو يحسب من الزاح : إننى فى مصنع التجارة الفنى أعطيكُم ما تطلبون : وما بالى أعطيكُم كرسى الصالون وأنتم تطلبون كرسى المطبخ ؟ أو أسومكم ثمن الدولار وأنتم تبدلون ثمن الصندوق الصغير ، وخذعته قبل أن تخدع غيره سهولة الكتابة عليه ، فنسى أن السهل الممتنع هو الذى يستطيعه مثله بلامبالاة . . يطلبه سواء ، بكل ما فى وسعه من مبالاة ، فلا يقدر عليه .

* * *

كان يجلس إلى المرقم « التايرايتر » ليكتب القصة المطلوبة أو المقال المطلوب ، ساعة الطلب بغير تحضير . . وكان يكتبه فى جلسة واحدة ويختمه مع ختام الورقة الأخيرة ، فيحس القارئ أنه لم يقل كل ما عنده ، ولكنه يحس كذلك أن الذى قرأه كاف ، واف ، أو يزيد على الكفاية والوفاء .

وهنا - أيضاً - نعلم الفارق بين « اللامبالاة » السالبة و « اللامبالاة » الموجبة التى تغنيها القدرة عن جهد المبالاة . .

ربما كانت سهولة الكتابة على المازنى تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب ، ولكنه ينسى أن هذا الذى يكتبه بغير اكتراث يحاول المكترثون جهدهم فلا ينهون إليه ، وأحسب أنى قرأت له المقال الذى كان يكتبه فى نصف ساعة ، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود إليها فى ساعات ، فكان أجود ما كتبه من ثمرات السرعة البالغة ، سرعة الكاتب الذى يقول انه « لا يبالى » ، ولكنه يبلغ غاية الشوط من « مبالاة » الآخرين . .

وهذه هى عبقرية المازنى التى لا تجارى : عبقرية تعطى وقائع اليوم حقها ولا تنسى حقوق المثل العليا فى سماواتها ، وهى على هذا تعطينا نموذجاً منها فى النكتة مع التلميذ والصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينا نموذجاً منها فى ثمرات الفن والأدب ، وتشعروها تستخف وتسخر كما تشعروها تقدس وتجد ، لأنها فيما « تباليه » وما « لا تباليه » ، إنما تصدر عن فرط شعور وعن تمييز بين مواطن النقص ومواطن الكمال .

* * *

عبد الرحمن شكرى

عرفت عبد الرحمن شكرى قبل خمس وأربعين سنة^(١) فلم أعرف قبله ولا بعده أحدا من شعرائنا وكتابنا أوسع منه اطلاعا على أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية وما يترجم إليها من اللغات الأخرى .

ولا أذكر أننى حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده علما به وإحاطة بخبر ما فيه ، وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت إليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ . وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة ، نافذ الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم أن تهابت له ملكة النقد على أوفائها لأنه يطلع على الكثير ويميز منه ما يستحسن وما ياباه فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة فى الصفحة والصفحات يلقى بعدها الكتاب وقد وزنه وزنا لا يتأتى لغيره فى الجلسات الطوال .

لم يسبقه أحد فيما أذكر إلى تطبيق البلاغة النفسية - السيكولوجية - المستمدة من أدب الغرب على ما يقرؤه من شعر الفحول فى اللغة العربية ، ولعله أول من كتب فى لغتنا عن الفرق بين تصوير الخيال Imagination وتصوير الوهم Fancy وهما ملتبان حتى فى موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك التفرقة بين تشبيه الشفق والفجر بدم الشهداء فى قول المعرى :

وعلى الأفق من دماء الشهيد ين على ونجمله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا ن وفى أولياته شفقان

وبين تشبيه ابن الرومى للأصلع حيث يقول :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله
فالأول وهم فى خاطر المعرى ، لا يلتفت إليه أحد غيره لو لم يذكره ، والآخر خيال

(١) توفى عبد الرحمن شكرى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

مطبوع يحظر لكل بدية مصورة تتقن من التشبيه ما يتقنه الشاعر ، وقد كان يشمتر من بيت
الوآء الدمشق :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
ويقول إن نسبته إلى يزيد بن معاوية بلاء فوق طاقته فلا تجمع عليه « بين قتل الحسين
وقول هذا الشعر الذى لا بأس به إذا أريد للفكاهة والعبث لا للغزل » .
وكذلك كان يحسب من الزاج الغث قول الأنبارى :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد المات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات
وهو معلود من عيون الرثاء عند من ينظرون إلى اللفظ ولا ينظرون إلى بواعث الرثاء من
النفس الانسانية ، فمثل هذا الرثاء يقال للمكايذة أو للعبث ، ولا ينم على حزن دخيل ، ولا
تقدير مفيد .

شكرى الشاعر :

ولم يكن أمتع من الاستماع إلى شكرى وهو يقرأ القصيدة العربية أو الأوربية ويعلق عليها
بيتا بيتا أمثال هذه التعليقات . . وما كتبه من النقد فى مؤلفاته قطرة من بحر من تلك الآراء
النفيسة التى كان يرسلها عفو الساعة ولا يعنى بتقييدها .

وقد نظم شكرى سبعة دواوين من الشعر غير القصائد التى لم ينشرها وتمتلى بها كراسة فى
حجم ديوانين آخرين أو أكثر ، فمن تخير من هذه الدواوين المنشورة وغير المنشورة أمكنه أن
يجمع منها زبدة من أجمل الشعر تضارع صفوة القول فى كلام كبار الشعراء ، وقد كانت له
قدرة على رياضة النظم كما نرى فى ترجحاته لبعض رباعيات الخيام ، فإن الترجمة أدل على
قدرة النظم من التأليف لتقيد الناظم بالمعاني المنقولة التى لا يتصرف فيها ، فقد أحسن فيما نقله
من الخيام غاية الاحسان حيث يقول :

هاج للقلب جدة الحول أشجا نا لديه قديمة العهد

تأنس النفس بالتفرد والوحد
 حيث تحكى الأزهار راحة موسى
 في ظل عيشه الرغد
 في بيض السوار والورد
 ولها نفحة كأنفاس عيسى
 باعشات للميت من لحد
 أو يقول :

أرم قد عفت وصوح قدما
 في رباها الربيع والزهر
 كأس « جمشيد » قد مضت حيث لا حية
 ثل الدنيا من أمرها خبر
 لكن الكرم لا يزال جوادا
 برحسب حسابيه درر
 ولنا منزل على الروض فينا
 ن تروى أزهاره الغدر
 أو يقول :

هات لي الكأس يا حبي دهاقا
 لا تطع عاتبا كئوس العقار
 إن ثوب الوقار ثوب شتاء
 ليس يغنى في الصيف ثوب وقار
 اغض عنك الوقار وارم به في
 جمرات اللقيظ مثل النار
 إنما العيش طائر بين غصين
 من فخذة مأخذ المستطار

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من سلسلت له في مترجاته كانت في مبتكراته أسلس
 وأوفر ، وقد توافرت لشكري مقطوعات أبيات في هذه الطبقة من بلاغة الأداء ، وكان خليقا
 أن تتوافر له في كل ما نظم لولا أن التفاوت طبيعة في أعمال العباقرة والموهوبين ، ولولا أنه كان
 قليل الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح يرسل شعره إرسالا كما قال :

أرمي بشعري في حلق الزمان ولا
 أبيت منه على هم ولبال
 ولكنه - على قلة احتفائه بالتنقيح - قد خلص له من جيد الشعر ما يسلكه في عداد
 المجددين من نخبة الشعراء .

وله عدا ذلك في ميدان القريض فضل الرائد الذي سبق زمانه في عدة حسنات
 مأثورات ، فهو من أسبق المتقدمين إلى توحيد بنية القصيدة وإلى التصرف في القافية على أنوع
 من التصرف المقبول ، فنظم القصيدة من وزن واحد ومقطوعات متعددة القوافي ، ونظمها

مزودجات وأبياتا من بحر واحد بغير قافية ملتزمة ، وآثر في تجاربه الأخيرة أن يلتزم القافية مع تعديدها في مقطوعات القصيدة الواحدة ، وتسنى له في جميع هذه المناهج أن ينظم الكثير من القصص العاطفية والاجتماعية قبل أن يشيع ^(١) نظم القصص في أدبنا الحديث وله فيها قصيدة اليتيم التي يقول فيها :

وما اليتيم إلا غربة ومهانة وأى قريب لليتيم قريب ؟
يمر ، الغلمان مثني وموحدا وكل امرئ يلقي اليتيم غريب .
يرى كل أم بابنها مستعزة وهيئات لا يحنو عليه حبيب .
إذا جاءه عيد من الحول عاده من الوجد دمع هائل ووجيب
كأن سرور الناس بالعيد قسوة عليه ترقيق الدمع وهو صنيب
عزاءك لا يلهم بك الضيم أننا يتامى ولكن الشقاء ضروب
فهذا يتيم تأكل صفو عيشه وذلك من الصحب الكرام سلب

ونذكر هذه القصيدة خاصة لسبب غير دلالتها على نماذج شعره في هذا الباب ، إذا كانت من أسباب وجومه الذي لزمه من مقبيل شبابه وكان من دواعي هذا الوجوم أن هذه القصيدة اختارها الأستاذ محمد أمين واصف في كتاب من كتب المطالعة مستحسنا لها ، موصيا بحفظها ، من دون أن يذكر اسم صاحبها ، فكان هذا الإغفال مما آلم الشاعر أشد الإيلام لأنه كان يفهم - كما قال لنا - أن يغفل ذكره لاستهجان شعره ، فأما أن يكون الإغفال حتماً عليه مستحسنا ومستهجنا فذلك كنود عجيب .

ولقد كان بعض الإنصاف خليقاً أن يُلطف من وحشة الشاعر التي لازمته منذ بواكير شبابه ، ولكن التواطؤ على نكران فضله بين من يعرفونه ومن يجهلونه محنة لم يكن ليصبر عليها طويلاً ، مع ما فطر عليه من الحس الرفيف والملل السريع .
ففي نحو العشرين نظم شكرى هذه الأبيات :

لقد لفظتني رحمة الله يافعا فصرت كأي في الثمانين من عمري

(١) لعل شاعر الأقطار العربية خليل مطران قد سبقه إلى ذلك ، ففي ديوانه الذي صدر في سنة ١٩٥٨ قصص شعرية نظمت قبل سنة ١٨٩٧ .

وحاول منى الهم صبرا فلم أزل أدافعه حتى اجبت له صدرى
وإني لأدرى أن فى الموت راحة وأجنبه حتى كأني لا أدرى
ولولا تقي لا يملك اليأس صرفه لاوردنى يأسى على المسلك الوعر

وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا الملل وهذا التردد بين اليأس والرجاء لا يدري
ما يدافعه من خيبة فى حياته الأدبية ولا من خيبة فى حياته الوجدانية ، وكلها أثقل وأمض من
أن تطاق فى حالة السلم الجليلد فلما أطبقت عليه العلة الويلة - علة الشلل - ران عليه وجوم
الأبد قبل الحرم وقبل الموت فترك الدنيا ومن فيها وما فيها ، ولم يحفل حتى بأن يقول إنه تركها
غير مأسوف عليها . .

شكرى الناثر :

والشاعر الناقد (شكرى) كاتب ناثر على أسلوبه ومنهجه فى السهولة والسلاسة وقلة
الاحتفال بالتشويق والتجميل ، لكن ثره شعر ، ونقده لا تقرأ مثله لشاعر غير ناقد أو لناقد غير
شاعر .

ومن مؤلفاته النثرية كتاب « حديث إبليس » وكتاب « الاعترافات » وكتاب « مذكرات
مجنون » عدا فصوله المجموعة فى كتاب « الصحائف » وكتاب « الثرات » وطابعها الغالب عليها
جميعا أنها وحى نفسه الذى لا يشبهه فيه كاتب يطرق هذه المعانى والأغراض ، فهى
« شكرية » فى كل صفحة من صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد يميزها اللفظ المسترسل ، كما
يميزها لون الفكر والوجدان .

يقول من فصل له عن هبة الحياة وهبة الموت :

« إننا إذا أغرينا الناس بأن لا يهابوا الحياة خفنا أن يغريهم ذلك بأن يغالوا فى حب الحياة
حتى يجبنوا . . وإذا نحن أغريناهم بأن لا يهابوا الموت خفنا أن يدفعهم ذلك إلى كره الحياة
والرغبة فى التخلص منها فخلق بنا أن نخشعهم على أن يجعلوا بين الرهبتين موازنة كى لا ترجح
احداهما ، ولكن الإنسان لا يملك صحة نفسه وسقمها . . فإن وراء رغبته فى صحة نفسه
عوامل لا يملك لها دفعا مثل الوراثة والتربية والبيئة فإذا تحالفت هذه الأسباب على أسقام نفسه
بأن تجعله جبانا أمام الحياة ، أو جبانا أمام الموت ، كان ضحية لها ولا تنفعه نصيحة الناصحين
شيئا » .

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما تجده في هذه الملاحظة من استيحاء شعوره وفكره والاستفادة من مراقبته لنفسه ولغيره ، ثم إرسال التجربة على الورق كما يرسل الحديث في مجلس السمر عفوا بلاكلفة ولا مراجعة بين مصدره من النفس ومورده من التعبير .

إن « عبد الرحمن شكرى » شاعر ناثر نسيج وحده في فنه ، ومن توحده في هذا الفن أننا نتلقى تعبيره من « شخصية » فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وإن جال به الفكر اللامح والاطلاع الواسع في كل مجال .

ولقد عرف شكرى الناس معرفة أحزنته أشد من حزنه لجهلهم إياه ، فلن عادوا فعرفوه فلعلهم يرضون أنفسهم بإرضائهم لذكراه . .

هؤلاء حادثهم

نشأت وليس أحب إلى من الاطلاع على تراجم العظماء ، ولكننى على فرط شغفى بالاطلاع على تراجمهم لم أشعر قط نحوهم بذلك الشعور الذى يغلب على كثير من الناس ، وهو شعور الميل إلى رؤيتهم والاتصال بهم ، إن كانوا من الأحياء ، وقد يتفق لى أن أقرأ عن أحدهم أو أقرأ له كثيرا من الأوصاف والآراء ، ثم يصل إلى مصر ويتاح لى فرصة لقائه ، فلا أكره لقائه ولا أنحف إليه ، ولكننى أستطيع أن أفرض أنه لا يزال فى بلاده ، دون أن يكلفنى هذا الفرض أقل عناء .

إننى أحب غاندى وأكبره ، وقد عبر بمصر فى طريقه إلى لندن ، وأرادت صحيفة البلاغ أن تندبى للقائه والتحدث إليه ومصاحبته فى السفر من السويس إلى بورسعيد ، فلم أنشط لهذه الرحلة ، ولم أشعر بأننى أزداد معرفة بالرجل أو اكبارا لقدره إذا قضيت معه هذه الساعات .

ومرجع ذلك فيما أظن إلى أسباب شتى : منها أننى تعودت أن أرى العظماء والمشهورين فى غير « هالتم » التى تضيئ عليهم ما تضيئ من الغرابة ، وتثير فى نفوس الناس نحوهم حب الاستطلاع أو حب الاستشفاف من وراء الظواهر والرماسم ، وقد تعودت ذلك لأننى نشأت فى أسوان حيث كنا نرى فى كل شتاء زوارا من الملوك وأولياء العهود والنبلاء وكبار القادة والساسة ورجال الأعمال ولكننا نراهم على أبسط ما يكونون من البساطة ، فيرتفع عن أبصارنا غشاء

الغربة الذى يحيط بهم ويغرى الأنظار بالتطلع إليهم ، وتقدرهم من بعيد كما تقدرهم من قريب .

كانت الصحف والأنباء البرقية تتحدث عن ملنوكشنر ، وكان أهل أسوان يرون ملنر في قهوة بلدية أكثر روادها من الحمالين والترجمة والأكارين ويرون كشنر على دكة خشبية أمام بيت من بيوت مشايخ العرب .

وكان علماء الأرض الذين تنقل مجلات العلوم آراءهم وبحوثهم وتعتمد عليهم الحكومة في بعث الكشف والتحقيق يفدون إلى أسوان أحيانا فيزوروننا في المدرسة وتزورهم ، ونألف أن يكون كبار العلماء أناسا مألوفين . ذلك سبب من أسباب .

أما الأسباب الأخرى فمنها حب العزلة الذى ورثه وطبعت عليه ، ومنها أننى أتطلع إلى معرفة العظمة حقيقة لا صورة ، وأحسب أن رؤية لحظة أو لحظات لا تعرفنى بالعظم أن لم تعرفنى به قراءة يوم أو أيام .

لهذا لم أنشط كثيرا إلى لقاء مشاهير العالم الذين تهيأت لى الفرص للقائهم ومحدثهم ، ولم أتوسل بعملى فى الصحافة إلى محادثة أحد منهم ، إلا لغرض غير حب الاستطلاع أو حب التقرب من ذوى الأخطار .

فحدثت أحمد مختار الغازى ، وحدثت سعد زغلول وحدثت أميل لودفيج ، وكان باعث الحديث فى كل مرة سببا غير حب الاستطلاع من جانبى أو إرضاء المستطلعين من جمهرة القراء .

أحمد مختار باشا الغازى :

وغتار الغازى كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل من الأبطال العسكريين الذين اشتهروا فى حروب روسيا والدولة العثمانية .

كانت له شهرة عالمية ومكانة موقرة وازدادت الدولة العثمانية ثن تنيب عنها فى مصر مندوبا ساميا ملحوظ المكانة ، ليستطيع بمكانته - فقط - أن يوازن مركز المندوب البريطانى بما فى يديه من السيطرة والنفوذ ، فاختارت مختارا لهذا المنصب ، وعرف فى مصر باسم القوميسير . ولم يكن له عمل فى السياسة المصرية ، بل كانت كل أعماله من قبيل التشريفات وحضور

الصلاة في يوم الجمعة مع أمير البلاد .

ولكنه كان يسأل : « ماذا تعمل في مصر؟ » . فكان يقول : « إنني احتجاج حتى على وجود الاحتلال » .

ولما خطر لي أن أحادثه كان هذا الخاطر في الواقع « شيطنة شباب » . . لأنني أردت أن أقل باسم هذا الرجل الجريء كلاما يسمع منه ولا يسمع من غيره ، وكان المحمل المصري قد تعرض يومئذ لهجمة من هجيات الأعراب في طريقه إلى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولاية عثمانية ، فليس أجدر من القوميسير العثماني أن يسأل عما جرى فيها ، وبخاصة حين يجري لأناس من الحجاج المصريين في حيازة فرقة مصرية .

كان مختار الغازي ضئيل الجسم قصير القامة ، ولكنه كان مهيب الطلعة كأنما تشتعل في عينيه نار موقدة ، فلما تحدثت إليه لم يتحفظ ولم يبال أن يقول كل ما عن له أن يقوله عن إهمال الإنجليز للقوة العسكرية المصرية ، ولا أذكر تفصيلات حديثه اليوم ولا يتيسر لي أن أبحث عنه في مراجعه لقله بنصه ، ولكنني أذكر أنه قال : « إن الإنجليز أهملوا جيش مصر ، وأنني بقوة كقوة المحمل أفتح الجزيرة العربية ! » .

وكنيت أكتب يومئذ في صحيفة الدستور لصاحبها الأستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك ، فلما رويت له ما سمعت من الغازي ابتسم وقال : « إنك لا تذكر حادثة الحدود . . فإن كلاما أقل من هذا الكلام قد أثار الإنجليز على أمير البلاد ، فكيف تظنهم يتلقون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به ويمرّكوه في الديار المصرية ؟ »

ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته بالقياس إلى ما قيل قد أقام الدنيا وأقعدها في الدوائر الإنجليزية ، وأحسبه كان من أسباب سعيهم الخيث في نقل الغازي والمساومة على مركزه في الآستانة .

سعد زغلول :

وحديثي مع سعد زغلول خليك أن يشار إليه ، لأنه فيما أعتقد كان أول حديث لصحفي مصري مع أحد الوزراء المصريين .

ونحن في العصر الحاضر نفتح الصحف اليومية والأسبوعية فلا يفوتنا حديث وزاري في عدد من أعدادها المتلاحقة .

لقد أصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هذا البلد مادة صحفية دائمة ، وموردا ميسورا لكل قاصد .

ولكن صحف مصر قد عبرت في الجليل الماضي سنوات بعد سنوات ، دون أن يسمع فيها صوت « ناظر » من النظار كما كان الوزراء يسمون في ذلك الحين .
لأن النظار كانوا في عزلة عن الرأي العام ، وكان الرأي العام في عزلة عنهم ، فلا يجسر أحد منهم على الإفضاء بمحديث عن سياسة « نظارته » إلى جمهور المصريين .

* * *

وعلمت أن سعدا رحمه الله ناظر ولا كالنظار ، وأنه لا يبالى ما يباله زملاؤه من غضب قصر الدويارة أو غضب المستشار .

فأردت أن أحطم هذا السيد بين الوزارة المصرية والأمة المصرية ، وهنى أن أحادث سعدا على الخصوص لأننى كنت أعجب به وأترب لمصر نهضة وزارية على يديه ، وكان في تلك الأيام عرضة لحملة جائرة من بعض خصومه ، وكنت أعلم أنها جائرة . لأهم زعموا أنه حارب الجامعة وهو الذى رصد لها عشرة آلاف جنيه في ميزانية الدولة ، وزعموا أنه حارب التعليم باللغة العربية وهو الذى دفع الطلاب دفعا إلى مدرسة المعلمين ، وجعل لهم مرتبات شهرية وهم في سلك الدراسة ليخرج منهم أساتذة يعلمون الدروس باللغة العربية ، وزعموا أنه مالا الإنجليزية على تقييد التعليم وهو الذى كان يطوف البلاد من أسوان إلى رشيد لمحاربة الأمة بتعميم المكاتب الأولية .

فأخذت من حديثي معه وسيلة لدفع هذه الشبهات بالأسانيد الرسمية ، وحصلت فعلا على تلك الأسانيد ، ورأيت بعينى ما يثبت لى صدق ما ظننته في عزيمة سعد واحتفاظه بكرامته وكرامة منصبه ، لأن المستشار العنيد - دانلوب - جاء يستأذن في عرض أوراق عليه ، ولم يكن مستشار إنجليزي يستأذن في عرض أوراق ، بل كان ينظر في كل مسألة بنفسه ويعرض ما يشاء من ذلك على الوزير للتوقيع .

نشرت حديثي مع سعد في شهر مايو سنة ١٩٠٨ بصحيفة الدستور ، ولم أحادث سعدا باقتراح من الأستاذ الجليل صاحب الصحيفة ، ولكن الأستاذ الجليل من كتابنا القلائل الذين يعرفون حرية النشر ، وكثيرا ما خالفته فيما أكتب وأنا يومئذ في مطلع حياتي الصحفية ، وربما

ذهب في مسألة من المسائل إلى رأى وذهبت إلى غيره ، فلا يرى حرجا في نشر ما أكتب كما أراه .

أميل لودفيج :

أما أميل لودفيج فلم يكن لقائى له عملا صحفيا ، ولا أنا أردت أن ألقاه لأنشر ما يجرى بينى وبينه من الأحاديث ولكنه حضر إلى القاهرة فأقامت له المفوضية الألمانية حفلة استقبال في دار وزيرها ، وأحب أن يتعرف لهذه المناسبة إلى أناس من المشتغلين بالأدب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت أحد المدعوين .

وتصافحتنا في مزدحم من الأجانب والمصريين والرجال والسيدات ، فقال لى أنه يود لو تلاقينا في فرصة أخرى .

وكان صديق الأستاذ محمود الدسوقي سكرتيرا شرقيا للمفوضية الألمانية فدعانا معا إلى اللقاء في حجرة من حجرات المفوضية وأثر لودفيج أن نتحدث على انفراد . وأحسست من أسئلته الأولى أنه يترع في مسائل المجتمع والسياسة نزعة اشتراكية معتدلة ، فقلت إننى أوافق الاشتراكيين في كل ما يؤدي إلى تحسين أحوال الفقراء والأجراء ، وأنخالفهم في كل ما يؤدي إلى حرمان الفرد حريته الفكرية والشخصية . فقال « حسن . حسن » وكررها مرات .

ثم أحسست أنه قد اطمأن إلى بعد لحظات من الحديث وتبادل وجهات النظر ، لأنه أفضى إلى بأصرح ما دار بينه وبين المصريين والأجانب من الأحاديث العامة في المسائل الوطنية والعالمية .

ثم سألتى : « عندكم في مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا العظمى ، فأياها يكون له التغلب فيما تظن ؟ » .

قلت : « أتسأل عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : « بل عن المدى الطويل » .

قلت : « سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم » .

قال : « يسرنى أن أسمع منك ذلك » .

* * *

واستطردنا إلى الكلام عن مؤلفاته فوجدته أقل ما يكون رضى عن قصصه ، وأكثر ما يكون رضى عن تراجمه ولا سيما ترجمة نابليون فيها أذكر ، فقلت له أيضا : « يسرى أن أسمع منك ذلك ، لأنه هو الصواب فيما أراه » .

وتركته وفي نفسى أثر من لقائه يقارب الأثر الذى استخلصته من قراءة كتبه ، وهو أنه صحفى راق ، وأن توارىخه وأدبياته أقرب إلى تليغات المجلات أو تعليقاتها ، وإن كانت تفوق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث والدراسات ، لأنه يكسوها طلاوة لا نجدها كثيرا في تلك البحوث والدراسات .

برنارد شو في أسوان :

شمس ريعية لم تعترف قط بالشتاء ، وأرض تحمل في كل بقعة من بقاعها سمات التاريخ الذى يطوى الفصول والسنين ، ونيل خالد وقور يوحى إليك أن تقيسه بألوف العهود والأجيال ولا تقيسه بألوف الفراسخ والأميال ، وجبال من حولك كأنها أسوار تدور على صومعة ناسك لا تراه بالعينين ، أو كأنك تسمعه بأذنيك يقول في سكيته الأبدية : « ها أنا ذا لم أحفل بشيء في دنياك فهاذا أصابني على مر الزمن ؟ لا شيء .. فلا تحفل يا بنى بشيء .. » .

تلك هي أسوان في هذا الشتاء ، وفي كل شتاء ، وتلك هي أسوان التى أقضى فيها بضعة أيام ، وفي وسعى أن أقول بضعة قرون حين تغمرني بتلك الآفاق التى لا تعرف حساب الأيام ..

أجازة من عالم السياسة ، ومن عالمنا الصاخب في غير طائل ..

وهل في العالم من يستغنى عن هذه الإجازة من سنة إلى سنة أو من حين إلى حين ؟ ..

ساء حظه أن استغنى عنها ، لأنه لن يستغنى عنها إلا إذا أضاع نفسه فيها .

ولقد سن لنا الله سنة الإجازة من الحياة كلها في كل يوم ، فهل نستغنى عنها في هذا الشغل الشاغل الذى يبغض الحياة إلى نفوس الأحياء ؟ ..

معاذ الله خالق النوم لنا « إجازة يومية » من الحياة ، وليته خلق للحيوان « السياسى » بالطبع كما يقول أرسطو - إجازة قهرية ينام فيها عن سياسته .. فان غفلة النوم أروح له من هذه الغفلة الدائمة وهو سهران ! ..

وبحمد الله لا أزال أعرف هذه الاجازاته ، وإن لم أكن في بطالة

ألا يقدر أناس على الغفوة بعد الغفوة وهم في وسط الحركة والضجيج؟ . . بلى
يقدر . .

* * *

وفي وسط الحركة والضجيج ، بل في وسط الممعة كما كان يفعل نابليون على ظهر
جواده ، أستطيع أن أغمض عيني في عالم الأحلام فاذهب في اجازة اليوم أو الشهر أو العام .
وإنني في تلك الغفوة لأيقظ ما أكون . .
لأنني في تلك الغفوة أعم في أحلام الشعر والفن والأدب ، فلا تقوى معركة « المارن »
نفسها على إخراجي من ديوان شعر أو صفحات كتاب أغلق « أبوابه » على !
وقلت : هي إجازة في كتاب ، حين قلت لنفسي : « إلى أسوان . . إلى أسوان »
لقد كان كتابا حسنا من وجوه كثيرة ، وأحسن ما فيه أن كاتبه هو الفيلسوف « جود »
وموضوعه هو الداعية المشهور « برنارد شو » . .
فالكاتب أعظم من المكتوب عنه في أكثر من ناحية واحدة ، وهي على الأقل ناحية
الفلسفة وناحية الآراء الاجتماعية . .
وإن شئت فقل أيضا من ناحية الآراء السياسية والمبادئ الدستورية ، وهي اليوم شغل
شاغل للصحافة والقراء !

* * *

بين دوى العجلات ، ودوى الدعوات ، فتحت الكتاب أطوى صفحاته والقطاري يطوى
الأرض « كطلى السجل للكتب » ، كما جاء في القرآن الكريم . . .
ولم تمض أربعون صفحة حتى وجدت نفسي على أبواب البرلمان من طريق آخر : طريق
الآراء والنظريات ، لا طريق المعارك والأزمات ! . .
صاحبنا الفيلسوف « جود » ينظر إلى « برناردشو » نظرة التلميذ إلى الأستاذ ، لأن شو كان
شيخا يقود الحركة الفكرية يوم كان « جود » طالبا ناشئا يتلمس طريقه في مضطرب المذاهب
والمعتقدات . .
وصاحبنا « جود » يرشح نفسه للنيابة عضوا اشتراكيا مع حزب العمال ، فيكتب إلى
« برناردشو » مستشيرا قبل الإقدام على هذه التجربة . . لأنه أستاذه في هذا الميدان ، ولأنه
زعيمه في التركة الاشتراكية قبل عدة سنين . .

وأحسب أنني لو كنت في موضع «جود» لما استشرت الداعية الكبيرة في أمر من الأمور ،
لأنني على ثقة أنه يخالف كل ما تقترحه عليه ، فلو كنت عضوا في البرلمان واستشرته في الخروج
منه لسخر من إقدامك على هذه الخطوة التي لا معنى لها !
ولو كنت كاتباً واستشرته في دخول البرلمان لسخر من إقدامك على هذه الخطوة التي
لا معنى لها كذلك . .

لأن كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى له على الإطلاق !
فلا معنى إذن لأن تعرض عليه أى اقتراح !
ولكن «جود» قد أراد أن «يسأل» على ما يظهر مجرد سؤال . . ثم لا يعول على
الجواب . .

وهكذا سأل ، وهكذا جاءه الجواب الذى لا شك فيه . .
قال له «شو» إن الفلاسفة الذين دخلوا البرلمان غير قليلين ، ومنهم «ميل» و«برادلو»
و«وب» الذى كان عضوا في الوزارة . . فهل صنعوا شيئا هناك ؟
وقال له إن «تشرشل» لم يكن عضوا في البرلمان حتى الحرب العالمية ، ثم ساقوه إلى دائرة
انتخابية أدخلوها له ، لأنهم في حاجة إليه ، فقد كان شيئا مهما قبل أن يرشح نفسه للنيابة
البرلمانية .

وقال له إنه هو نفسه قد رفض النيابة يوم عرضوها عليه وكرروا العرض مرات ، ثم لم يندم
قط على الرفض والإصرار . .

وقال له أخيرا : «إن ورق اللعب لا يزال أمامك على المائدة ، فإن شئت فجرب حظك
والعب ورقك . . » ، ثم تواضع «شو» في ختام خطابه ، لأن التواضع من مثله رياضة
محبوبة بين «الادعاءات الكثيرة» . . فقال في شيء من الملل : «وهذه على كل حال آراء
رجل كان ينبغي الآن أن يكون ميتا لأنه قد بلغ من الهرم أقصاه !»

ولم يثن «جود» عن عزمه بهذه النصيحة ، بل كتب إلى أستاذه يبلغه أنه ماض في ترشيح
نفسه ، فجاءته منه تذكرة بريدية يقول فيها : «حسنا . . إنك سوف تتعلم على الأقل شيئا
واحدا ، وهو أن تعرف كيف لا تعمل !» ، .

ثم شفعتها بتذكرة أخرى وقال فيها : «امض في عزمك بكل وسيلة . . فقد تحصل على
تجربة مباشرة لا تخلو من فائدة للفلاسفة السياسيين» .

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل « جود » عن ترشيح نفسه لأنه لم يرض عن أساليب الأحزاب في الترشيح ، لا لأنه عمل برأى الداعية الكبير !

* * *

تلك هي اجازتي في هذا الكتاب ..

إجازة ، ولا إجازة .. !

إجازة لأنها رحلة في عالم الفكر والنظر ، ولا إجازة لأنها تعود بنا إلى السياسة في بعض الطريق ..

وهي من هنا خبرة حسنة ، لأنني قد أكون في إجازة والقراء « عاملون » !

وما الرأي بعد هذا في نصائح « برناردشو » لتلميذه الفيلسوف ؟

ما الرأي في تقديره لعمل الأديب ، وعمل العضو في البرلمان ؟ ..

الرأي الذي لا يتسع فيه الخلاف أن الفيلسوف قد يصنع شيئا في المجالس النيابية ولكنه ليس بخير ما يصنع وأنه إذا جرب مهنة الترشيح مرة بعد مرة خليف أن ينبذها بعد ذلك لا محالة ، لأنها تهبط به إلى المساومة الرخيصة والوعود الكاذبة . ولا ترتفع به قيراطا واحدا فوق مستواه ..

ومالنا الآن وهذه الظلمات ؟ ..

إن الشمس ساطعة باسمية ، وإن مشاهد التاريخ ومعالم الخلود من حولنا قائمة دائمة ! !
فهلهم الى النور .. !

لسان الهلباوى

كان في مصر قبل الثورة العراقية حزبان سياسيان : أحدهما حزب محمد شريف باشا ، والآخر حزب أحمد رياض باشا ..

وقد يحظر للقارئ العصري أن تعريف الأحزاب بالأشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية ..

ولكن الواقع أن تعريف الأحزاب بالأشخاص كان سمة معروفة في ذلك العصر حتى في

أعرق الأمم البرلمانية . فكان الحزبان المتناظران في انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين . . .
وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين في البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء إلى هذا الوزير أو ذلك الوزير . . .

كان حزب « شريف » أقرب إلى التجديد السريع . . .
وكان حزب « رياض » أقرب إلى المحافظة مع التقدم في رفق وأناة . . .
وكان الهلباوى بك ناقما على رياض باشا لسبب من الأسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكذب عنه ما لا يرضيه . . .

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب « الشيخ إبراهيم الهلباوى » تمهيدا لمعاقبته . . . فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشئ ، واستطرد قائلا : إن ناظر النظار سيخرب بيتك إن لم تكف عن الحملة عليه . . .

فضحك الشيخ إبراهيم وأجابه ساخرا :
- أنه لا يستطيع . . .

فعجب العالم المحقق : كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها في يديه ؟
وقال الشيخ إبراهيم : وليكن ناظر النظار أو أكبر من ناظر النظار : ليكن أمير البلاد . . .
ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله ، فإنه لا يستطيع أن يخرب لى بيتا . . .

فزعزع العالم المحقق ، وخيل إليه أن المسألة ته تل من التمرد والعصيان إلى الكفر بالله .
والعياذ بالله ! . . .

فصاح بالشيخ الناشئ حنقا : أهذا الذى تعلمتموه من جمال الدين ؟ . . .
وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء في ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد في كلام التلميذ برهانا على زندقة الأستاذ . . .
وكان الشيخ إبراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين . . . فلم يكن أسرع منه إلى رد التهمة إلى المتهم ، وقال لصاحبنا : « بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه من جمال الدين ! » . . .
قال الرجل : أعلمناكم الكفر نحن ؟ . . .

قال الفقى المتحدلق : بل علمتمونا أن قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل . . وخراب بيتى
مستحيل لسبب واحد ، وهو أنه ليس لى بيت ! . .
على أن تلمذة الهلباوى لجمال الدين لم تكن تمنعه أن يستطيل عليه بمثل هذه الحذقة إذا
« حكمت القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترئ على السيد بالدعابة
فى مجالس الدرس أو مجالس الحديث . .

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الأحاديث أو تلك
الدروس - وكانت كل أحاديث جمال الدين من قبيل الدروس : إن السيد كان يتكلم يوما عن
بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التى تصيب الجسد
ولا تمس النفس الناطقة . .

فقاطعه الهلباوى قائلا : يا خير ! وهل السيد من هؤلاء ؟ فانتفض السيد مغضبا وصاح
به : اغرب عني أيها الخبيث . . لعنة الله عليك !
والهلباوى الذى تدل عليه هاتان التادرتان هو الهلباوى الذى عرفه الناس طوال حياته ،
ويمكنك أن تلخصه فى عبارة واحدة ، وهى أنه رحمه الله كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها
ولا تريح صاحبها » . .

ومن هذه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوى فى كل ما هو مأخوذ عليه . .
سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه . .
كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته أنها دخلت فى
« النكتة المصرية » . . فكان الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون إذا اشتط
عليهم القصاب فى الثمن : والله ولا لسان الهلباوى .

وسمعنا بشهرته كاتباً كما سمعنا بشهرته محامياً ، فكان عنوان مقالاته « إلى أى طريق نحن
مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نسمع به وإن لم نقرأ تلك المقالات . .
ثم أدركه آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول فى الوطنية إلى خطبة « الاعتدال » وفسر
الاعتدال بمصانعة الاحتلال . .

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعنى بها « قضية دنشواى » التى وقف فيها موقفا ظل نادماً عليه
طول حياته . .

وعن قضية دنشواى قلت فى كتابى سعد زغلول : « لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى

أسوان ، فأغمرى على واحد منا ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت مهدج تخفقه العبرات .
ويستطيع القارئ إذن أن يتخيل مبلغ السخط الذى أثارته فى نفوسنا رؤية الهلباوى أمامنا
وجها لوجه فى دار الجريدة ، يوم ألقى الأستاذ لطفى السيد بك « خطابه الذى أشرنا إليه فى
الكلام على صاحب « المؤيد » .

لقد كان اغتباطى شديدا بما أصابه من الأذى فى ذلك اليوم ، ولكنى أقول إنصافا له أننا
رأينا فى الرجل شجاعة لم نرها فى غيره من المقصودين بالهتاف العدائى ذلك مساء . . فقد أوى
بعضهم إلى حجرات الدار حتى اطمأن إلى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى الهلباوى إلا أن
يقتحم الجمع خارجا من الدار فى ابان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم
والإيذاء . .

وغاب الهلباوى زما عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لسعد زغلول ،
وكانت المساجلات بين الأحزاب يومئذ على أعنفها . . ولكنى أشهد القارئ أننى ما وجدت
القلم ينبعث فى يدى انبعاثا إلى القول القارص العنيف كما كان ينبعث فى الرد على خطب
الهلباوى وأحاديثه ، فردودى عليه فيما أعتقد كانت أعنف ما كتبت على الإطلاق . .
ثم مضت الأيام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوى شأن فى موقف من أهم المواقف فى
حياتى السياسية ، لأنه الموقف الذى اعترمت فيه جدبا أن أترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع
الأحزاب . .

كان الوفد والأحرار والدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة الصديقة التى عدلت
الدستور . .

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقد الأحرار الدستوريون اجتماعا فى دار حزبهم ،
وذهبنا إليه تأييدا لمظهر الائتلاف . .

وإذا باللهلباوى هو خطيب الاجتماع . .
وإذا بى جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، وإذا به يحتال فى كلامه ليهملنى عند مناسبة
ذكرى ويتجاوز الإهمال إلى التعريض . .

وعلقت على الخطبة فى اليوم التالى ، ورآها فرصة سائغة لإرغامى باسم الائتلاف . .
وجاءتنى دعوة إلى بيت الأمة حيث يجتمع طائفة من أعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى

النحاس (باشا)

ما الخبر؟ ..

الخبر - كما قالوا - أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : وما شأنى فى هذا البيان ؟ ..

قالوا : بل الشأن شأنك ، لأن فحوى البيان أن الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوى بك .. قلت : إنكم أحرار فيما تكتبون ، ولكننى سأرد لا محالة على هذا البيان . وأقول لكم سلفا إننى أنا المسؤول عما أكتب ، ولم يعلم الناس قط أننى أكتب بإشارة من أحد .. ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد جين حملت على اللورد من أجل زيارته للأقاليم ، وثار اللورد ثورته التى أوشكت أن تعصف بالبرلمان ، وأرسل إلى سعد من يقول له إن اللورد يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته الماثورة : « إنها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » ولم يقاتحنى فى الأمر حتى انقضت الأزمة ، لكى لا أفهم أنه يقترح على الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع ..

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا إن صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فإن شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : لن أسمع ، ولن أسكت عن الرد عليه ..

فى ذلك المساء زارنى مكرم عبيد (باشا) والمرحوم صبرى أبو علم (باشا) ، وسألانى : « ماذا صنعت ؟ » .

قلت : كتبت ردا على البيان سينشر فى عدد الغد من جريدة « مصر » - وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كنت أكتب مقالاتى كل يوم .. فحاولوا وقف المقال ..

قلت لها : إذا كنت لم أستطع أن أقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا إقناعى بوقف هذا المقال ..

ثم قلت لها : إننى أملك أن أنشره فى غير الصحيفة الوفدية إذا حيل بينى وبين نشره فيها ..

وكان قد جاءنى فعلا من يعرض على العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة ، قال مكرم باشا : إننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك . . أما وأنت مصر على نشره فاقبل منا رجاء آخر . .

قلت : ما هو ؟ . .

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : إنني إذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا حاجة بي إلى ملام شديد . .

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهللأوى بك لا يقع لى فى طريق . .

وحدثت فى خلال ذلك جفوة بينى وبين المرحوم عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بينى وبينه

حين كنت أكتب فى صحيفة « الجهاد » . .

ثم زارنى يوما بعد طول القاطعة ، وهو يقول لى : لقد مررت بدارك وأنا فى مصر الجديدة

فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسى : فلتره إن كان هو لا يزورنا . . فما رأيك ؟ . .

قلت : إنه فضل لك سبقتنى به وعلى أن أشاركك فيه . .

وزرته فى دار البلاغ بعد يوم أو يومين ، فإذا بالهللأوى بك هناك . .

فكدت أهم بالرجوع . .

يبد أن الهللأوى كعادته هجام لا يتردد ، فعجذب يدى وبدأنى بالحديث .

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة أن واقعتى معه آخر ما يذكره فى تلك للمقابلة ، ولكنها على

عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله

يارجل أحب أن يكذب الله لى ثواب إخراجك من تلك الجماعة . . ولكنه فاتنى ، وأراك

خارجا منها على التسعين . . !

وبعد حديث متشعب دعانى والأستاذ عبد القادر إلى قضاء سهرة فى منزله . . فاعتذرت ،

وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود (باشا) رحمه الله . .

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة « روزاليوسف »

اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا إلى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا إليه مع السيدة

روزاليوسف والدكتور محمود عزمى ، وكانت فى الحقى من أمتع السهرات ، لأن الرجل

محدث ظريف لا يملأ المستمع إليه . .

ولقد كانت أحداثه فى تلك الليلة أكثر من أن تذكر . . إلا أننى أذكر من طرائف السهرة

أن السيدة روز اليوسف كانت تخاطب السيدة قريته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق

بينها وبين زوجها في السن . . ولم تل على ظنّها حتى نبهها إلى خطئها بنكتة من نكاته التي تناسب المقام !

نابعة من نوابغ عصره لا مراة . . كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التي أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار .

طه حسين

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم أن يستخفوا ولا يحفلوا ، لأنها ترجع إلى أسباب خاطئة في زمانها فضلا عن الأزمنة الحديثة ، وليس أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجوز وما لا يجوز ، لأنه دليل على كثرة القيود .

وأول ضروب التوقر التي يحق للمحدثين أن يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الأحياء وقصر التاريخ ، والتقدير على من فارقوا الحياة ، فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء أنهم كانوا يكبرون السلف ويحصرّون فيه العلم والمعرفة والأدب والخلق والشهرة . كأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة في وقت واحد : فلما حياة ونحمول وإما موت وشهرة ، ولا توسط بين الأمرين في تاريخ العلماء والأدباء وتقدير حظوظ العلم والأدب .

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الأحياء ، بل كثرت تراجم الأدباء لانفسهم بأقلامهم ونشرها في أبان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح لأن ما خف من جانب التوقر إنما يزيد الحياة ، ولأن اساعة التاريخ للأحياء تدل على رحابة الصدر والتفاهم على الطبيعة الإنسانية في جوانب كمالها ونقصها واطرائها وعيوبها ، ولأن العصر الذي يساغ فيه الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذي تتوافر فيه المزايا والمحسن ، فلا يضار المرء بالنقد لأنه يعرف حدود الطبيعة الإنسانية وما يبقى له بعد النقد من وجوه التحييد والترجيح .

ولست أنا من أعداء القديم حبا لعداوة القديم ، ولكنني أكره التخرج الكثير في غير طائل ، وأشايح زمني في هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجا في الثناء على الدكتور طه حسين

أو اغتيا به على ملأ من الناس .. ولهذا أجيبت دعوة « الهلال » حين دعاني إلى إجمال رأي في الصديق العالم الأديب ، وهو يعدني أو يندرفي بمثل هذا النصيب ، وقبلت الكتابة وأنا أرجو ألا أكون مغلوبا حين تتكشف الورقتان المطويتان ، إذ الكلام في كليتنا سر مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تشيع الغيبة وينجلي السر عن أحسن الحيلة والتخمين .

أنا ضامن أن الدكتور طه حسين سيقول إنني شاعر ، فليضمن الدكتور طه حسين إذن أن أقول فيه إنه كاتب ناتج في الأدب ، وخير ما نتجه كتابه « الأيام » و كتابه « في الصيف » وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ما جرى له في حياته ، فكان فيها مثلا في البساطة والثقة التي تعزف بصاحبها عن التماس التأثير المصطنع بالعمل والتجمل والطلاء والتزيق ، فالوصوف في هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكنني لم أطلع على شيء يصف به الدكتور ما لم يجر له أو يصف ما يخلقه من الشخص والحوادث في عالم الرواية . فما علة ذلك يا ترى ؟

أنا ضامن أن الصديق الأديب سيجد عيبا أو عيوباً في شعري يقيسها بمقياسه ويقدرها بمعياره ، فإذا ضمنت هذا فليضمن الصديق الأديب أن علل قلة الوصف المخلوق في كتاباته القصصية لعيب فيه ، هو قلة الخيال .. فهو يصف ما يعالجه من المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائضه أو مشابهاته ، والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التي ينذر من يحسنها ويشعر بالكفاية التي تأتي من الثقة والاطمئنان إلى صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستغناء .

* * *

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول أنه اطلع على الأدب العربي القديم اطلاعه الواسع الذي لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الإغريق واللاتين الأقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الأدباء الأوروبيين ولا سيما الفرنسيين ، كل أولئك خلقت أن يحب إليه الصحة والمتانة والقوة ويغض إليه الزيف والسخف والركاكة ، فهو يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين ، وينبذ ما يستطيع الحدودون من أصحاب الاطلاع القليل أو أصحاب الذوق السقيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا يتقيد إلا بما يرضاه .

وإلى هنا لا أظن أن الدكتور سيعترف لي بأقل من هذا القدر في ميزان الكتابة المثورة فأنا رابح على هذا التقدير .

ولا أظن كذلك أنه سيعترف لي في هذا الميزان بلا تعقيب ولا استدراك ، فلنسرع إذن إلى التعقيب والاستدراك ، ولا لوم ولا اجحاف .

فالدكتور صحيح الأصول في النقد ولكنه لا يوفق بين أصوله وطبيعته في كثير من الموضوعات ، وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب ، ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحيانا عن الصواب .

وعلة ذلك كما أسلفنا أن القاعدة والطبيعة عنده لا تتفقان فالطبيعة عنده لا تحتكم إلى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم إلى الرأي والاطلاع فيقع من هنا التباين والاختلاف .
أليس الدكتور يوصي بمبدأ « الشك » أو مذهب ديكرت ؟

بلى ! ولكنك حين تقرأه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين ، فلا يعجب - أكثر ما يعجب - ألا أشد الإعجاب ، أو اعجابا لا حد له ، ولا يقنع بما دون الإسراف وترديد كلمة الإسراف ، ولا يغضب الذين يتحدث عنهم إلا غضبا شديدا ، ولا يضيقون إلا أشد الضيق ولا يتكلمون إلا بصيغة المبالغة في معظم الأشياء .. ثم تنتقل من هذا إلى تشكيك يذكرك « بأن شاء الله » التي قالها جعًا حين ضاع المال .. فقال ضاع المال إن شاء الله ..

كأن الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جعًا من تلك الكلمة التي نسيها فضاع ماله ، فأنت تسمع منه : « أزعم أنني ضحكت » وقد أزعم .. وقد أتردد .. وقد أقول وقد لا أقول ، مع أن المرء لو أقسم جاهدا : « والله لأزعمن . والله لأترددن ، وبالله لأقولن » لما خرج بالقسم مع الزعم ، من دائرة الشكوك .

والقاعدة تستقر على اطراد إذا كانت هي والطبع على وفاق غير أنها عرضة للاختلاف إذا وقع بينها الخلاف ، ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة أن أصول النقد القرني واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الإنجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون . ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة أن النقد ليست له أصول مقررّة عند الناقد الفرد فضلا عن الأهم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وأن الناقد يستحسن أو يستهجن والمراجع إلى ذوقه وحده في استحسانه واستهجانه .

ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذى جعل الدكور ينكر الجديد إذا جاءه فى زى القديم ، أو هو الذى جعله يطالب الشعر الحديث بأمر لا يطالب بها فى حكم الطبيعة لأنه يجرى فى مطالبته على القياس .

وأقول للقلم : على رسلك ! إلى أين ؟ ما أحسبك إلا متوقعا الكثير من تعقيب الدكور واستدراكه فأنت تستوفى المثل وتأمين أن تريد .

ويقول القلم : ما أحسبني والدكور مغلوبين على كل حال فى هذه الصفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب .

نعم ، وحساب الدكور أو « رصيده » كما يقولون فى لغة المصارف كثير ، ففيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك .

وإذا قلت أن الدكور أمن استحسان السخيف من الأدب فاختلفك بعد ذلك فى زيادة القيمة التى يقوم بها الجيد أو نقصها إنما يغير الثمن ولا يغير جودة الشيء الثمين .

* * *

ومن حساب الدكور طه حسين أنه رجل جرىء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدى ، يستفيد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدى والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابى بعد دراسته للأساليب الأوربية ، فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل فى الكلام الأوربى ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة فى وقت واحد ، فهو يتحدث ولا ينسى أنه يكتب ، ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبه الذى اختاره أوفق الأساليب لذلك جميعا وأولها من نوعه فى اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لأسلوب آخر فى اللغات الأوربية .

ولو كانت كتابته حديثا محضا لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرير ، ولو كانت تقريراً محضاً أودرسا محضاً لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذى لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريراً أودرساً على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الأوربية ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الأزهرية ، ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها إلا ذلك الأسلوب الذى استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون ، وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ولأجل هذا الابتداع يغتفر ما فى كتابة الدكور من إسهاب وتكرار .

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملاً من لم يفدهم الرأي ولم تقنعهم المناقشة ، فرأوا أن العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كاتباً كبيراً يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتكتب » وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة ، وألفوا تعديد الأساليب وطرائق التعبير إلى غير انتهاء ، وذلك وحده فتح قدیر .

وقد جار نصيب القوة في الدكتور طه حسين على نصيب العمق كما أشرت إلى ذلك في نقدي لكتابه « في الصيف » .

وليس بالقليل بين أكبر الأدباء العالمين من هو قوى لا يتعمق ، فإني لأكتب هذا المقال بعد أن فرغت من قراءة مقال للشاعر الأسباني ميغيل دي أنامينو كته يمثل به رأى الأسبان بين سائر الآراء التي نشرتها مجلة « الشهر » الفرنسية عن فكرة هوجو لمضى خمسين سنة على وفاته ، فإذا هو يقول إن عمله في أسبانيا على الأقل كان واسعاً أكثر مما هو عميق ، وأرجو ألا يحسب الدكتور أنني أعود به إلى التفرقة بين السكسون واللاتين إذا أضفت إلى هذا أن شاعر الأمة الأسبانية اللاتينية يقرر أن « بيرون » والشعراء الإنجليز هم الذين وجهوا أدب تلك البلاد ، وليس فكور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون ، وأنه ليقدر ذلك في مجلة فرنسية تحتفل بهوجو في عام ذكره !

* * *

والآن وقد أبرأت ذمتي وأفضيت بمجمل الرأي مع الخيطة والمعادلة والتربص فإني على ما أرجح كاسب ولست بخاسر ، فإن اختلفت تقديري فسأتهم محرر الهلال بإفشاء السرواطلاع مناجزى على ما أعددت له قبل أن يتأهب لي بسلاحه ، والمناجزة يومئذ بيني وبين محرر الهلال .

من وحي أسوان

هبطت أسوان في هذا الشتاء ، وأنا أذكر قول دعبل الخزاعي :

هبطت محلاً يقصر البرق دونه ويعجز عنه الطيف أن يتجشما
وإن امراً أضحت مساقط رحله بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وذكرت كلام دعبل في هذه الرحلة خاصة لأننا قضينا ساعة من الوقت في القطار نتحدث عن السفر إلى الصعيد بطريق الهواء ، ومسافته لا تزيد في هذا الطريق على أربع ساعات ، وقد تنقص غدا إلى ساعتين ، ومسافة السفر بسكة الحديد تنقضي ما بين عشية اليوم وضحي الغد .. ثم ينتهي إلى حيث يستمع السامع إذا شاء إلى صوت المتحدث إليه من القاهرة والإسكندرية كما يتبادل الحديث مع جلسيه في ناديه يدير المفتاح في المدياع فيصغي إلى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكان في الأرض عن إبلاغ صوته إليه ، أما الأطياف فما أكثرها في دور الصور المتحركة الناطقة هناك ! إن منها لأطيافا تنتقل من هوليوود ، وأطيافا تنتقل من الجزيرة ، ولا تعجز عن التجشم ، ولا يبدو عليها أنها تعرف الأعياء كما عرفته أطياف دعبل يرحمها الله . تلك أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ، وما أكسل البروق ، والأطياف فيما مضى ، وما أسرع البروق والأطياف في هذا الزمان ، فلو عاش دعبل اليوم لتخى ساعة من تلك الأيام التي كان يتبرم بها قبل ألف عام ، ولنظر حوله فرأى أناسا يتسابقون إلى المكان الذي قصرت عنه أطيافه وبروقه ، ويغبطون أنفسهم على الحزم الذي ساقهم إلى هذا المقام في خاتمة المطاف .

وقصة دعبل في هجاء العالم كله معروفة ، أما قصته مع أسوان فخلاصتها أنه وفد مع أخيه ، عبد المطلب بن عبد الله أمير مصر يومئذ فولاه أسوان ، ثم بلغ المطلب هجاءه فأنفذ إليه كتاب الغزل مع مولى له وأوصاه أن ينتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فيترله ويصعد مكانه ، ففعل كما أوصاه !

ذكرت كلام دعبل وذكرته كلام أخ له من قبل في هذا المقام ، فهو أخوه في النسب يا ترى ؟ فهو أخوه في العربية ؟ فهو أخوه في الزمن الذي عاش فيه ؟ كلا ، ولكنه أخوه في صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه في قومه ولا عصره ، لأنه كان من أمة الرومان ، وكان عصره في القرن الأول للميلاد ، وهو الشاعر اللاتيني جوفنال Juvenal

من توافق المصادفات أن الشاعر اللاتيني كان كالشاعر العربي لا يسلم أحد من لسانه ، وأن هجاءه لفنان العصر « بارس » قذف به من روما إلى جزيرة أسوان ، لأن هذا الفنان الساحر كان حظيا عند العاهل دوميان !

قدم جوفنال إلى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية في ظاهر الأمر وأسيرا منغيا في حقيقته ، ولم يستطع أن يلعن دوميان فلن الجزيرة ومن فيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء

رآه في ولايته التي فرضت عليه ، فكذب وأقذع في شكواه ، وادعى على مصر والمصريين ما لم يدعه أحد سواه .

قال إن المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يدعون شيئا إلا عبّوه حتى الثوم ، وما كان المصريون يعبدون الثوم ولا البصل ، ولكنهم عرفوا خصائص هذا وذلك فانتفعوا بها في الغذاء وفي العلاج ، وجاء المحدثون في عصرنا هذا فأتخذوا من الثوم عصيرا سموه ماء الحياة . وقال أن المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من أخبار هذه الدعوة أن أناسا من أهل كوم أمبو الذين يعبدون التساح هجموا على رجل من أهل دنبرة قتل تمساحا فأكلوه ! والتساح ، واسمه هذا منقول من المصرية القديمة ، حيوان مقدس كالذئبة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس ورجيا ملعونا عند آخرين ، أما أن الذين يقدسونه يأكلون لحم قاتليه فتلك هي الفرية التي اتفق المؤرخون على تكذيبها ، وحسبها « اختراعة » من أفانين الهجاء ، جناها السخط على الشاعر الهجاء قبل أن يجنيها بشعره على أبناء كوم أمبو الاقدمين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين الساخطين أنهما يتفقان في الخاطر كما يتفقان في المزاج ، فكان جوفناك يعجب لمن يسأله عن سبب هجائه كأنما كان الهجاء عنده أصلا من الأصول التي لا تحتاج إلى سبب ، وكان دعبل ينظم القصيدة المقذعة ويسألونه عن قيلت فيه فيقول لهم إنها ستجد صاحبها لا محالة ، ويتفلسف فيمضى قائلا : « ان من يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفه شرف ولا كل من وصفته بالجلود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك » .

فهي طبيعة واحدة في الشعراء الهجائين مع تباعد الجنس والزمن ، ولا نظلمهم فنحكيم حين يجنون بالسخط على الحقيقة ، فما نحسبهم ظالمين في كل ما تقولوه على الناس ، وما نظنهم سخطوا بغير حق في كل مقال ، فلعل اصابهم الناس تنفيس عن بعض ما أصابهم منهم ، ولعلهم شقوا بالعالم كما شق العالم بهم ، ومن دلائل هذا الشقاء ، أن شاعرا هجاء في اللاتينية وشاعرا هجاء في العربية يرددان معنى واحدا عميقا في دلالة على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفناك في الالهجة الخامسة عشرة : « إن الطبيعة خلقت للإنسان الكريم قلبا رحيا فأودعت فيه يتابع الدموع ، وهي أكرم جانب في طوية الإنسان » .

ويقول ابن الرومي :

لم يخلق الدمع لأمري عبثا الله أدرى بلوعة الحزن

وقد تكون الحاجة إلى الهجاء كالحاجة إلى البكاء ، في طبائع الشعراء . فلنقل أن الشعراء
الهجائين ظالمون مظلومون ، وكلهم في هذه الخلقة سواء .

* * *

وأعود إلى دعبل فأقول إن الاعياء الذي ابتليت به أطيافه وبروقه ليست من فعل الزمن
وحده ، ولكنها من فعل الحية التي كانت تلاحقه حيث ذهب ، فلا هو استقر في صعيد مصر
ولا هو استقر في صعيد حيث كان .

وقبل أن ينشط العصر الحديث بأصداء الأثير وأطياف الستار الأبيض نظر الشعراء إلى
أسوان بغير هذه العين التي تستعجز البرق وتهم الطيف بالقصور : نظروا إليها بعين الرضا
فوجدوا فيها بغية الطلاب على اختلاف المقاصد والآراب ، كما قال جعفر بن ثعلب أبو الفضل
كمال الدين :

أسوان في الأرض نصف دائرة الخير فيها والشر قد جمعا
تصلح للناسك التقى إذا أقام والفاتك الخليع معا
وحسبها ما أراك مبدعة تروق إلا بأختها شفعا

وقد حبيت الحياة إلى أبنائها حتى قال فيها أحد هؤلاء الأبناء من الشعراء :

ما الشيب إلا نعمة مشكورة فاشكر عليه
ما الغبن إلا أن تموت وأنت لم تبلغ إليه

وقائل هذين البيتين هو الأديب إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، وهو من أسرة عريقة أمرها
في النبوغ عجب ، ومن هذه الأسرة خاله النابغان أحمد بن علي الملقب بالرشيدي ،
والحسن بن علي الملقب بالمهذب ، وكلاهما شاعر مشارك في العلوم يدل كلامه على علمه كما
قال الرشيدي :

ولن يستفيد البدر اكمال نوره من الشمس الا وهو في غاية البعد

أو كما قال المذهب في وصف ليلة :

لو لم تكن نهرا لما عامت به أبدا نجوم الحوت والسرطان
نادمت فيها الفرقدين كأنني دون الورى وجذيمة أخوان
وترفعت همى فما أرضى سوى شهب الدجى عوضا من الخلان

أو كما قال :

لا ترجُ ذا نقص وإن أصبحت من دونه في الرتبة الشمس
كيوان أعلى كوكب موضعا وهو إذا أنصفته نحس

وكانا لهذا مبلوين بالحساد والأضداد ، ولا سيما الرشيد الذى قيل عنه أنه تطلع إلى
الحلقة ، وكان يقول عن نفسه أنه خلق من نار ، فقال فيه ابن قادوس :

إن قلت من نار خلقك وفقت كل الناس فيها
قلنا صدقت فما الذى أطفاك حتى صرت فحما

وقال فيه شاعر يمني ، وكان الخليفة قد أوفده إلى اليمن داعيا وسماه علم المهتدين ، فحسده
أدباء اليمن وقال فيه أحدهم :

بعثت لنا علم المهتدين ولكنه علم أسود !

ولكنه كان لا ينظر إلى الحساد نظرة الأقران والأنداد ، وقال في أمير رجاه فخيبت مناه :

لئن خاب ظنى في رجائك بعدما توهمتُ إلى قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قللتني كل منة ملكت بها شكرى لدى كل موقف
لأنك قد حذرتني كل صاحب وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفي

عليهم رحمة الله جميعا من ظفر بالانصاف ومن فاته انصاف الناس وفاته هو أن ينصف
الناس ، فقد بقى بعدهم وحى أسوان ووحى الزمان كما كان ، وكذلك يقيان ! ..

في أرض الميعاد .

قصة المدينتين

قلت لبعض الإخوان الفلسطينيين أن الله أنعم عليكم بحرية الاختيار في أمر واحد ، ولعله قال حسن وبشارة صادقة بنعمة أخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيما يشغلكم اليوم وتؤثرونه على كل نعمة ، وهو نعمة الحرية القومية^(١) . .

إنكم تملكون اختيار الأجواء والأهوية في كل فصل من فصول السنة ، وترجعون إلى حسابكم أنتم لا إلى حساب الأفلاك والكواكب لتخرجوا من الصيف وتدخلوا في الشتاء . . فنحن في مصر ننتظر ثلاثة أشهر أو أربعة لنشيع الصيف ونستقبل الشتاء ، ولكنكم هنا لا تحتاجون إلى هذا الانتظار الطويل ، لأن ساعة واحدة تنقلكم من حرارة يوليو إلى برودة نوفمبر أو يناير في بعض الجهات ، وعندكم المكان الذي يتذكر فيه السار معاطفهم إذا طالت السهرة كما تطول أبدا في ليالي الربيع . . وعلى مسيرة ساعة منه مكان يتذكر فيه السائرون مظلاتهم في أبرد أيام الشتاء ، وقد أوحى مكان من هذه الأمكنة نغمة الفكاهة إلى قائد من قواد الحرب وهو في ميدان القتال ، فكتب منه اللورد اللنبي إلى وزارة الدفاع البريطانية بريقة يصف بها إحدى المعارك في أيام الحرب العالمية الماضية فقال : « حلقت طائراتنا هذا الصباح تحت سطح البحر الأبيض المتوسط بستائة قدم ، ولاحقت العدو عند أريحا من هذا الارتفاع ! »

وقد كان الحر هذا العام على أشده في شواطئ البحر الأبيض جميعها ، فلم نشعر بوطأته

(١) قام امام البيان الأستاذ عباس العقاد بهذه الرحلة في صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عاد منها كتب هذه القصة التي تناولت حالة فلسطين المدنية والسياسية والاجتماعية في ذلك الحين ، وقد أشار فيها إلى ما يجب على العرب عمله قبل أن تقع الكارثة .

الثقيلة حين تركنا الشواطئ وارتفعنا إلى هضاب رام الله أو «رام ايل» الفيحاء ، ولكنني لم أندم على قضاء معظم أيامي في فلسطين بين الشواطئ حيث تفرط الحرارة والرطوبة هذا العام على خلاف المؤلف في السنوات الماضية ، لأنني لمست فيها عن كثب ذلك الصراع العنيف الذي أحسبه أعجب صراع بين مدينتين متجاورتين في تاريخ المشرق أو في تاريخ العالم بأسره ، وهو الصراع بين مدينة يافا ومدينة تل أبيب . .

إن المدينتين متجاورتان تقيان في مكان واحد ، حتى لبدأ الشارع أحيانا في يافا وينتهي في تل أبيب ، ولكن السباق بينهما سباق بين أقدم ميناء على شواطئ بحر الروم وأحدث ميناء عليه . . أولعله أحدث ميناء على جميع شواطئ البحار .

كانت « يافا » علما مشهورا في التاريخ القديم قبل نيف وثلثين قرنا من الزمان . . وكانت « الإسكندرية » جنينا في الغيب يوم كان سوفكليس ويوريديس وغيرهما من شعراء اليونان يتغنون بحال « يافا » وينسجون خيوط القصيد حول عروسها الفاتنة « اندروميد » التي ربطها الأرباب إلى صخرة الشاطئ عقابا لها على رفض البناء بخطابها السماويين ! . . ثم مازالت حتى تجأ بها القدر من وحش البحر وهو راصد لها ليغتالها . . فأصبحت بعد ذلك كوكبا من كواكب السماء . .

ولا نحسب أن مدينة في الشرق الأدنى عرض لها من تعاقب السعود والنحوس ما عرض لمدينة « يافا » في جميع الدول وعلى جميع العهود . .

فعمرت وخربت مرات على أيدي البشر ، وعلى أيدي الزلازل والجوائح الطبيعية ، وصمدت للعراك بين الدول التي تداولتها من عهد تحتمس وسنحاريب ، إلى عهد العرب والصليبيين ، إلى هذا العهد الذي لا يحسب في تاريخها من العهود الرخية الميمونة ، وإن كنا نلرجو ألا يكون من أقسى العهود ، لأنها قد صمدت في تجاربها الكثيرة لما هو أقسى وأصرم من تجارب العهد الذي هي فيه الآن .

كانت « يافا » تعول في معيشتها على الزراعة وعلى الصناعة وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة السفن وحركة البيع والشراء . .

فأصبحت في جميع هذه الموارد ، ولاتزال مع هذا قائمة على قدميها تناضل نضالها المجيد في سبيل البقاء .

فالمواقع والثمرات التي عرفت باسمها من قديم الزمن لا تلقى اليوم في الأسواق القريبة ذلك

الترحيب الذى تعودت أن تلقاه إلى زمن غير بعيد .
والصناعة - وأهمها صناعة الجلود وصناعة الصابون - قد منيت بالمزاحمين الأقوياء في تل أبيب وما وراء تل أبيب من بلدان الشرق الأدنى .
أما الميناء فقد تحول عنه أكثر السفن إلى ميناء حيفا الذى تنهى إليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو إلى ميناء تل أبيب الذى بناه مجلسها البلدى ومد إلى جانبه ذلك « الكرنيش » الطويل محاكيا به كرنيش الإسكندرية في كل شيء . . حتى في « الأذرة الشامية » التى تشوى أو تسلق على زواياه ومنعطفاته ، ويقبل عليها المتزهون والمتترهات إلى أواخر الليل !
فهى اليوم تناسك على مضض ، أو على صبر أليم ، وحسبك من مدينة تخرج في مواردها جميعا ولا تزال ناهضة على قدميها في إباء المناضل المستميت .

* * *

إلى جانب هذه « الشيخة » الصبور فتاة ماهرة لعب تيه عليها بدلال الفتنة وجمال الشباب . .

تلك مدينة تل أبيب . .

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، إذا نظرنا إلى مولدها الصحيح في أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز السادسة والثلاثين إذا نظرنا إلى نشأتها في عهد الدولة العثمانية أيام كانت هذه الدولة تحب أن تستعين بالدعاية الإسرائيلية في مقاومة روسيا ودويلات البلقان ، ولم تكن نشأتها يومئذ نشأة مدينة ترخر بالسكان وتحتوى من الوافدين عشرات الألوف ، ولكنها كانت روضة للزهة وقضاء ساعات الأصيل في أيام الصيف والربيع ، ولهذا سميت « تل الربيع » حين غرسوها في أول عهدها بالظهور . .

كذلك نشأت منذ نيف وثلثين سنة على غير حذر من عواقبها السريعة لا من جانب الراعى ولا من جانب الرعية . .

أما اليوم فليست هى تلك الروضة البريئة التى يتنسم لديها أهل « يافا » نفحات الغروب من نسمات الربيع . .

ياله من صراع عجيب بين شيخه أمس وفتاة اليوم . .
وإنه لصراع ظالم إذ لم تترك فيه الندان منفردين على النحو الذى نراه ، لأن « يافا » تقف وحدها هناك ولا تقف « تل أبيب » وحدها في ميدانها . . بل تقف هناك من ورائها أمة موزعة

بين جميع أنحاء العالم تعينها بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ، وأخفى ما يعرفه المال من الأساليب ، وأقوى ما تسيطر عليه السياسة من الخدع والأحاييل . .
واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذى يستهدفون له ولا يجهلون أن الأساليب القديمة لن تجدى وحدها فى انتقاء هذه المنافسة التى تعتر بأحدث ما عرفه الناس من ضروب التعمير والاستغلال . .

فقد علمت من مدير المجلس البلدى بمدينة يافا أنهم يعدون العدة لبناء الكرنيش الذى يضارع كرنيش تل أبيب ، ولتنظيم الطرقات التى لا تزال بحاجة إلى التنظيم . .
وعلمت أنهم يؤلفون شركة كبيرة لبناء فندق فخم وناد حديث يستغنى بهما من يريد الاستغناء عن ارتياد الفنادق والأندية فى تل أبيب . .
وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قليل من كثير ينبغى الشروع فى إنجازه قبل أن يطول التفكير فيه . .

ولكن الحقيقة التى ينبغى أن تذكر فى هذا الصدد قبل كل حقيقة أخرى ، هى أن مدينة « يافا » لن تقوى على هذا الصراع العنيف على انفراد ، فلا بد لها من عون سريع كالعون الذى ترجع إليه غريمتها ليجرى الأمر بينهما على سنة الإنصاف ، ويرجى منه انتقاء الهزيمة فى هذا النضال .

الصهيونية والجامعة العربية

إذا عبرت « تل أبيب » رأيت فى أكثر أوقات النهار زحاما يملأ جوانب الطرق من اليمن والشمال ، وخيل إليك أن القوم منصرفون من محفل أو مقبلون على اجتماع فى منعطف الطريق . .

لأن حركة المرور لا تنقطع فى « تل أبيب » من ساعات الصباح الباكر إلى ما بعد العشاء . .

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لأنك لا ترى فيه أحدا يلوى على أحد ، ولا تكاد تلمح إنسانا يومئ إلى إنسان آخر بالتحية ، إلا فى العرض النادر الذى يرجع إلى محض الاتفاق . .

وأعجب من ذلك أنك تنظر إلى القوم فلا ترى على وجوههم ما يدل على السعادة :
 سعادة الظفر بالأمنية الروحية والمطلب التراثي القديم . . فلا تملك أن تسأل نفسك : ما هذا ؟
 أهؤلاء قوم يهبطون إلى أرض الميعاد بعد التفرق في جوانب الأرض مئات السنين ؟ .
 وتتخيل المسلمين في عرفات ، أو النصارى في معاهد المسيحية المقدسة ، فلا ترى على
 وجوه القوم في « تل أبيب » شيئاً من دلائل تلك الاخوة الروحانية التي تفيض على وجوه
 الحجاج من جميع الأديان ، ولا يقع في نفسك إلا أن القوم مسوقون إلى هذه الحجة
 الموعودة ، وأن الذي وجدوه هنالك غير الذي آمنوا به وصدقوه . .
 وما في الأمر من غرابة إذا رجعت إلى الواقع ، أوجعت إلى المحقول . .
 إذ كانت حجة اليهود إلى أرض الميعاد غير الحجة إلى عرفات أو إلى كنيسة القيامة أو ما
 شابهها من مناسك الديانة المسيحية . .
 فإن المسلمين والمسيحيين يقضون مناسك الحج ويعودون إلى أوطانهم التي نشأوا فيها وألفوا
 معالمها . .

أما اليهودى حين يهجر بلاده إلى الوطن القومي بفلسطين ، فإنه يترك وطنه الذي نشأ فيه
 وألف معالمه ليستتب نفسه في وطن جديد . . ولا يفعل ذلك إلا بدافع قوى من الأمل في
 تحسين الأحوال ، أو بدافع قوى من الحاسة الروحية . . فليس من شك في أن اليهودى الناجح
 في وطنه - الأوربي أو الأمريكى - لن يهجر ذلك الوطن ليستأنف الحياة زارعا أو بائعاً في
 ناحية يجهلها من أرض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه المحقق بأمل بعيد يمينه به الزعماء
 الصهيونيون ، بالغاً ما بلغ به الإيمان بعودة صهيون . . .
 ولندكر أن اليهودى قد ألفت العمل في التجارة والصفقات المالية ، ولم يألف العمل في
 الزراعة وتربية الدواجن وما إليها من أعمال الفلاحة ورعى الحيوان . . فهو لا يقدم على تبديل
 مألوفاته إلا إذا اتفق الشظف والتعصب والأمل في المجهول على إقناعه بالهجرة وإمداده
 بالبواعث النفسية التي تساعد على هذا التبديل . . وقلما تعمر هذه البواعث إلى زمن طويل . .
 والذي نعتقد أنه « النقلة الصهيونية » هي نقلة مصطنعة عارضة تخلقها تلك العوامل
 الموقوتة التي أشرنا إليها ، وينفخ فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية الزعماء واضطهاد
 الطوائف الإسرائيلية في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية . . ولولا هذان العاملان لبقيت
 الصهيونية حيث كانت أملاً من آمال الخيال .

ظهرت في الأيام الأخيرة مذكرات اللورد « هيرت صمويل » الذي كان أول مندوب سام على فلسطين من قبل الدولة البريطانية . .
وهو سياسى فيلسوف ينتمى إلى أسرة إسرائيلية كبيرة في البلاد الإنجليزية ، ويتكلم بكثير من الصراحة عن موقف زعماء اليهود من الدعوة الصهيونية عند ظهورها واشتدادها في أعقاب الحرب الماضية ، ومن هذه المذكرات يتبين لنا أن ثلاثة من عظماء اليهود الإنجليز الذين شاورتهم الحكومة البريطانية في إعلان الوطن القومى بفلسطين كانوا معارضين لإعلانه متشائمين من عقابه ، وعلى رأسهم « ادوين منتاجو » الذى كان وزيرا للهند في وزارة لويد جورج الائتلافية . .

فحاسة الشعوب الإسرائيلية للوطن القومى هي حاسة مصطنعة مبالغ فيها بغير مراء ، وأقل ما يقال فيها أنها ليست بالحاسة الاجتماعية التى تقاوم جميع المصاعب وتدلل جميع العقبات . .

وإنما قامت الحركة كلها على دعاية الزعماء ، وصادفت هذه الدعاية مصادفته من النجاح لأمرين لا مناص منها للمثابرة على نشاط الحركة واستمرارها . .
هذان الأمران هما : « أولا » سهولة الحصول على الوطن القومى في أعقاب الحرب الماضية . و « ثانيا » صعوبة اللقاه فى كثير من الأقطار الأوربية على اليهود ، لما كانوا يلقونه هناك من ضروب الحجر والاضطهاد . .

فإذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الأخيرة ، فصعب المقام فى الوطن القومى وسهل المقام فى الأقطار الأوربية بعد زوال الاضطهاد منها وفتح أبوابها لمشروعات التعمير وصفقات التجارة والمال ، فقد تنكشف الحركة المصطنعة عن حقيقتها الباقية فإذا هي أضعف من أن تقوى على الثبات إلى زمن طويل .

* * *

نعم إن الصهيونية تعتمد الآن - بعد القيام فى فلسطين زهاء ربع قرن - على عاملين آخرين غير تلك العوامل التى بعثت الحركة من مرقدها فى دفعتها الأولى . .
تعتمد الآن على الجيل الجديد الذى يولد وينشأ فى تل أبيب وما يحيط بها من المستعمرات الإسرائيلية .

وتعتمد كذلك على الصناعات الحديثة التى تأسست فى أيام الحرب الأخيرة على

الخصوص ، واتصلت معاملاتها بأقطار الشرق الأدنى وماجاورها من الأقطار .
لكن الجيل الجديد الذى يولد وينشأ فى تل أبيب خليط من الأوطان المختلفة لا يمتزج
بعضه ببعض فى زمن قريب .

أما الصناعات الحديثة فلها مزاحم أقوى من الصناعات الأوربية المتعطشة إلى الأسواق ،
ولها مزاحم أخرى من الصناعات الوطنية التى تعتمد على الشعور الوطنى والضرورات
الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذاك كايح آخر من حراسة الأسواق الشرقية حيثما تنبث إلى
أخطار الاحتكار ، وليست أزمات البطالة فيها بعد انتهاء الحرب بالأزمات التى يسهل علاجها
فى هذه الأوقات .

* * *

كنت أقول لإخواننا الفلسطينيين كلما سألتونى عن رأيى فى قضية بلادهم وقضية البلاد
العربية : إننى متفائل قوى التفاؤل عظيم الرجاء فى مصير البلاد الشرقية على الإجمال . .

ولكننى كنت أشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذى أعنيه وأعقد عليه عظيم الرجاء . .
فالتفاؤل المحمود هو التفاؤل الذى يقتنعك بأن العمل ممكن وأنه مع إمكانه مفيد . .
ومتى آمنت بذلك فعليك أن تعمل وأن تحقق الفائدة التى ترجوها وإن كلفك العمل أقل
الجهود . .

فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به إلى ما وراء طاقة الجهود البشرية . .
ولكن لا فائدة كذلك من تهوين هذا الخطر إذا لم يقترن تهوينه بالشروع فى العمل
المفيد . .

والجامعة العربية خليقة أن تنتهز فرصة العمل فى هذه الآونة لأنها فرصة سانحة بعد الحرب
الأخيرة وفى مفتتح الحياة الجديدة التى تستعد لها الأقطار الأوربية ، ممن كانت على صلة
بالمسألة الصهيونية أو باضطهاد اليهود ، وقد تفتح أبوابها غدا لمن يؤثرون العودة إليها من أرض
الميعاد إذا عز عليهم الوفاء بما وعدهم به الدعاة والزعماء . .

ولا غنى للبلاد العربية على أية حال - لخدمة نفسها لا لخدمة القضية الفلسطينية وكفى -
من تنظيم الصناعات الحديثة ، وتنظيم الأسواق فى وجه للمعاملات الطارئة عليها ، ومن منع
الاحتكار فى أيدي فريق من الناس كائنا ما كان.

وإذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقد استقامت على الطريق السوى الذى يفضى بها إلى النجاح فى جميع قضاياها ، ومنها قضية فلسطين .

الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطينى قريب من المجتمع المصرى فى تكوينه وفى معظم آدابه وعاداته ، ولا يختلفان إلا فى بعض التقاليد التى ترجع أولا إلى امتزاج شعائر الأسرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من أقدم العصور ، وترجع ثانيا إلى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية . فمصر تنقسم إلى عاصمة وقرية ، وفلسطين تنقسم إلى حاضرة وبادية ، وإن كانت باديها أخصب من بادية الصحراء وأقرب إلى العمار . .

ولا يزال سلطان البادية ظاهرا فى تقاليد الأسرة الفلسطينية سواء منها الإسلامية أو المسيحية . .

والبادية كما لا يخفى تشدد فى المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم ، وأظهر ما تبدو عليه هذه المحافظة الاجتماعية فى حجاب المرأة ونظام الحياة الزوجية . . فإن بنات الأسر فى حواضر فلسطين متعلقات على نصيب وافر من الثقافة العصرية ، ولا يندر بينهن من تحسن لغة أولتتين من اللغات الحديثة ، ولكنهن قليلات الظهور فى الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدة منهن أو الفتاة على السفر فى الطريق إلا أن تكون من أسرة قوية السلطان مهية الجانب تحمىها بسلطانها وهيبتها أن تتعرض للأذى والمهانة من بعض من ينكرون السفر ، وهم كثيرون . . فإذا سافرت السيدة أو الفتاة من البيوت المتوسطة التى لا تخشى شوكتها فقد يصيبها ما يسوءها فى طريقها ، ولا يتقدم أحد لحمايتها ، لأنها تستحق ما تلقاه فى رأى السابلة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها . .

ونحن لا نتمنى لفلسطين ذلك الشطط الذى تمادى فيه بعض السافرات فى بعض الأقطار الشرقية . . ولكننا نعتقد أن تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقيلة نافعان للمجتمع الفلسطينى فى مرحلته الحاضرة ، ولعلها نافعان له جد النفع فى مكافحة « تل أبيب » ومغرياتها « لأن الفتى الذى يصحب خطيبته أو زوجته فى رياضته اليومية يشعر بالأمانة الزوجية

ماثلة أمام عينيه في بيته وفي طريقه ، وتغنيه هذه الصحبة المشروعة عن تلك الصحبة الموبقة التي تذهله عن كرامته وماله وقضية بلاده .

ولسلطان البادية القوى أثر في السياسة الفلسطينية ، لأن الزعماء هناك هم - بطبيعة تكوين المجتمع - رؤساء العشائر وعمداء البيوت العريقة في الحواضر ، ولهم من النفوذ في السياسة بمقدار ما لهم من الاشياخ والأتباع والأقرباء وأنصار العصبية ، وهم الذين نهضوا بأعباء الحركة في أشدها ، وتعرضوا لمخاطر الموت والابعاد من أجلها .

وقد أضيف إلى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من نفوذ الدين أو نفوذ الرئاسة الرسمية ، بل أضيف إليه ما تقضى به أطوار العصر من رعاية البرامج والمبادئ التي تتعلق بها آمال الشعوب في الزمن الحديث .

ولا تخلو فلسطين من ذلك القلق الذي يخامر نفوس الشباب ويعجلهم على الصبر والانتظار ، ومطاوله الأحوال التي درجت عليها السياسة في أيدي الرؤساء والعمداء . . . وقد سألني بعضهم سؤالاً صريحاً في حفل حاشد عن الزعامة السياسية والبرامج الوطنية فقال موجهاً إلى الخطاب : ألا ترى أن ينفرد الشباب بقيادة الحركة القومية دون الرؤساء والعمداء ؟ . .

فلمحت على وجوه الحاضرين أن صاحب السؤال ينوب في الحقيقة عن الأكثرين منهم ، وأنه يعبر عن خاطر يساورهم ويدور عليه النقاش الطويل فيما بينهم ، قلت : إن الشباب يستطيع أن يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على إغفاله ، ولا يزال للشباب عمل كثير يضطلع به في خدمة وطنه قبل أن يتصدى لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه إذا رزق الألفية النادرة التي ترشحه لقيادة قومه فإن هذه الهبة الفطرية لن تحق على أحد ، ولن تحول الحوائل دونه ودون القيادة التي يستحقها ، إذ لا حاجة به يومئذ إلى التوسل والرجاء في طلب الاعتراف له بالكفاءة الممتازة والزعامة الموهوبة ، لأن الكفاءة الممتازة تفرض مكانتها على من يعرفها ومن ينكرها على السواء . .

* * *

والفلسطيني وسط بين المصري وبين السوري واللبناني في الإقدام على الهجرة والتمرس بالمحاولات الاقتصادية في بلاده أو في البلاد الأجنبية . . فهو لا يهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون . .

وهو أجراً على اتفاق المال من أبناء الأمم التي تعودت المحاسبة على الموارد والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين الأرباح والخسائر ، منذ عهد بعيد . .
ولم يزل إلى زمن قريب يعول على تربية الماشية والزراعة ، ويعول معها أحياناً على التجارة الدورية التي تجري في مواسمها على سنة الزراعة والثروة الطبيعية . .
وفي طبعه استقلال البدوى الذى تثقل عليه رياضة الحياة المدنية وتعتنه بما فيها من الموانع والقيود . .

وقد قال لى رجل من أذكاء السوريين وذوى الغيرة منهم على القضية الفلسطينية : إن إخواننا هنا يتعبون كثيراً مع جماعة الصهيونية ، لأنها تحاربهم بسلاح لم يتعودوه .
قال ذلك وقد مررنا بنخص من القش على شاطئ البحر في جوار « يافا » يملكه رجل يهودى يطهو فيه الطعام لمن يستريحون لديه في أثناء الطريق ، أولئك يقصصونه في طلب التزهة والاستجمام وقضاء فترة من الوقت في ضواحي الخلاء . .

قال الدمشقي الأريب : لو نزل رجل من بلدنا هنا يوماً واحداً وتناول هنا وجبة واحدة ، لما فارق المكان قبل أن يعيد حسبه في ذهنه ويقدر نفقات المكان ونفقات الطعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الأيام . . .

فإذا أعجبه الحال وراقه المكسب ، فما هى إلا أيام معدودات حتى يرى اليهودى خصماً قائماً إلى جانب خصه يبيع الطعام الذى يبيعه ويبيئ المائدة التي يبيئها ، ويتزل عن بعض ربحه في أيامه الأولى ليحول قصاد الخنص القديم إلى الخنص الجديد . .
قال صاحبى الدمشقي : فليت الصهيونية تبلى في هذه الديار بمن ينافسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح . .

قلت : إن الدرس غير عسير على من يرى الصراع من حوله ويعلم عاقبة التعاون فيه . .

* * *

وأحسب أن المصريين والفلسطينيين في مجال الهجرة فرسا رهاناً ، أوفارسان متقاربان . .
فن فلسطين مهاجرون في مصر ، ومن مصر مهاجرون في فلسطين ، وقد يعيش الفلسطينى في مصر زمناً ثم يعود إلى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب بالانشاصى والبليسى والطنطاوى كما ترى بيتنا من يلقب بالغزى والرملى والعكاوى ، وكأنهم يتسابقون أو يتلاحقون في حلبة

واحدة لا يخرجون منها ولا يسرعون إلى تبديل معالمها ، سواء في التقاليد الاجتماعية أو معيشة البيوت . . حتى « الملوخية » وهي صحيفة مصرية لا يتقنها الطهاة في غير وادى النيل - قد أكلناها في بيت أبي خضرة كما تؤكل على أفخر موائدنا التي تعتر بتقديمها في بواكيرها أو معقباتها . . لأن أبناء هذا البيت يحافظون على تراثهم القديم منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه . .

بين مصر وفلسطين جوار هو أقرب من جوار المكان لأنه كذلك جوار التاريخ وجوار السكان .

مصر والقضية العربية

سألني فنان صهيوني : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب ؟
فاستغربت سؤاله ، ولم أكنمه أنه سؤال غريب ، فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه ؟
قلت : وجه الغرابة فيه أنك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومي في فلسطين وتحسبه من الأمور الطبيعية التي لا تحتل السؤال والاستفسار ، ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون إلى هذا الاهتمام . . نعم مضطرون إليه ولو لم ينظروا إلى المسألة من الوجهة الشعورية أو العلاقة التاريخية الروحية ، لأن استقرار السلام في الشرق الأدنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم أن يتداركوا أخطاره قبل وقوعها بشيء من الحيلة والمعاونة ، ولا استقرار للسلام في الشرق الأدنى مع تهديد أمة كاملة في استقلالها ومصالحها ومعالم وجودها .

فلاح عليه أنه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب . .
وكان غيره أصرح منه في السؤال - وهو كاتب في صحيفة « فلسطين بوست » الإنجليزية يرسل بعض الشركات البرقية - فسألني : هل تريد مصر أن تسيطر على سياسة البلاد العربية ؟ . .

قلت : كلا . . ولوجاءتها السيطرة طيبة هينة بغير سعى منها ، لان الأساس الذي قامت عليه الجامعة العربية هو استقلال كل أمة من أمم العرب التي تشترك فيها ، وبذل المجهود

المستطاع لتمكين الأمم الخاضعة للحكم الأجنبي من بلوغ استقلالها ، وليست لمصر مصلحة في التوسع أو زيادة التبعات والأعباء السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة في التعاون بينها وبين الأمم التي تقاربها في الموقع الجغرافي والتراث التاريخي والوجهة السياسية . .

* * *

إن الشعوذة السياسية وحدها هي التي تسول لبعض الأدعياء أن يتحلوا لأنفسهم صفة الزعامة على جميع الأمم العربية ، كما يتحلون لأنفسهم صفة الزعامة المطلقة على الأمة المصرية . .

ولما يخدم أولئك الأدعياء أنفسهم بتلك الشعوذة البغيضة إلى كل من يطلب الحرية وكل من يؤمن في الشرق بمبادئ الديمقراطية ، لأنها تضير القضية المصرية كما تضير القضية العربية ، ولا تنهى إلى فائدة مرجوة لغير أولئك الأدعياء فيما يتخلون من الأوهام والأحلام.. إنهم يتوهمون أنهم يروجون في سوق المناصب على قدر البضائع التي يعلنون عنها ويدخلون في روع الأجانب أنهم قادرون على تسليمها . .

فهم يبيعون ويشتررون في قضية مصر وقضية العرب على السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون المحمود إلى حدود الزعامة المنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات . ونحمد الله على أن الوقائع قد أفهمت من يفهم ومن لا يفهم أن مصر تبغض هذا النوع من الشعوذة وتشاء به وتأباه ، وأنها تعاف مزاج الدعاة الذين يدقون الطبول وينفخون الأبواق حول أنفسهم ، ولا يترهون مطلباً من المطالب عن صغائر التهريج والتهيج ، لأنهم لا يعيشون بغير أجراس المزاد في سوق المساومات .

ليس في ساسة مصر اليوم - بحمد الله من ينطوى على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا الزعامة الأبدية على هذا الشعب أو ذاك ، ولكنهم يعملون لأنهم يعرفون الواجب ولا يتجاوزون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الإخوان أو الأعوان ، ولا يخدمونها - ولا يستطيعون أن يخدموها - من طريق الضجة الخاوية التي يعلن بها المعلنون عن تسليم البضاعة في أسواق المطاعم الأجنبية .

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل أمة من الأمم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره . .

وينبغي أن يفهم الاستقلال هنا على أوسع معانيه أو على جميع معانيه ، فهو يشمل الاستقلال الأدبي كما يشمل الاستقلال في عرف العلاقات الدولية ..

فلا افتيات فيه على حق أمة من الأمم في الاعتماد على نفسها والتوفر على جهودها ، وليس من شأنه أن يحمل أحداً على التواكل ولا أن يحمل أحداً على تجاوز الحدود ..

لكل أمة عربية أن تنتظر المعونة من أخواتها وجاراتها ..

ذلك حق الأخ على أخيه والجار على جاره ..

وعلى كل أمة عربية أن تعمل ما في طاقتها لتحقيق مطالبها ..

ذلك واجب الإنسان على نفسه بل واجبه لنفسه ..

وقوام الأمر بين الجميع هو استقلال في الرأي والعمل وتعاون بين إخوان مستقلين في الآراء والأعمال ..

فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا إعفاء من واجب ولا تجاوز في الحقوق ..

* * *

ومن دواعي الغبطة بأنني رأيت دلائل الشعور بهذه التبعة العظيمة - على هذا الأساس القويم - في كل من لقيت من ذوي الرأي والمكانة بين خاصة وأبناء الأمم العربية ..

فهم - مع إيمانهم بجدوى هذا التعاون الأخوي في تخفيف الأعباء ومضاعفة القدرة على النجاح - يعتقدون أنه قد ضاعف شعورهم بالتبعة وتقديرهم للواجب ورعايتهم للحقوق ، لأن عمل أمة تسأل عنه أمم ، وكلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على كل فريق .

قلت للكاتب الصهيوني : إن مصر لا تريد السيطرة على الأمم العربية ولوجاءتها السيطرة بغير سعي منها ..

وأحسبني أردد كل رأي رشيد في الأقطار العربية حين أقول إن الضجة الحائرة التي سولت لبعض الظنون أن تهجس فيها هذه الهاجسة قد ذهبت إلى غير رجعة ، وأن العمل الوقور هو العمل الوحيد الذي يليق بخدام هذه القضية الكبرى ، وأنه لا يستقيم على أساس كما يستقيم على أساس التعاون الأخوي في حدود الاستقلال المرعى ، ومرحباً بآمال الأمم العربية في الأمة المصرية ولوطالبها بالحصة الكبرى من المعونة وتوجهت إليها بالجانب الأكبر من الرجاء ..

فحبذا مضاعفة الواجب كلما تضاعفت الطاقة ، وحبذا أن تزداد القدرة ويزداد معها التوفيق إلى تحقيق الآمال .

دين وفلسفة

الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شيء ، فالإنسان له « وعى » يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يتخلو من « وعى » يقينى بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ، لأنه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه .
والوعى والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعى أعم من العقل في إدراكه لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا .

ونحن نخطئ فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وأنه لا يعمل عمله الشامل إلا على طريقة التقسيم المنطقى وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج وإثباتها بالبراهين على النحو المعروف .

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم .. وهو فى وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا ، ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه فى عرف المنطقيين .. وهو فى وجوده هذا يقول : « نعم » ويقول « لا » ويحتمل له أن يقولها بمجملتين فى المسائل المجملة على الخصوص . وقد يخطئ القول فى بعض الأشياء ولا يضمن الإصابة فى كل شيء ، ولكن الخطأ ينشأ العصمة الكاملة ولا ينشأ الوجود ، فقد يكون العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا فى وجوده ولا فى صلاحه للتفكير ، لأن التقسيم المنطقى « يخطئ » أيضا كما يخطئ العقل المجمل فى أحكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقى غير موجود أو غير صالح للتفكير .

فإذا قالت البداة العقلية : « نعم .. هناك اله » فهذا القول له قيمة فى النظر الإنسانى

لا نقل عن قيمة المنطق والقياس ، لأنها قيمة العقل الحى الذى لا يرجع المنطق والقياس إلى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده ، وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب إلى الإيمان وأقرب إلى قوله « نعم » فى البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقى أن يقول « لا » قاطعة مانعة فى هذا الموضوع .

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لإثبات وجود الله بالحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها فى موضعها حين نقرر فى شأنها هذه الحقيقة التى يقل فيها التشكك والخلاف : وهى أن البراهين جميعا لا تغنى عن الوعى الكوفى ، وأن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شئ لا ينحصر فى عقل إنسان ولا فى دليل يتمخض عنه عقل الإنسان ، وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين ، وهما نوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المنكرون ، فإذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناؤه وأدى القياس رسالته التى يستطيعها فى هذا المجال ، وهى فى الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر - فضلا عن الاقتناع بالبداهة - كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين .

ولا يخفى أن قاعدة الإثبات والنفى فى مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل ، فليس للعقل البشرى خصومة فى الإثبات ولا خصومة فى الإنكار . . وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الإنكار كله فى البحث عن حقيقة الوجود . ونحن لا نحصى هنا جميع البراهين التى استدلت بها الفلاسفة على وجود الله فإنها كثيرة يشابه بعضها بعضاً فى القواعد وإن اختلفت قليلا فى التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفى منها بأشيعها وأجمعها وأقربها إلى التواتر والقبول وهى : برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الأخلاق أو وازع الضمير .

محمد الإنسان

من الأقوال المتواترة بين كثير من مؤرخى المسيحية ، أنها انتشرت على يد بولس الرسول ، ولو لم يعرف المسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا فى الغرب باسم « البولسيين » نسبة إلى « بولس » الذى كان يدعى قبل ذلك باسم شاول .

ويحمل الاستطراد بعض مؤرخي الغرب إلى التماس الشبه بين انتشار المسيحية وانتشار الإسلام في خصلة كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويزيدهم ولعا بهذا التشبيه أن الفاروق كان ، أيام جاهليته ، أشد أبناء قريش إيذاء للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل إيمانه برسالة السيد المسيح ، فانه آمن بها وهو يتجرد لاضطهاد اتباعها في حملة من حملاته على الشام .

وهذه مشابهة مغرية بالمقارنة في أكثر ظواهرها وأشكالها ولكنها تنقضي عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب المقارنات بين الأديان ، وتلك هي الفرق بين أثر الدعوة وأثر الداعي بالنسبة إلى الرجلين ، فإن بولس الرسول لم يلق السيد المسيح ولم يعاشره على التحقيق ، ولكن الفاروق كان هو نفسه غرسا من غروس محمد عليه السلام ، وكان في كل ما عمله بعد إسلامه طالبا مجتهدا على يد معلم محبوب .

واجتماع الرجال الأفذاذ من قبيل ابن الخطاب هو مقياس العظمة الإنسانية في نبي الإسلام صلوات الله عليه ، فلم يحدث قط في تواريخ الدعوات الدينية ، كتابية كانت أو غير كتابية ، ان اجتمع حول داع من دعائها رهط من أفذاذ الرجال يدينون « لشخص » ذلك الداعي بالإجلال والمحبة ويعترفون له بالتفوق والرجحان راضين مغتبطين كما اجتمع الفاروق وأقرانه حول نبي الإسلام ، وقد ظل الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوبة قول النبي له « يا أخى » مرة ونداءه له بكنته « أبى حفص » مرة أخرى ، وظل غيره من الصحابة يحتفظون بكل أثر « شخصى » ظفروا به في أيام صحبتهم له سنوات بعد سنوات . .

* * *

كان للأنبياء والدعاة أصحاب كثيرون أو قليلون ، ولكنهم لم يذكروا بين عداد العاملين بين أبطال التاريخ ، ولم يجتمع قط في صحبة طويلة للأنبياء أمثال هؤلاء الأصحاب الذين حفوا بنى الإسلام ، ولا تحصيلهم في هذا المقام ولكننا نذكر منهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن جيل ومعاوية بن العاص ، ومعاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو ، وغيرهم من السابقين المتلاحقين في هذا الطراز ، كل منهم أمة في رجل أوفائد على جيش ، أو مؤسس لدولة ، أو سيد بين علية القوم يؤتم به ويهاب ، وكلهم يلحظ في عشرته لنيبه أنه يعتز برئاسته وولائه ، فضلا عن إيمانه به إيمان المهتدى بهاديه المصدق الأمين .

ذلك مقياس للعظمة الإنسانية لم يتحقق قط لعظم من عظماء بنى الإنسان ، ولا استثناء لأحد من العظماء الدينين كان أو من العظماء الديويين .
فالصدقة العالية أكبر برهان من براهين العظمة المحمدية في صورتها الإنسانية ، مع صورتها القدسية الإلهية .
ومحمد الصديق هو أعظم العظماء بين بنى الإنسان بمقياس هذه « الظاهرة » النفسية الفذة في تواريخ العظماء .

* * *

ولسنا نقول غير الحقيقة التي تثبت كل الثبوت بمعيار النفوس ، إذا قلنا أن محمدا الزوج أعظم نفسا وخلقا من محمد الصديق .
إن الأراذل من المخترفين بالتبشير الديني قد ابتدلوا كل أدب من آداب الدين ، وكل خلق من أخلاق الكرام ، حين اتخذوا من زواج محمد عليه السلام مذمة يعيونه بها ، حاشاه ، بين رسل الله بل يعيونه بها بين عامة الخلق من عباد الله .
ولو كان محمد كما أرادوا أن يكون طالب متعة في زواجه ، لكان على النقيض مما كان - في حريمه عشرات من أجمل العقائل والجوارى ، من بيوت العرب ومن سبايا العجم والروم ، يرفلن في الحرير ويتحلين بالذهب والجوهر ، ويأكلن على سباط كسماط قيصر وكسرى وبلقيس .

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهلة والشيخة والتي مات عنها زوجها والتي عز عليها الزواج من غيره ، ولم تكن بين هؤلاء غير فتاة عذراء واحدة هي بنت صديقه أبي بكر الصديق ، وكن جميعا يشكين قلة المؤنة وشظف العيش ويخبرن بين الطلاق وبين البقاء على هذه الحال : (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) .

وإذا بحثنا عن بواعث الزواج النبوي كلها لم نجد بينها غير باعئين اثنين كان لهما الأثر الأول والأخير في اختياره عليه السلام لكل زوجة من زوجاته : وهما مصلحة الدعوة والمرءة العالية .

فقد بنى بثلاث من زوجاته لأنهن بنات أصحابه الأوائل : أبي بكر وعمر وعثمان ، وليس

للأخوة في الله من سند إنسانى في بلاد العرب أوثق من الأخوة في النسب والمصاهرة وأولى زوجاته خديجة رضى الله عنها كانت في نحو الأربعين يوم بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين ولم يكن وقاؤه لها وفاء الحس والمتعة ، لأنه فضلها على أصغر زوجاته وأحبهن إليه : عائشة بنت الصديق ، عليها الرضوان . .

وكانت أم سلمة مسنة حين قتل زوجها عبد الله المخزومى في واقعة أحد ، ورملة بنت أبي سفيان تركت أباهما لتسلم وتركت وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عائل وهى في الحبشة ، فطلبها النبي من النجاشى وتزوج بها لكى لا ترد وهى عائدة إلى أهلها ، وصيفة الإسرائيلية خيرت بين العودة إلى قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير السبايا . . فاختارت زواجها بالنبي عليه السلام .

وأكرم ما كان من بواعث المروءة في اختيار زوجات النبي قد كان ذلك الزواج الذى خاض المبشرون في حديثه ، وزعموه عشقا غلبه على نفسه الكريمة ، حاشاه ، فطلقها من فثاه زيد ليضمها إليه .

فقد كانت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومته عليه السلام رآها منذ طفولتها إلى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريات اللآنى يفاجأ برؤيتهن لأول مرة في بيوت أزواجهن ، وإنما كان كرم النبي هو الذى حجب إليه أن يرفع من شأن الأسير الغريب فيجعله أهلا لمصاهرته ومصاهرة بنى هاشم من أبناء عمومته ، وقد شق على الفتاة أن تسكن إلى العيش مع رجل من غير أكفائها ، ثم شق على زيد أن يواجه النبي بتسريح بنت عمته بعد ما كرمه بمصاهرته ، فكان كرم النبي باعته على إعفاء الزوج من ضنك هذه العشرة وإعفاء الزوجة من إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون غنثارين إلى مطلقات الأرقاء ، وتمت القدوة كما أرادها الإنسان بمروءته ، وأرادها النبي بتشريف الأسير وجبر الخاطر الكبير .

وإن الإنسان - حق الإنسان - ليعرف من أمر محمد في اختيار زوجاته جانباً من المروءة المثلّى في صاحب الدعوة الإلهية ينبئ عن تلك العظمة الإنسانية التى تمثلت في مكانة الرجل بين صفوة الأبطال من عظماء الرجال ، فهو كذلك لأنه إنسان عظيم ، غاية ما ترتقى إليه شمائل الرجل العظيم .

ولقد كانت معاملة محمد لنسائه صفحة أخرى من صفحات تلك المروءة التى يسموها - إنساناً عظيماً - إلى شرف الرسالة الإلهية ، فن وصاياه ، نبيا ، إن خير الناس خيرهم لنسائهم ،

ومن رعايته لمن ، إنسانا ، قد ضرب للرجال مثلا يعلو على غاية الغايات في العمل بتلك الوصية ، فما من رجل مضت له في العشرة الزوجية سنوات طوال لم تقلت من لسانه الكلمة النائية ولم تبد على وجهه اللمة القاسية ، ولم يلق امرأته بحالة من الشدة تبدر من الرجل للمرأة كما تبدر من المرأة للرجل ، وهذه سيرة محمد مفصلة مطولة لم يهمل رواها خبرا من أخبارها ولم يسقطوا حديثا من أحاديثها التي تؤثر بالنقل والرواية ، فما انتقلت إلينا منها كلمة زجر ولا نظرة سخط ولا لحة تأنيب أو زراية ولم يكن له في حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف العتاب في صمت أو السؤال في غير إقبال ، وتلك شيمة من شيم الرقق الإنساني تتلاقى عندها طبائع الملائكة وطبائع البشر من أبناء آدم وحواء .

وليس هذا من صنيع رجل لا يعرف الغضب ، فليس من لا يعرف الغضب بإنسان ! ولكنها قدرة على النفس حيث تحمد القدرة في موضعها ، وهي أحمد ما تكون من رجل إذا غضب حق الغضب استطاع أن يوقع بمن يغضب عليه ما ليس في طاقة الأقوياء به الضعفاء ، ولقد غضب النبي على أناس خدعوه وكفروا نعمته وقتلوا الآمنين من رجاله واستدبروهم ليلموهم الدين كما زعموا فغدروا بهم وانتزعوا منهم ما أحسنوا به إليهم ، فغضب الإنسان محمد ، والنبي محمد ، حيث يعاب الرضا والهواة .

غضب على الغدر والشر والحداد والغلظة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير أهل للرحمة ، ولم يجرمهم الرحمة وهي ليست عنده أوليست من أئرم شأله ، بل حرمهم رحمته ورحمة الله لأن الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف في الإنسان ، فكان غضبه سواء لرفقه ورحمته في خير ما يحمد من إنسان .

ولقد يكون الضعف الإنساني خير مقياس للعظمة الإنسانية في أرفع مراتبها ، بل هو في الواقع أصدق قياسا للعظمة الحققة من منازلة الأبطال الأشداء من الرجال فان من يغلب بقدرة تضرعها وتضارعها عظيم ، ولكن القدرة التي هي أعظم من قدرة القاهر الغلاب قدرة تغلب نفسها باختيارها لترقى بالضعيف الذي لا طاقة له بقهرها ولا غنى له عن رفقها ولا أمل له في النصفة من غيرها ، ولا حصر لما أثر النبي التي شمل بها الضعفاء في عفوان قوته ونصره ، ولكننا قد نحصرها كلها إذا ذكرنا منها تلك المروءة التي حببت إليه أن يجبر خاطر الأسير الضعيف المنقطع عن أهله ، فيرفعه إلى مقام مصارته في أقرب الناس إليه ، وتلك آية من آيات « الإنسانية » الحققة أروع ما فيها أن تأتي من النبي العربي القرشي الهاشمي وليس أحق

منه باعتزاز النسب في مقام المصاهرة .
 إن محمداً الصديق لإنسان في الذروة من عظمة الإنسانية .
 وإن محمداً رب الأسرة لفي الذروة من رفق الإنسانية .
 وإن محمداً المنتقم لفي الذروة من بأس الإنسانية وعدل الإنسانية والرحمة بالإنسانية .
 إن محمداً السيد لفي الذروة من بطولة الإنسانية .
 وإن محمداً الأب قد عرف ضعف الإنسان فبكى الإنسان ، فكان في موضع ضعفه
 نعم الأب الإنسان ، ونعم النبي المرسل في آن .
 بكى وهو يحمل جثة وليده الصغير إبراهيم على يديه ، ونظر إلى الجبل فقال : « يا جبل !
 لو كان بك مثل ما بي لهدك .
 ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون » .
 وكان النبي الصادق الأمين أقرب ما يكون يومئذ من الإنسان الباكي الحزين ، فلما
 انكسفت الشمس وقيل أنها انكسفت لموت إبراهيم أبت النبوة على الأب أن يبلغ بالنبوة هذا
 المبلغ في سورة الوجد عليها ، فقال الأب الذي انكسفت الشمس حقاً في عينيه : « كلا إن
 الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا حياته » .
 بهذا الحزن الصادق وهذا الصديق الحزين استحق الإنسان محمد بمشيئة الله أن يصبح
 رسوله إلى الناس : و (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ، كما قال عز من قال .
 ومحمد « الإنسان » هو الذي استحق كرامة النبوة فصنع في تاريخ الكون ما لم يصنعه قط
 إنسان سواه : أربعائة ألف ألف من بني الإنسان هم اليوم في مشارق الأرض ومغاربها يقرون
 اسمه باسم خالق الأرض والسماء كل صباح ومساء : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ليلة القدر

ليلة القدر خير من ألف شهر . .
 والمتفق عليه بين جلة المفسرين أن ليلة القدر شرفت هذا التشريف لتزول القرآن الكريم
 فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم - كما دأبهم في تحقيق كل دقيقة وجليلة من

تفاصيل الآيات والأخبار القرآنية - يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة ، إذ يجوز أن يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة ، ويشير القرطبي وابن كثير إلى قول القائلين أن ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالي التي تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وإن أخذوا بتعدد الليالي التي تنزلت فيها آيات الكتاب . والمفسرون الذين يحققون أن ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرجحون أنها إحدى لياليه العشر الأخيرات ، وأنها على الأرجح ليلة السابع والعشرين منه لأسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بتزوله في ليلة القدر يعززون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهارا ، ولم يكن في ليلة من الليالي ، لأنه من المتواتر أن النبي عليه السلام خطب بأول آية كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له (اقرأ) فقال : ما أنا بقارئ ، إلى آخر ما ورد في الحديث المشهور ، ولكن الأمر الذي لا خلاف فيه أن سورة العلق التي افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الإشارة إلى الأمور التي حدثت كما قال الأستاذ الإمام « بعد شيوخ خبر البعثة وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لإيذائه عليه السلام » .

فلا خلاف على وجه من الوجوه في تشريف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وإن حكمتها الكبرى أنها هي ليلة الفرقان كما جاء في سورة الدخان (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم) .

فهى ليلة القدر لأنها ليلة التقدير والتميز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والأمر بالدعوة والتكليف ، وهو أشرف ما يشرف به الإنسان لأنه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتميز بين جميع المخلوقات ، ومن أجل هذا فضل الإنسان على الملائكة ، لأنها لا تتعرض لما يتعرض له الإنسان من فتنة التميز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول إلى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحى المكلف المسؤول ، وقد افتتحت دعوة محمد عليه السلام بالأمر بالقراءة واقرن تمييز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء في وصف الخليقة من الكتاب المبين : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ، وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها

من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون .
وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ،
قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما
أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم
تكتُمون) .

وقد جاء وصف الإنسان بهذه المزية بعد الأمر بالقراءة في أول آية خطب بها عليه
السلام : (اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) .
وهكذا ينبغي أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتميز الذي خص به
الإنسان ، ومعنى الأمر الحكيم الذي يفرق في ليلة القدر ، بأمر العلم الحكيم .
فالشرف الذي فضلت به ليلة القدر إنما هو شرف التقدير والتميز ، وشرف القرآن
والفرقان ، وشرف التكليف الذي رفع به الإنسان إلى منزلة أشرف المخلوقات وحتى عليه أن
يذكره لأنه محاسب عليه ، فيذكر في كل يوم وليلة انه مسؤول عما يفعل ، وانه مشرف بين
الخلق جميعا لأنه مناط السؤال والحساب .

وعلى هذا المعنى وحده ينبغي أن نفهم التقدير الذي يرتبط بتزول القرآن وبأمر القراءة والعلم
الذي يفرق به كل أمر حكيم .

ومن حقائق البداهة التي يدين بها المؤمن بالله أنه سبحانه وتعالى يقدر الأقدار ويقسم
الارزاق ، ويحيى ويميت ، ويجرى قضاءه في صروف الحوادث وأطوال الحياة والاحياء ،
ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالى الزمن أمر لا يقول به المؤمن بالإله الواحد السرمد
الذى لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وإنما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا
الأديان التي ظلت تعدد الأرباب وتخص كل رب منها بوقته وسمائه ، أو تشبه بما يعده الإنسان
من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من بنى نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس
أياما تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الأفلاك ، ويستترها العارفون بأسرار النجوم عندهم توسلا
إليها بشفاعة القرايين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير في إحدى ليالى السنة ، وسرت إلى
بنى إسرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والأرباب الأرضية أو الفلكية في أرض بابل فأخذت
سبيلها مع سائر الخرافات والاسرائيليات إلى عامة المسلمين ، فظهر في تلك الأساطير التي

أحاطت بأخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذى يتصل به شرف الإنسان وشرف التمييز والتكليف إلى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الإسلام فى جملته ، لأنه يرتن السعادة والشقاء والثوبة والجزاء بغير الأعمال والمقاصد ويعود بها إلى أرصاد الليالى والأيام ورموز الشفاعات والقرايين .

كان قدماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويتهلون إلى أربابهم فى مطلعها ان يغدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثناء ، لاعتقادهم أن أرباب النجوم تقضى فى الليلة الأولى من مطلع السنة كل ما يقضى من أمور الخصب والجذب والرزق والحرمان والحياة والموت ، وكان من عقائدهم أن للأعمار شجرة تخضر أوراقها أو تذبل مع اخضرار الشجر على الأرض وذبوله ، فن كعب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضى عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا أن اخضرار الورقة وذبولها مرتنان بمراسم الصلاة وطلاسم السحر التى يتولاها الكهان ويفرضون من أجلها القرايين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات .

وقد نقل الاسرائيليون كل ذلك إلى عيد من أعيادهم التى اختلطت فيها عبادة الإله بعبادة الأرباب الوثنية ، ثم تسربت منهم إلى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب أن القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا إلى ليلة القدر أكثر مما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند البابليين ومراسم التفكير عند كهان اسرائيل . ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر إلى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح سببها إلى شهر الصيام فى القرآن الكريم ، إنما جاء من ذلك الاعتقاد القديم فى السنة الزراعية إذ كان شهر شعبان إنما سمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء فى روايات الجاهلية ، فهو اشبه بما كان يقال فى بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من « انشعاب » الأعمار بين الاخضرار والذبول .

لكنه فى الواقع « انشعاب » آخر بين العقائد الإسلامية فى صميمها وبين العقائد التى تخلفت عن عبادة الأوثان والأرباب من دون الله .

فالعقيدة الإسلامية فى صميمها لا تتمثل فى شىء كما تتمثل فى التكليف والتمييز . وفى المخلوق العاقل المسؤول الذى يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو الغفران من عمل غيره ، وهنا تنشعب العقائد بين ليلة القدر فى شريعة المسلم وبين اشباه هذه الليالى فى كل شريعة يناط فيها

قدر الإنسان بغير الأعمال والنيات ، وإن للمسلم ليعود إلى اسلامه الصحيح كلما احتفل بيلة
 القدر ، وهو يذكر أنها ليلة فرقان وحسب ، وأنه يدعو الله فيها ليشرف بما شرفه به الليلة
 المباركة من آيات التقدير والتذكير .

القصة في القرآن الكريم

القصص في اللغة هو تتبع الأثر لمعرفة المكان الذي نزل به أصحابه أو سلوكه .
 ومن هنا قيل للحكاية عن القوم أنها قصة ، لأن من يحكى عنهم يتبع أثرهم ليعرف
 خبرهم ، فهو يقص سيرتهم في الزمان ، كما تقص السير في المواقع والجهات .
 وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة ، فجاء في سورة الكهف :
 (فارتدا على آثارهما قصصا) بمعنى تتبع الأثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : (نحن نقص عليك
 نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) بمعنى تتبع الخبر في التاريخ .
 ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومها إلى معنى الهداية إلى الأخبار
 والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه
 المقاصد الثلاثة :

فهي تساق للعبارة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية .
 وتتلى قصص العبرة والموعظة في القرآن الكريم لتذكير الأحياء بمصائر الغابرين من الأمم
 الأولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الأولين من الكلام المسطور أى المكتوب ، وقد تكون
 الكلمة إحدى الألفاظ التي تعربت عن اليونانية ، لأن « الاستوريا » عندهم بمعنى الخبر
 المسجل أو المعروف ، ولا يبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب لأنهم أخذوا الكتابة
 عن الأمم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب إلى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء
 « الألفا والبيتا والجا » عندهم منقولة من الألف والباء والجيم ، بل يرجع أن كلمة « كلموس »
 اليونانية أى « القلم » منقولة عن العربية ، لأن القلامة أصيلة فيها ، ومن مادتها « القصم »
 والقضم والقطم والقحم والقرم » وكلها تفيد القطع كما يفيد التقليم ، وكذلك السطر والشرط
 بمعنى الخط أو القط في العربية ، يقال سطره وشرطه وخطه وقطه بمعنى واحد ، فليس من

البعيد أن تتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التي لا شك في انتقالها من الأمم السامية إلى اليونان .

وقد ترددت في القرآن الكريم أخبار الأولين على سبيل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الأمم الباقية من الاغترار بالمتعة . . كما اغترت بها الأمم الحالية ، وكانت هذه العظات ألزم العبر لتلك الأمم التي آمنت بالأوثان والأرباب ولم تؤمن بالوحدانية ، فلإنها إذا علمت أن أربابها لأن تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على اصابتها بها ، ذهب إيمانها بتلك الأرباب ، ووجب عليها أن تبحث عن قوة الهية تملك القدرة التي عجزت عنها معبوداتها . وفي القرآن غير القصص التي تدعو إلى العبرة بمصير الكافرين أنباء تروى عن الأنبياء الذين أرسلوهم إلى الأمم الغابرة فكذبهم وتكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحاققت النعمة بمن كذبوهم وانكروهم ، وبقيت قدوتهم للدنتفع بها من يعمل عملهم ، ويقفوا اثرهم ، ويلقى من قوله مثل ما كانوا يلقونه من أقوامهم . . . (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) كما جاء في سورة هود .

وهذه على الجملة حكمة القصص التي جاءت في الكتاب عن جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة ، تثبيتا للافئدة وتبشيرا للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على الجهاد .

* * *

ومن قصص التعليم والهداية في القرآن قصة موسى والخضر عليهما السلام ، يرى بعض المفسرين أنها درس لأصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين بالأسرار والإشارات الخفية ، ويرى الثقات أن القصة درس لأصحاب الشرائع حقا ولكنهم يفهمون من هذا الدرس أن سعة العلم من شروط القضاء بين الناس ، وأن العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم من شؤونهم وحقائق أحوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى في العدل قاض يعرف تلك الأحوال على حقائقها وآخر ينظر فيها بما يبدو له ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضى بشريعة من الشرائع تجري على قسطاس واحد ولا يختلف فيها ظاهر وباطن ، كما يعتقد القائلون بالأسرار والاشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاضي العادل إلى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان .

ومن الواجب أن نذكر أن قصص القرآن جميعا تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ،

وأنها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين . فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين . وليست حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس .

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد كان له درسه النافع للمتعجلين من أدياء التحقيق - العلمي - منذ أوائل القرن التاسع عشر . لعلمهم لا يستغنون عنه بعد انتصاف القرن العشرين . فقد كان ورود الخبر في كتاب من كتب الدين كافيا عندهم للجزم باختلافه وحسابه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعراء . فلم تمض سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات الصبغة التاريخية لكل خبر من أخبار تلك الحوادث المشكوك فيها . وثبت أن علماء التاريخ كانوا خلقاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا بها من مصادرها الدينية . قبل أن يتوفروا على حركة الحفر والتنقيب في آثار الشرق الأدنى وما جاور بلاد النهرين .

ومن هذه الأخبار ما كانوا يقرءونه في الكتب ويمرون به على غير انتباه لأنهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام في غير المصادر الدينية . فشكوا في وجود عاد وثمود وشكوا في حملة الفيل وهلاك أصحاب الفيل . وشكوا في الزلازل والأعاصير والظوفانات والجوائح والحروب التي سبقت مساق العبرة في قصص القرآن وانفرد بها أحيانا بين كتب الأديان . فلما حققوا الآثار وصححو المراجعة تبين لهم أن عادا وثمودا من أخبار بطليموس . وإن هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وأن المدن التي ساخت بها الأرض أو عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنف وطروادة ومسينى ، وإن بقايا اللغة تقول لنا اليوم بعد المقارنة بين اللغات كل ما كذبوه من الأصول أو من الصلات بين شعوب الأمم وأعراقه في أحاديث المتدينين ، وإنهم هم في انكارهم وتحقيقهم المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور الخرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين الأقدمين ، وهي خرافة العالم الذي ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر ، ويظن أن كلمة « التحقيق » وحدها سلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستثثار بالرفض والإنكار .

وإذا أنكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلمهم لا يستطيعون أن ينكروا اليوم هذا الدرس الذي تعلموه من كتب الدين ، فقد تعلموا على غير قصد منهم أن التعجل بالإنكار جهل شائن كجهل المتعجلين بالتصديق .

رمضان شهر الإرادة

كان منا رجل من رجال الأعمال ، وسفير ، وشاعر ، وكاتب ، وصحفي ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الأعمال : « إنني تعودت بين حين وحين أن أصوم أسبوعاً أو أسبوعين عن كل طعام غير السوائل وأفضل من السوائل عصير البرتقال » .

وقال السفير : « إنني أصوم فترة كهذه واكتفي فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكنني أفضل عليه السوائل الأخرى » .

وقلت : « إنني أعالج الصوم مرة في كل أسبوع ، واختار يوماً من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل ، وأفضل منها مغلي البابونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال ، وقد أحتاج في أيام الأسبوع الأخرى إلى إسقاط وجبة من الوجبات الثلاث ، وأكثر ما تكون وجبة العشاء » .

ولا أذكر مما قيل في هذا المعنى غير ما تقدم ، ولكنني على يقين أن القارئ يسمع في مجالسه مثل ما سمعنا في ذلك المجلس وفي غيره ، فإن لم يسمع حديثاً عن الصيام لإصلاح المعدة سمع حديثاً عنه لاجتناب السمّة أو لزيادة نصيب الجسم من بعض الأغذية الحيوية ، أو سمع عن الصيام السياسي الذي يراد به فرض رأى أو الاحتجاج على معاملة ، فليس أكثر من أنواع الصيام في هذه الأيام .

ولا حاجة إلى الإفاضة عن الكلام على أنواع الصيام التي يعالجها الجنس اللطيف حرصاً على الرشاقة واعتدال القوام ، أو رياضة له في سبيل الجمال تشبه الرياضة التي يعالجها اللاعبون في سبيل القوة والنشاط ، فإن حديث الصيام من هذا القبيل في كل بيت وكل ناد ، وبلغ من شيوعه أنه أخاف المصانع التي كانت تعول على الشراب الحفيف كالجمعة والنقوعات وما إليها وتعلم أن وجود الجنس اللطيف مع الرجال أكبر مشجع على الإكثار من هذه الأشربة ، فإننا نقرأ أخيراً عن الجمعة التي تخفف السمّة وعن التي تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم « هندامه » واعتدال قوامه .

وراء هذه المشورات مصالح تلك المصانع على الأقل في بعض الأحيان .
ليس زماننا إذن زمان الأعراض عن الصيام كأنه عادة من عادات الأقدمين التي عني عليها الدهر كما يقولون ، بل هو في الواقع زمان تريد فيه ألوان الصيام ولا تنقص ، ويكثر فيه اختلاف أنواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط انه استحق أن يسمى عصرًا « صياميا » كالعصر الذي نحن فيه .

ونقول « الصيام على اختلاف أنواعه » لأن الأنواع التي ذكرناها آنفا ليست هي كل الصيام الذي يشتغل به أبناء العصر الحاضر ، فتلك جميعا أنواع « جسدية » تراد لحفظ الصحة أو حفظ الرشاقة أو حفظ القوة والنشاط ، وغيرها كثير من أنواع الصيام يدرسها أبناء العصر الحاضر ولا يطلق عليها وصف « الأنواع الجسدية » . . لأنها تراد لتربية الخلق ورياضة النفس وتعويد الإنسان أن يملك عاداته كما يشاء .

وقد تفتح باب البحث في هذه « الصيامات » على أثر التوسع في دراسة الأديان والمقارنة بينها ، وعلى أثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاقة العقل فيها بالبنية ، وعلى أثر القول بإمكان توليد الأمراض العقلية وشفائها بتعاطي بعض العقاقير أو الامتناع عن بعض أصناف الطعام .

وكثر الكلام على « اليوجا » الهندية ، كما كثر الكلام على عادات المتصوفين والنسك التي ملكوها بها زمام أجسادهم وضمايرهم ، فلا يقل الكلام على الصيام في سبيل الروح والضمير عن الصيام في سبيل الجوارح والعضلات .

والصيام الذي فرضته الأديان أحق هذه الأنواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طال القول في أصل الصيام الديني قديما قبل ظهور الأديان الكتابية فلا حاجة بنا إلى استقصائه في هذا المقام .

أما حكمة الصيام في الأديان الكتابية فهي محصورة في أغراض معدودة : وهي تعذيب النفس والتكفير عن الخطايا والسيئات ، وتربية الأخلاق على نحو من الانحاء .

والدين الإسلامي هو الدين الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمن على نحو معروف من النظام .

ولا خلاف بين الأئمة في الحكمة المقصودة بهذه الفريضة وهي تقويم الأخلاق وتربيتها ، وإن تعددت الأخلاق التي تذكر في هذا المقام .

فن الجائر كثيرا أن صيام الغنى يعلمه الرحمة بالفقير ، ولكنه مقصد لا يشمل الفقراء كما يشمل الأغنياء وكما ينبغي في كل فريضة عامة لا تخص بآسان ولا بطائفة من الناس . أما الخلق الذى يعم الأغنياء والفقراء ولا يستفاد من فريضة عامة كما يستفاد من الصيام فهو « الإرادة » ألزم الصفات لكل إنسان ، إن الإرادة لازمة في كل تكليف وفي كل تبعة وفي كل فضيلة ، فلا قوام للفرائض والفضائل جميعا بغير هذه الإرادة .

وهي لازمة للفقير لزومها للغنى ، فإن كان أحدهما أحوج إليها من الآخر فهو الفقير ، لأن الغنى قد يجد عنده ما يعوض التفريط في أعمال الإرادة والعزيمة والحزم والمضاء ، وليس هذا العوض ميسورا للفقير إلا بزيادة الجهد والعناء .

الإرادة إذن هي فضيلة الفضائل في الصيام .

ومتى عرفت هذه الحكمة قآداب رمضان كلها محصورة فيها مستفادة من معناها ، ولا حاجة بالصائم إلى أدب غير أن يذكر أنه يريد الصيام وأنه يقوم بفريضة يطلبها ويعلم نفعها ويحمل جهدها ، وإن لم تكن مفروضة عليه .

فليس من أدب رمضان أن يتحمل الصائم وأن يتجهج لتحديثه وأن يبدو منه ما يدل على الضيق بالفريضة كأنه مكروه عليها مطيع لها بغير رضاه .

وليس من أدب رمضان أن يهرب الصائم من إرادته بقضاء النهار كله في النوم تاركا للطعام ، لأنه غافل عن مواعيده غير متنبه إليه .

وليس من أدب رمضان أن يقلت زمام الإرادة بعد غروب الشمس فلا يعرف الصائم له إرادة تصده عن الإفراط في الطعام والشراب إلى موعد الإمساك .

وليس من أدب رمضان أن يصوم الإنسان وهو معرض للتهلكة بصيامه فإن من كان مريضا لم تجب الفريضة عليه ولا معنى لأداء الفريضة إذن ، إلا أنه يريد لنفسه الهلاك ، وهذا محرم عليه .

كلمة « الإرادة » وحدها تلخص آداب رمضان ولا تحتاج إلى إسهاب في تفسيرها وتعدد أنواعها .

ومزية رمضان أنه فريضة اجتماعية مع فرضه على آحاد المكلفين ، فهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة وعلى نمط واحد من تغيير العادات ، وليس أصحح لتربية الأمة من تعويدها هذه الأهبة للنظام ولتغيير العادات شهرا في كل سنة ، تتلاقى

فيه على سنن واحد في الطعام واليقظة والرقاد وما يستتبع ذلك من أهبة الجماعة كلها لهذا الشهر خلال العام .

وإذا استطاعت الجماعة أن « تريد » ذلك التنظيم وذلك التغيير ، فليس ثمة نمط من أنماط المعيشة لا تستطيعه على هذا المثال في الشدة أو الرخاء .
رمضان شهر الإرادة .

أدبه أدب الإرادة ، وحكمته حكمة الإرادة ، وليست الإرادة بالشئ اليسير في الدين والخلق ، فما الدين وما الخلق إلا تبعات وتكاليف ، وعماد التبعات والتكاليف جميعا أنها تناط بمريد .

ومن ملك الإرادة فزمام الخلق جميعا في يديه .

لو عاد محمد عليه السلام

من الأمثال التي تعاد ولا تمل أمثلة للكاتب الروسي « ديستيفسكي » عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصة الاخوة كرامزوف .

وخلاصة الأمثلة أن السيد المسيح عاد إلى الأرض وأخذ في وعظ الشعب وتبشيرهم بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا إلى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح ! . . وقال له : إن هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين إلى تنفيذ القضاء فيك . . أمثلة تعاد ولا تمل لأن العبرة بها لا تنقضي في حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهركله في أحاديث المصلحين والمفسدين .

ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، فإنما يكون مبالغا لو كان ما تخيله بعيدا أو غريبا في بابه ، ولكنه في الواقع أقرب شئ إلى الاحتمال مع هذه البشرية التي تختلط فيها الشيطانية والخطيئة والحمازية في وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها وألوبة في أيدي العابثين بها ، وإن كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لأنكره كثيرون ممن يعيشون باسمه ويستحلون هدايته .
ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية
الإسلام والإسلام برىء منهم ، وكل ما هنالك من خلاف أن المسألة لا تترتبك السهولة التي
توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى في الإسلام لمثل عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندما
يكفر عن سيئاته ، إن كانت سيئاته مما يقبل التكفير .
وأسأل نفسي كيف يتفجع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبي عليه السلام فترة
قصيرة من الزمن ؟ وما هي المسائل التي يرجعون بها إلى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل
الخطاب فيها ؟

أسأل نفسي فتخطر لي مسائل خمس يرجع فيها إلى شخصه الكريم ويغنى جوابه فيها كل
الفناء ، فلا لجاجة ولا اختلاط ولا حاجة إلى الاجتهاد والتأويل من مجهد أو مقلد وما أشبه
الاجتهاد والتقليد في هذا الزمان !
تلك المسائل الخمس هي : مسألة الأحاديث النبوية ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب
الحجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب
الاجتماعية الحديثة وحكم الإسلام عليها وقول نبي الإسلام فيها .

مسألة الأحاديث النبوية :

إن رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور في جمع الأحاديث وتبويبها وتقسيم
رواتها واسانيدها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت والراجع والحسن والمقبول والضعيف
والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه
الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون .
وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تريد الأحاديث الثابتة على عشر الأحاديث المتداولة في
الكتب وعلى الألسنة .

وكلمة واحدة من فم الشريف عليه السلام ترد الأمور جميعا إلى نصابها : « لم أقل هذه
الأحاديث ! » وينتهي القيل والقال ويطل الخلاف والجدال ، ويطل معها بلاء أولئك
المحدثين الذين يستندون إلى الحديث الكاذب في التضليل وترويج الأباطيل .

قراءات القرآن :

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الأحاديث في أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فإن الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئا من أحكام القرآن ، ويمكن الأخذ بها جميعا ولا ضرر في ذلك ولا ضرار .

إلا أنها لا تحتل أقل اختلاف مع وجود النبي الذي تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس إلى تلاوته - في عصر التسجيل - فذلك ذخيرة الأبد في ذاكرة الأجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون في مجالس الذكر الحكيم .

الحلافة والمالك :

وتأتى مسألة الحلافة ، بل معضلة الحلافة .

تلك المعضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره في الإسلام حين نذكر السنة والشيعية والاماميين والزيديين والاسماعيليين والقراريين ، وحين نذكر الهاشميين والأمويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المتقسمين وأقسام المتقسمين .

بم أوصيت يارسل الله في أمر الحلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها ؟ فإذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فإذا هي يفضاء من غير سوء ، وإذا هي بقية من بقايا الماضي تحال إلى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقى بها حيث لا حس ولا خبر . وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد خاتم المرسلين :

والخطب أهون من ذلك جدا في مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فإن المخالفين للاجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهى خلافهم عما قريب .

ولكن إذا انتهى بكلمة من الرسول الذى يؤمن به المسلمون جميعا فذلك هى النهاية الفاصلة ، وقد تمنع فى المستقبل أضرارا لا يقاس عليها ضررها فى الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد .

المذاهب الاجتماعية الحديثة :

وما قولك يا رسول الله فى دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟
 لا حاجة إلى السؤال عن الديمقراطية ، فإن سابقة الإسلام فيها أصلح من كل سابقة .
 ولا حاجة إلى السؤال عن الفاشية فإن الإسلام بمقت الجبارين والمتجبرين :
 ولا حاجة إلى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فإنها ملعونة فى كل دين .
 وإنما يسأل النبى عليه السلام فى الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الأغنياء » . . ثم يسأل عن شرحها فيتلناه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول .

وتأتى على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين فى الأحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأنشأه الصحفيين :

ويسمع من النبى عليه السلام فى أولئك كله جواب يغنى عن ألف جواب أو عن كل جواب .

ونعود إلى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين .
 إن كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقتناع العقول أو بسلطان البرهان فى الاقتناع .
 إن كاتب هذه السطور قد رأى بعينه أناسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس فى رابعة النهار .

وليس بالمستحيل عندى أن يعانذك المعاند ويكابر المكاير فى « اثنين واثنين يساويان أربعة وفى واحد وواحد يساويان اثنين » .

بل ليس بالمستحيل عندى أن يكابر المكايرون فى معنى الواحد ومعنى الاثنين وإن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الأرقام .

فإذا عاد النبى عليه السلام وقضى قضاءه فى أحكام الإسلام فلا والله لا يعدم الناس من

يشكك في كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد من بلج في العناد ويضيق عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول . غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون في الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد في الأولين والآخرين ، فما هو إلا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لا يهتدون ، فلا يصدون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين .

لو عاد السيد المسيح

في إحدى روايات الكاتب الروسي العظيم - دوستيفسكى - بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض في طوقه عابرة ونزل بأشبيلية في إبان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمخزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وإنه ليحظى بين الشعب يفضي عليهم حبه وحنانه ويسطون له شكاياتهم ومخاوفهم إذا برئيس ديوان التفتيش - المفتش الأعظم - يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق . ويأتى المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « إننى اعرفك ولا أجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت إلى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات في سبيلنا ؟ »

ثم يقول له فيما يقول : « إنك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة ، كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم . . . والآن وقد عرفنا نحن دأهم واعفيتاهم من ذلك التكليف ، واعدناهم إلى الشرائع والشعائر ، تعود إلينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟ »

« ليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عنه حملها ويتقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه أنه قد أطلقها له وفوض إليه الأمر في

اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الإنسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

« إنك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده ، وليس في عزمتنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الإنسان لنا وارجع من حيث أتيت ، وإلا اسلمناك لهذا الإنسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين » .
قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار « إن السيد المسيح لم ينس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم إلى المفتش الأعظم - وهو شيخ فان في التسعين - فلم شفتيه وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار » .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .
ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل إليه .
كلا . إن الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة ، وأقرب شيء إلى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في تقمته على الرسول الكريم .
وأقرب شيء أن يكون لوعاد السيد المسيح إلى الأرض أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كبة وفريسين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبب للإنسان وليس الإنسان للسبب ، وإن العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه ، وأن الوحى في طوية الإنسان لا في طوايا الكتب والأوراق .
أقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة ، وأن يجد إنسان اليوم كإنسان الأمس في شروعه وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ، وفي أعراضه عن اللباب وإقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقى ، ولجأه في الجحود والعدوان حين يحدد ويعتدى ، خمرًا جديدة في زق قديم .
ذلك أقرب شيء أن يكون .

وأقرب شيء أن يقال إذا طاف بالخطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبي العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي إلى غناء اجتهاد
فم يشقى المصلحون ، وفم يهلك الشهداء ؟ وفم يأتي الأنبياء ويذهبون ؟ وفم اختلفت
الديانات واصطرح عليها المتدينون ؟ فم كان هذا ؟ فم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفم توالى
التابعون بعدهم بإحسان أو بغير إحسان .
جامعوا وعادوا .

وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤنا العياء
لن قبل هذا ليكون أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التى جاءت فى صورة الخيال .
ولكن الحقيقة الكبرى التى توزن بها جميع الحقائق هى أن الحقيقة لا ترى من جانب
واحد ، ولا سيما الحقيقة التى تتخلد على الزمن فى أطوار الإنسان منذ كان ، وتخلد معه أنى
يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل إليه الإنسان ثم يصل إليه ويقعد عنده ،
ويكف بعده عن كل عناء .

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائم ، يتقدم فيه الإنسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة
فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما إلا لينظر بعده إلى جهاد مستأنف ولا يودع الشر فى
مرحلة من مراحلها إلا ليلقاه وبجاهده ، ولن يلقاه فى سلام .
ومطالبنا المحسوسة تهدينا إلى القياس الصحيح فى هذه المشكلة ، وهى أولى بأن ندرکها من
المطالب الخفية التى تعتلج بالضمير وتبعثه إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ، ومرات
حيث يصرف فلا يرى غير الحجب والظلمات .

منذا يقول أن عناء التعلم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة ، ورآه
يحملة وهو فى العاشرة ، ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة
لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء ؟
منذا يقول أن عناء الطب باطل إذا رأى الناس يرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنائهم
فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء ؟

منذا يقول أن الغاية عبث لأن الطريق إليها طويل ، أو لأنها غاية تلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الإنسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة أن الشرواقع ، ولكن العبرة كيف ننظر إليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه . وإذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو مستريح إليه مستريد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضطر إليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يمثّلها ، والمطالب التي يطلبها ويتأهلها أولاً ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الإنسان قيمة يغلبها ويرفعون أمامه مثلاً أعلى يتسامى إليه . فهم عاملون وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء .

وإذا قلنا يوماً أن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الإنسان الذى كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف كما يعمل الحيوان .

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والخواطر ، وبما تريده من نصيب الإنسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقيبح ، وقد عملت الأديان كثيراً ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الإنسان يوماً عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما عبر يتظنون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء أنهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن ديننا من الأديان لم يعمل عملاً ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باقية فيها الشر ، باقية فيها البغي ، باقية فيها الكفران . أى فرق بين العارفين الذين يتظنون من الدين دنياً لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الألفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟ .

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون ويتفكرون « الألفية » ، وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير ! .

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنعا كثيرا خيرا من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يحتم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس في العصر الحديث - إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم - أن عقيدة الإنسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتنا عليه ، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلح ، إن احتاج إلى الإصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته ، فالعقيدة مسألة الإنسان ، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان ، وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها بضاعة يردّها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان .

في الشعر العربي

المذاهب العربية

نظم الشعر في اللغة العربية فن مستقل بذاته بين الفنون التي عرفت في العصر الحديث باسم الفنون الجميلة ، وتلك مزية نادرة جدا بين أشعار الأمم الشرقية والغربية ، خلافا لما يدر إلى الخطأ لأول وهلة . . فإن كثيرا من أشعار الأمم تكسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء أو الرقص أو الحركة على الإيقاع ، ولكن النظم العربي فن معروف بالمقاييس والأقسام بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة ، فلا يصعب تمييزه شطرة شطرة بمقياسه الفني من البحور والأعاريض ، إلى الأوتاد والأسباب .

وليست هذه خاصة من خواص اللغات السامية أشتات العربية ، فإننا إذا أخذنا سطورا على حدة من قصيدة عربية لم نستطع أن ننسبه إلى وزن محدود أو مقياس متفق عليه ، ولا بد من اقترانه بسطور أخرى يتم بها الإيقاع ولا تطرد في قول كل شاعر ولا في سطر كل قصيدة ، فهو والفاصلة النثرية التي يمكن ادائها بالغناء أو بالإيقاع على حركة الرقص ، متساويان . ومن الشعر الغربي ما يعرف كل سطر منه بعدد من المقاطع والنبرات ، ولكنه بغير قافية تنتهي إليها هذه السطور .

أما ضروب النظم التي تلتزم فيها القافية ، فكلها في نشأتها كانت تغنى أو تتشد على إيقاع الرقص ، ثم استقلت بأوزانها المحدودة على نحو مشابه للأوزان العربية ، وهي الموشحات التي اشتهرت عندهم باسم « استانزا » أو اسم « سونيت » . ويدل كلا الاسمين على أصلها من الرقص والغناء . . فإن استانزا كلمة إيطالية بمعنى الوقوف تقابلها ستاند Stand بالإنجليزية ، وسونيت Sonnet من كلمة سونج Song بمعنى الغناء .

فالشعر الذي لا يضبط بالوزن أو بالقافية موجود في اللغات السامية واللغات الآرية ،

وبعضه لا يزيد الإيقاع فيه على الموازنة بين السطور بغير ضابط متفق عليه ، وبعضه يضبط فيه الإيقاع بعدد المقاطع والنبرات ، ولا ينتهى إلى قافية ملترمة في القصيدة أو المقطوعة الصغيرة . إنما الوزن المقسم بالأسباب والأوتاد والتفاعيل والبحور خاصة عربية نادرة المثال في لغات العالم ، وكذلك القافية التى تصاحب هذه الأوزان .

ومرجع ذلك إلى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية الأولى : أهمها سببان : هما الغناء المنفرد ، وبناء اللغة نفسها على الأوزان .

فالأمم التى ينفرد فيها الشاعر بالإشاد تظهر القافية في شعرها . . لأن السامعين يحتاجون إلى الشعور بموضع الوقوف والترديد ، ولكن الجماعة إذا اشركت في الغناء لم تكن بها حاجة إلى هذا التنبيه ، لأن المغنين جميعا يحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته ، فيساقون مع الإيقاع بغير حاجة إلى القوافي عند نهاية السطور ، وإنما تنشأ الحاجة إلى القافية ، أو وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم إلى منشدين ومستمعين . يقول العلامة جلبرت مورى - وهو من ثقاة البحث في الأوزان والأعاريض : « إن إحدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة ، ففي اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فيها واضحة ، وإنما تدعو الحاجة إلى القافية لتقرير نهاية السطر وترويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف . . وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان وتنمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال ، بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منشور ، وقد اختلف الطابعون عند طبع الكتب هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنشور وحسبها الآخرون من المنظوم ، وما يلاحظ أن اللاتين اعتمدوا على القافية حين قلدوا الانتباه إلى النسبة العددية . . وإن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم يلتزمون الأوزان ، وإن انتشار القافية في أغاني الريف الإنجليزية يقترن الترخص في أوزان الأعاريض » .

ويستطرد الأستاذ مورى إلى الشعر الفرنسى فيقول : « إن اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن إلى مجرد احصاء للمقاطع ، وأصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة - نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة إلى القافية ، فصارت في شعرها ضرورة لا يحصى عنها ، ودعا الأمر إلى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه » .

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في أشعار الغربيين سبب لم يذكره الأستاذ

مورى ، وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم .

فحيث شاعت أناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد على حركات الإيقاع ، ولو لم تكن متناسقة الوزن على نمط محدود ، لأن الغناء بالكلام للشعر ممكن مع توازن الفواصل وموازة السطور .

وأناشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لأنهم قبيلة متقلة تحمل تابوتها في رحلتها وتشهد الدعوات معا في صلواتها الجامعة ، وفي هذه الدعوات ترانيم على وقع الدفوف كما جاء في الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج حيث « أخذت مريم النبية الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص ، وأجابتهن مريم : « رنوا للرب فإنه قد تعظم . . . » . وكذلك شاعت بين اليونان أغاني المسرح التي ترجع في نشأتها إلى الشعائر الدينية ، ثم انتقلت منها إلى الأمم الأوربية .

ومما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والترام القافية إن شعراء الأمم الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين قد لجأوا إلى القافية والتمروا في مراعاتها أحيانا ما يلتزمه عندنا شعراء الموشحات .

أما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الإسلام صلوات جامعة منتظمة بمواعيدها وعفوفاتها ، وإنما كان الحداء هو الغناء الذي يصاحب انشاد الشعر على بساطة كأنها بساطة الترتيل ، ينشده الحادى على انفراد وتصفى إليه القافلة أحيانا في هدأة الليل ، إذ يعتمد الحس كله على السمع في متابعة النغم إلى مواضع الوقوف والترديد ، فتقفو النغمة على وتيرتها ، ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه .

لهذا استقل المنظم بحقه في الصنعة ، لأن هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء ومع غير الغناء ، فانتظمت قوافيه وانتظم ترتيله انتظاما لا بد منه لكفائته ، مع بساطة أفاين الغناء . وإذا التمسنا مدخلا لفن الحركة الموقعة مع الحداء فهناك إيقاع واحد يتابعه في خطوات الأيل وفي خطوات الهرولة التي تصاحبها على القدم ، وإلى هذا الإيقاع يرجع وزن الرجز على قصد وعلى غير قصد ، ومحيثه على غير قصد أدل على تمكن العادة وعلى أصالتها في الحياة البدوية :

أنا النبی لا کذب أنا ابن عبد المطلب

* * *

هل أنت إلا أصبح دमित وفي سبيل الله ما لقيت

* * *

وقد تكون حركة الهرولة في الطواف بالكعبة ملحوظة في كل دعاء مروى كيفما اختلف
المختلفون في صحة الرواية ، كما قيل عن امرأة أنخزم بن العاص حين نذرت ولدها للكعبة
فقال :

إني جعلت رب من بنيه ربيطة بمكة العلية
فباركن لي بها إليه واجعله لي من صالح البرية

فهكذا يفهم الناظم كيف تكون حركة الدعاء مع الهرولة ، أيا كان صاحب النظم أو من
ينسب إليه .

هذه المرددات الفردية هي التي ميزت النظم العربي باستقلال فنه ووضوح قافيته وترتيله ،
ولو وجدت في الجاهلية العربية صلوات جامعة تشد فيها الدعوات المحفوظة لوجدت فيها
القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية ، أما من أناشيد الصلاة كما عرفها
الغريانيون ، أو من أناشيد المسرح كما عرفها اليونان ، ولكننا نعرف العرب من قصائدهم
الفردية كما نعرف الأمم الأخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا يفوتنا منها غاية ما تدل عليه .
هذا سبب من أسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنا في القصيدة العربية ، وكانت
نادرة بين الأمم السامية والأمم الآرية على السواء .

أما السبب الآخر فهو أصالة الوزن في تركيب اللغة ، فالمصادر فيها أوزان ، والمشتقات
أوزان ، وأبواب الفعل أوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من
حروف الكلمة تبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الأسماء أو يحتفظ
بدلالته على الحدث حسب الوزن الذي يتقل إليه .

هذه أصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا يستغرب معها أن يكون للوزن
شأنه في شعر هذه اللغة وأن يكون شأنها في نظم أشعارها على خلاف المعهود في منظومات الأمم
الأخرى ، ولو صرفنا النظر عن أثر الإنشاد الفردي في تثبيت القافية واستقلال فن العروض عن
فن الغناء في القصائد العربية .

نعم إن اللغات السامية تجري على قواعد الاشتقاق وتوليد الأسماء من الأفعال ، ولكن

المقابلة بين هذه اللغات في أقسام مشتقاتها وتفرع الكلمات من جذورها تدل على تمام التطور في قواعد الأوزان العربية وعلى نقص هذه القواعد أو التباسها في أنحواتها السامية ، بل تدل في باب الأعراب خاصة على تفصيل في العربية يقابله الإجمال أو الإهمال في أنحواتها ، وفي غيرها من اللغات الآرية التي دخلها شيء من الأعراب .

* * *

وواضح مما تقدم أننا قصرنا القول على النظم من حيث هو أوزان عروضية أو قوالب تحتوي الكلم المنظوم فيها .

فهذه القوالب هي التي تطورت في اللغة العربية فأصبحت فنا مستقلا بمقاييسه عن فن الغناء أو فن الحركة الموقعة ، أما الكلام المنظوم في تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتي فيه كل عصر بما هو أهله من الإبداع أو الزيادة أو المحاكاة . وإنما نعود إلى القوالب والأوزان في كل عصر لنسأل : هل هي صالحة لأداء المقاصد الشعرية وبجارية الأمم في تطورها الذي يمتد مع الزمن على حسب حالاتها من الشعور والفهم والقدرة على الأداء ؟ وهل تسع للتعديل إذا وجب التعديل للوفاء بمطلب جديد من مطالب التعبير ؟

إن تجارب العصور الماضية تنجلي عن صلاح القوالب العروضية لجارية أغراض الشعر في أحوال كثيرة ، ويبدو منها أن أساس العروض العربي قابل للبناء عليه بغير حاجة إلى نقضه وإلغائه ، فقد كانت بضعة بحور من أوزان الشعر كافية لأغراض الشعراء في الجاهلية ، أشهرها الطويل والكامل والوافر والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزوءات ومختصرات صالحة للغناء حين استحدثت الحاجة إليه في المحاضرات العربية التي عرفت الغناء على إيقاع الآلات ، ثم اتخذت من هذه البحور أسماط وموشحات وأهازيج تتعدد قوافيها مع اختلاف مواقعها وتطول فيها الأشرطة أو تقصر مع التزام قواعد التردد فيها ، واختار بعض الشعراء نظم المثنائي أو المزدوجات ، وبعضهم نظم المقطوعات التي تجتمع في قصيد واحد متعدد القوافي أو تنفرق وتتعدد بأوزانها مع توحيد الموضوع ، ولما نقلت الالبادة اليونانية إلى النظم العربي لم تضق بها أوزانه ولم يظهر سياق الترجمة أن هذه الأوزان قاصرة عن التنوع فيها على نمط غير هذا النمط لمن يشاء التنوع ، واستجابت الأوزان لمطالب المسرح كما استجابت للملحمة للترجمة ولما يشبهها من القصائد التاريخية المطولة .

وقد أفرد الموسيقار العصري الأستاذ خليل اللاوردى فصلا وافيا في كتابه فلسفة الموسيقى

الشرقية لبحث التوزين والإيقاع وتطبيق العروض العربى على الضوابط الموسيقية فأنتهى من بحثه إلى إمكان التنوع فى الأوزان العروضية واستطاعة الموسيقى والشاعر أن « يفتح أشكالاً غير محدودة من أشكال الموازين ، واعتمد فى تجاربه على الجهاز الفنى المسمى بالمتروتم وهو صندوق صغير من الخشب هرمى الشكل ، يفتح من إحدى جهاته الأربع فيتكشف عن قضيب معدنى مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متنقل يحدث حركة متساوية.. فيقسم الدقيقة الواحدة من الزمن إلى فقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثل الحد الأدنى الفقرات المتناهية فى البطء ويمثل الحد الأعلى الفقرات المتناهية فى السرعة » . . ولم يلجأ الموسيقار إلى وحدات للنغمت غير وحدات الفواصل والأوتاد والأسباب التى يستعملها العروضيون ولم يجعل لها أقساماً غير أقسامهم المعروفة كالسبب الخفيف والسبب الثقيل ، والوتد المقرون والوتد المفروق ، والفاصلة الصغرى والفاصلة الكبرى ، وإنما استخدم الضوابط الموسيقية لبحث الموضوع بمصطلحاته ، وترك مجال بحثه للعروضيين يتفاهمون فيه بمصطلحاتهم التى لا تحتاج إلى التخصص أو التوسع فى فنون الألحان ، فخلص من بحوثه الموسيقية والعروضية معاً إلى نتيجة محققة خلاصتها - كما قال - إن أشكال الموازين الشعرية غير محدودة أو أن حدودها - على ما نرى - أشبه بحدود الكلمات التى تتألف من الحروف الأبجدية ، على حين أن الحروف الأبجدية قلما تزيد على الثلاثين .

فإذا نظرنا إلى ماتم من أشكال العروض ، وما يتأتى أن يتم منها مع التنوع والتوزين ، ثبت لنا أنها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجديد الأنماط والأشكال فيه ، على نحو يتسع لأغراض الشعر ولا يلجئنا إلى نقض ذلك الأساس .

* * *

وهذا كله مع التسليم بداهة بالفرقة بين الكلام المتشور والكلام المنظوم فى السهولة أو الصعوبة ، فإن التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائناً ما كان - ينبغى أن ينتهى عند بقاء الفن فناً مقرر القواعد والمقاييس ، وما جهل الناس قط أن الكلام أسهل من الغناء ، وأن المشى أسهل من الرقص ، وأن الحركة المرسله أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغاً للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشى عن فن الرقص ، أو بتحريك الأعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة فى ألعاب القروسية ، فهما يكن من تيسير الأوزان بالتنوع والتوفيق فلامناص فى النهاية من الفرقة بينها وبين الكلام المرسل فى سهولة الأداء ،

وإنما المطلوب أن تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التي تخرجها من عداد القنون .
ولابد في هذا السياق من تفرقة أخرى هي التفرقة بين القواعد والقيود في كل فن من
القنون ، فلاسييل الى الاستغناء عن القواعد في عمل له صفة فنية ، ولاضرب من الاستغناء عن
القيود التي تعوق حرية الفن ولايتوقف عليها قوامه الذي يسلكه في عداد القنون .

ومن تجاربنا في تاريخ الشعر العربي يتبين لنا أن قواعد النظم عندنا مؤاتية للشاعر في كل
تصرف يلجئه اليه تطور المعاني والتعبيرات في مختلف البيئات والأزمنة ، فلماوجب للفصل بين
قواعد النظم وأغراض الشعر في تجربة من التجارب العربية التي وعيناها منذ نشأت أوائل
الأوزان إلى أن بلغت مابلغته في منتصف هذا القرن العشرين .

ذلك شأن التجارب العربية ، فإبال التجارب في أمم الحضارة التي تتصل بنا وتتصل بها
وتبادلنا ونبادلها مطالب القنون والآداب كما يحدث الآن بيننا وبين أمم الحضارة الغربية ؟ ماذا
تفرض علينا هذه الثقافة المتبادلة في ميدان النظم والشعر على اتصال بينهما أو على انفراد ؟
أما في النظم فلاخفاء بالأمر من أيسر نظرة الى آدابنا وآداب الأمم الغربية التي تتصل بها في
العصر الحديث .

فما لا تردد فيه أن هذه الأمم لم تبدع في موازين النظم بدعا نستفيد منها ولم تكن قد
سبقناها إليه في عصر من عصورنا ، فإذا التزموا الأعارض معتدلين أو مبالغين فليس عندهم
ماهو أدق وأجمل من الموشحة في أوزانها التي تقبل التنوع والتشجير إلى غير نهاية ، والتي يعتبر
تعدد القافية فيها نلحة وزينة في وقت واحد ، فإن اطلاق الحرية للشاعر لتوزيع القوافي حيث
شاء يوشك أن يعفيه من قيودها كما يزيد الإيقاع جلالا على جمال ، ولم يدع الأوروبيون - حتى
في شعر المسرحيات الملحنة - فنا من الأناشيد أتم من الموشحة وأصلح منها للتلحين وحركة
الإيقاع .

فإذا ترخص الشاعر الغربي، في القواعد فأسقط القافية واختار الوزن الذي يسمونه النظم
الحر أو النظم الأبيض - فجهد مابلغوا إليه أنهم عادوا إلى الأسطر المتوازية أو إلى الاكتفاء
بالمقاطع التي لا تبلغ في دقتها مبلغ الأسباب والأوتاد والفواصل ، وكل أولئك طور من الأطوار
التي تخطاها الشعر العربي في الأزمنة الماضية أو سبقتهم إليه أمة من الأمم الشرقية وتوقف بها
التطور عنده ، لارتباطه بالتقاليد الدينية .

فليس عند الغرب من فنون النظم جديد نأخذ منه في أبواب التوزين والتنويع .

ليس في فن النظم جديد نأخذ من الأعاريف الغربية لم تكن عندنا أسسه العريقة ، ولم تكن عندنا أصوله وفروعه أو جذوره وأغصانه على حد تعبير « الموشحين » .
لكن الأمر يختلف كثيراً في الكلام على « الشعر » أو الكلام على الأدب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التي تجيش بها الحياة الغربية في كل حقبة ، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون أن يتميز لها حكم خاص بالشعر يتناوله قبل أن يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير .
هذه المذاهب الشعرية تعيننا كما تعينهم وتمتد بآثارها إلى أقوالهم وأفعالهم كما تمتد إلى أقوالنا وأفعالنا .

لأنها من أطوار الحياة التي لا تنحصر في دوائر الفن ولا في أدوار الثقافة على إطلاقها ، وإن يكن مظهرها الثقافي هو الجانب الذي يشتغل به النقاد والمؤرخون في ميادين الفنون .
هذه الدعوات أوسع نطاقاً من أن يحاط بها في مقال ولكنها تقرب من الحصر المستطاع إذا جمعناها في أدوارها الإنسانية العامة التي توشك أن تكون أمواجاً دورية في هذا المحيط الزاخر ، إذ هي عالققة بطبيعة الإنسان في جملتها ، وطبيعة الإنسان واحدة كما قيل في كل زمان ومكان . .

ونحن نعلم أن ابقراط حصر الطبائع الجسدية في أربعة أمزجة ، وهي المزاج الدموي والمزاج الصفراوي البلغمي والمزاج السوداوي ، ثم جاء العلامة بافلوف بعد تقسيم خصائص الأجسام بين المرمونات وعائلات الدم وودائع الوعي الباطن والوعي الظاهر أقساماً لا تفقد ولا تحصى - فعاد إلى الأمزجة الإبراهيمية تيسيراً للفوارق العامة وجعلها أساساً لتجاربه النفسية التي تعد إلى هذه الساعة من أحدث تجارب العلماء .

فنحن على هذه الوتيرة نقسم الذوق الفني في الإنسان إلى أقسامه الخالدة حين نقول : إن الناس كانوا منذ فطروا واقعيين وخياليين ، ومحافظين على القديم وطلاباً للجديد ، أو أنهم كانوا إذا اكتفيناً بقسمتهم إلى قسمين اثنين : صنفاً يمشى في وسط القطيع وصنفاً يترع إلى الأطراف ، أمام ووراء وعلى كلا الجناحين من اليمين واليسار ، وقد نمسكه بعض الجاديين فأطلق على الصنف الأول اسم فريق الضأن وعلى الصنف الثاني اسم فريق المعيز . . .

ونرى من تاريخ الأمم الغربية منذ ملكت حرية التفكير أنها دارت دورتها بين مذاهب الأدب خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، وإنها نزع في دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تستلزمها أطوار الحياة بعد عصر الجمود والتقليد .

ففي فترة اليقظة الأولى كان من الطبيعي أن يتزع الإنسان إلى استقلال « الشخصية الإنسانية » في وجه التقاليد المطبقة والقيود العتيقة والأحكام التي تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور في أكثر الأحوال ، وهذه هي التزعة التي سميت بتزعة الإبداع و « الحرية الشخصية » Romanticism

ومن الطبيعي أن ينتهي هذا الإبداع من كل جانب على غير هدى متفق عليه - إلى شيء من الفوضى والشرود يستحب معه التوقف إلى حين ، وهنا ظهرت دعوة العود إلى الاتباع والاطراد على نحو جديد يناسب مطالب الزمن ، فنشأت من ثم دعوة الاتباع أو الاطراد الجديد Neo Classicism .

وإذا حكم اختلاف الطوائف حكمه بين أنصار الواقع وأنصار الخيال فهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين Realists والخياليين المثاليين Idealists . وقد يظهر هذا الاختلاف في صورة أخرى بين الطبيعيين Naturalists وبين الفنين أنصار الفن للفن Art for Arts sake .

ونقول إن الواقعيين والطبيعيين متقاربون لأنهم جميعا من أنصار الواقع ، وإنما ينفرد الواقعيون بمحاربة التزعات الخيالية ، وينفرد الطبيعيون بمحاربة التزعات الصناعية : تزعات الاغراق في الترويق والتنسيق ، وإذا اقترنت هذه المذاهب جميعا في عصر من عصور النهضة العلمية فالانقسام بينها يؤول في هذه الحالة إلى قسمين : قسم تغلب عليه الصبغة العلمية وقسم تغلب عليه الصبغة الفنية ، ويتسع كل قسم منها لكثير من الآراء واشتات من الأساليب . ولا جدوى من متابعة العناوين التي تنتهي في الغرب بصيغة النسبة المذهبية Ism فإنها تنطوي جميعا في هذه الدعوات ، ويحيط كل منها بعالم من الآراء والأسباب ، ولكننا نجتمعها في حدودها الواسعة إذا اكتفينا منها بالرومانتيزم والنيوكلاسيزم والريالزم والأيدليزم ، فلا يخرج من هذه المذاهب مذهب جاد يناط به عمل من أعمال البناء والإصلاح في عالم الفنون ، ولا تزال حتى اليوم وافية بأغراض البحث والمناقشة بين المختلفين على الفنون فيما يستحق الخلاف .

وعلى تعدد المذاهب والعناوين في الغرب لا نرى هنالك لبسا على الاطلاق بين المذاهب التي أشرنا إليها وبين عشرات المذاهب التي يتحطاها الدعاة على عجل منذ الحرب العالمية الأولى ، ويندر أن تعيش أحداها أو تستقل عن سواها بصفة من الصفات التي يتناولها التطبيق والتمييز .

فلا لبس على الإطلاق بين مذاهب الجلد ومذاهب الهزل في الآداب الغريبة ، فمذاهب الجلد تدعوكلها إلى البناء وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تبنيه ، ومذاهب الهزل لا تتحدث بشيء غير الهدم والإلغاء فلا لون ولا شبه ولا رسم ولا قاعدة في التصوير ، ولا لفظ ولا معنى ولا منطق ولا مدلول في الشعر والنثر ، وإنه لمن الحظ الحسن أن تقصر هذه الدعوى عن الفنون التي ترتبط بها ضرورات المعيشة والاجتماع ، فإنها لو تناولتها لسمعنا بطن المعمار الذي لا حجرات ولا جدران ولا حجارة ولا طلاء فيه ، وسمعنا بمجامع الموسيقى التي لا تميز بين الضوضاء والألحان ، ولا محل فيها للمعازف والآلات ، من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية Futurism أو فوق الواقعية Surrealism أو الذئبية Fauvism . . . بل منها ما يسمى بمدرسة التأتأة Dadaism ويقول أصحابه أنهم اختاروا له هذا الاسم من أول تأتأت الطفل Da Da وتطلق أحيانا على حصان الخشب ليسهل النطق به على ألسنة الأطفال ، ومؤدى مذهب هؤلاء الدعاة أن التعبير الصحيح عن النفس الإنسانية إنما يرجع إلى صورة الطفولة ورموز الأحلام وخفايا الوعي الباطن كما تبدو للحالم في المنام أو كما يرسلها الناطق عفوا بغير تأمل وبغير انتباه !

ومن هؤلاء الملققين للمذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من السائل لأنه يبحث عن المعنى ولا يكتفى بوقع اللفظة في الأذن أو من منظرها للعين القارئة ، فمن عناوين مارينتي أمام المستقبلية « زانج تمب تيايم Zang Tumb-Tuum ومن عناوين زميله أردينجو سوفيسي Bifs + 18 ما لا يفهم ولا يترجم ، وإنما هو مقابل عندنا لحرف الباء ثم الياء ثم الفاء ثم علامة موسيقية ثم زاي ثم علامة + ثم رقم ١٨) .

وقد عقب صاحب تاريخ الأدب الإيطالي على امام هذه المدرسة فقال انه لم يجاوز حدود السخف في شعره . . ولم يخل كلام المؤرخ من مجاملة ، لأن السخف معنى يوصف بالرداءة . . ولا معنى هنا ولا وصف لردىء أو غير ردىء^(١) .

* * *

ولابد من وضع هذه الدعوات في موضعها من تاريخ الآداب الإنسانية والآداب الأوروبية التي تظهر بينها فما هو موضعها الصحيح ؟

موضعها الصحيح أنها تمثل جانب السخافة الذي لابد أن يتمثل في بيئة يباح فيها القول

(١) صفحة ٤٨٥ من كتاب تاريخ الأدب الإيطالي تأليف «أرنست هانش ولكتر» .

لكل قائل والقراءة لكل قارئ ، ولا يتجمل فيها العاجز من عجزه ولا صاحب اللجاجة من لجأته ، وهم جميعا في غمرة من محن الحروب والفن والقلق والآفات ، فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة في الأذواق والدعوات ؟ وأين هو هذا الجانب إن لم يكن هذا مظهره الذي يتمثل في صوت القنوت ؟

ولسنا نقول إن هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت إليه ، فإنها خليفة أن تدرس كما تدرس عوارض الأمراض والعلل والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض ودراستها للاقتداء بها واعتبارها من مدارس الفن والأدب ونماذج الذوق والجمال . ولا نفوتنا في معرض الكلام على الشطط الفنى ملاحظة وثيقة الصلة بموضوع الخلط الذى يقال عنه إنه هو الفن الصحيح أو أنه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعى الباطن والسريرة الإنسانية في أعماقها « اللامنطقية » على حد تعبيرهم المأثور .

فالخلط الهاذر مذهب لم يخلقه دعاة « اللامنطقية » في القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئا واحدا فيه لم يسبقهم أحد إليه ، وهو اطلاق العناوين العلمية عليه واستعارتها من دراسات التحليل النفساني أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقدima وجد في الشعراء والفنانين من يمنح به هواه أحيانا إلى رفع الكلفة وإطراح الحشمة والابتدال في اللفظ أو المعنى أو في كليهما ، فيسترسل في الهدر واللفظ كأنه في إجازة من « نفسه الفضلى » كما يقولون ، وينسب إلى هذه الترويات شعر المجانة والهزل وشعر الإباحة والجموح ، وينسب إليه كذلك ضرب من الشعر الذى يخيّل إلى الناس أنه محدثهم بالحكم والأمثال وهو في أسلوبه المازل ساخر بضروب الحكمة والمثل ، كما صنع بن سودون البشغاوى (٨٠١ - ٨٦٨ هـ) في قصيدته البائية التى يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب	بقر تمشى	ولها دنب
ولها فى بزبزا	يلو للناس	إذا حلبوا
لا تنضب يوما إن شمت	والناس إذا شتموا	غضبوا
من أعجب ما فى مصر يرى	الكرم يرى	فيه العنب
والنخل يرى فيه بلح	أيضا ، ويرى	فيه رطب
زهر الكتان مع البلس	ان هما لوان	ولا كذب
كيهود فى دير ، خلطوا	بنصارى	حركهم طرب

وأدخل من هذا في باب « اللامنتقية » مذهب من مذاهب الزجل في اللغة الدارجة يعاقبون بينه وبين الأدوار المقصودة ، فيبدأون بالدور العاقل ويتبعونه بالدور المجنون إلى نهاية الزجل ، ويحفظ من هذه الأزجال كثير في مجموعات هذا والأجيال القريبة ، من أمثلتها في كتاب ترويع القنوس لحسن الآلاتي زجل يقول فيه :

كسرت بطيخة رأيت العجب في وسطها أربع مداين كبار
وفي المداين خلق مثل البقر في كل واحدة أربع قلاع حصار
وفي القلاع أقوام طوال الذقون ودعمهم يجرى شبيه البحار
من دعمهم ترزع نجوم السما في خلقة الشمس عديم المثال

وأحياناً يقسمون الأدوار إلى دور صاح ودور سكران ، أو يصوغون فيها المفارقات على ألسنة الصبيان كما يجرى على ألسنة العامة :

ياليل يا عين معرفش أكذب والصفدعة شائلة مركب
وأبوفصادة ريسها والقط الأعور حارسها

إلى أشباه هذه « اللامنتقيات » المتواضعة التي يضعها أصحابها في مواضعها ويسمونها بأسمائها ولا تعدو عندهم أن تكون « منفساً » يستريحونه إلى حين ويعرضون به « اللامنتقية » في صورة فنية ، ويعلمون ويعلم الناظرون إليها أنها من قبيل الصور الخولية أو « الكاريكاتور » ، ولا يطلبون من الإنسانية أن تحلها في محل فنونها وأن تنبذ المنطق في سبيلها . فإذا كان لابد من هذه اللامنتقية في الآداب العربية فنلها منها ما يغنيها ولها فيها مجال لا يخرج بالعقل من دائرة العقل ولا بالجنون من دائرة الجنون .

الشعر أسبق أم النثر؟

السيد جوردان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة في إحدى روايات « مولير » التي استوى بها على عرش الفكاهة المسرحية في الآداب الفرنسية ..

ومبدار الفكاهة في شخصية جوردان أنه غنى من محدثي النعمة أراد أن يشبه بالنبلاء فامتد له معلمين يعلمونه الرقص والمسابقة والبلاغة ، وجاء بالطرائف التي لا تحط على البال وهو يحاول أن يفهم دروسهم ويعقب على شروحهم وأقوالهم ، فإذا هو كما قال يتكلم « النثر » طوال حياته ولا يعرف ذلك حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فخیل إليه أن النثر هو ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخیل إذن أن كلامه طول حياته داخل في ذلك التعريف ، وأنه كاد أن يقضى بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة .. لولا أنه تلقى الخبر أخيراً من الأستاذ .

أراد موليير أن يجعل السيد « جوردان » مضحكا بهذه العبارة فأطلق فيها أراد وضحك الناس مما قال ، لأنهم أدركوا على البديهة من غير تطويل في البحث والاستقصاء أن السيد « جوردان » مخطئ في تصوره الساذج ، وأن النثر شيء غير مجرد الكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الشعر : وهو الكلام الموزون المنظوم .

فإذا لم يكن الكلام شعرا فليس من الضروري اللزم في هذه الحالة أن يكون نثرا لا محالة ، قد يكون كلاما وليس بشعر وليس بنثر ، لأن المقصود بالنثر هو التعبير الأدبي في غير نظم أو وزن من أوزان البحور الشعرية ، وقد يتكلم الإنسان طول حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ، إذا كان كلامه خلوا من التعبير الأدبي في المنظوم والمثور .

وإذا سأل السائل : أيها أسبق ، الكلام أم الشعر ؟ فلا محل للخلاف ولا لإطالة الروية قبل الجواب ، فإن اللغة سابقة للكلام المنظوم والكلام المثور على السواء ، ولكن السؤال الذي يقع عليه الخلاف هو : أيها أسبق ، الشعر أم النثر ؟ ونعتقد نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمن طويل ، نعتقد هذا ولا نحسب أن الدليل القاطع في تقرير هذا الرأي مستطاع ، ولكنه رأى يقوم على القرائن التاريخية والقرائن النظرية ، ولا ينقصه من الواقع شيء معلوم حتى الآن .

فن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب ومن النثرين على العموم ، إذا صرفنا النظر عن الكلام المكتوب أو المحفوظ في الأوراق .

فشعراء العرب في الجاهلية لا يسبقهم ناثر ، ولا يحفظ العرب كلاما مثورا بقرن تاريخه بالتاريخ الذي نظموا فيه قصائدهم المروية ، وما بقى من كلام الكهان المسجوع فهو - إن صح - أدل على قدم الشعر والقافية ، لأن الكلام الملقى محاكاة للشعر الذي تلتزم فيه الأوزان

أ والقوافي ، ودليل على سبق الكلام للنظم للكلام المنشور ، ولم يثبت قط أن الشعر هو سجع متطور ، لأن التاريخ لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر من العصور ليس فيه شعر ، ولم نعرف عن الشعراء في أقدم العصور أنهم سجعوا ثم تطوروا فنظموا ، ولم تزل اسجاع الكهانة غير أوزان « الشاعرية » في طبيعتها وموضوعها ، فالكاهن لا يتدرج من السجع إلى النظم والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المراتة على الكلام المسجوع .

والآداب اليونانية هي مرجع الباحثين عن أوائل الآداب الأوربية القديمة ، وهي شاهد آخر على سبق النظم للنثر في جميع الآداب ، لأن « هوميروس » قد نشأ في زمن سابق للقرن السابع قبل الميلاد ، وكان من معاصريه في بعض الأحوال « أرشيلوكس » الذي أشار في قصائده إلى كسوف الشمس ، وحسب الفلكيون أنه كسوف أبريل سنة ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧١١ قبل الميلاد ، وليس في المحفوظات اليونانية كلام منشور يرجع إلى ما قبل التاريخ .. وكل ما بقي من الكلام المسجوع الذي يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيل سجع الكهان ، أو من قبيل السجع الذي يستعان به في الخطابة ، وأقدم ما ورد من ذكره لا يرجع إلى عصر سابق لعصر الناقد المعروف ثراسيما كوس Thrasymachus وهو من أبناء القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الأدب اللاتيني فقد كان من الواجب أن تنعكس فيه هذه القاعدة لأنه الأدب القديم الذي امتاز بالرسائل الماثورة لسعة أطراف الدولة وتجدد الحاجة إلى المراسلة بين سكان تلك الأطراف المترامية ، ومنهم الأدباء والبلغاء .

ولكن الثابت مع هذا أن الأغاني اللاتينية سابقة للملاحم والقصائد في لغة اللاتين بعد تطورها ، وأن مشاهير الشعراء سابقون لمشاهير البلغاء والكتاب وأصحاب الرسائل المتقاة ، ومنهم شيشرون الناقد الأديب الخطيب .

وما يؤثر عن قدم الشعر في الآداب العربية والأوربية شبيه بالماثور عن آداب الأمم الشرقية في جملتها ، فليس في آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيها الشعبية الأولى ، وكل محفوظاتها المسجوعة لاحقة بمحفوظاتها من الشعر الموزون .

وقد يخطر على البال أن السبب راجع إلى الحفظ لا إلى القدم ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق كما بقي الشعر ، لأن الكلام الموزون أيسر حفظا من الكلام المنشور . ولكنه خاطر مردود سهل نقضه بقليل من الروية فيه ، فإن سهولة الحفظ نفسها تحتاج إلى التعليل ، وليس

لها علة إلا أن يكون الكلام المحفوظ أقرب إلى الطباع وأدنى إلى الفطرة وأغنى عن الصناعة .
وأن الكلام الذى يصعب حفظه بغير التسجيل فى الورق يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكفى فيه الاعتماد على الفطرة ، فهو معلق بمعرفة الحروف ومعرفة الأدوات الكتابية وتطور المجتمع مع تطور الحاجة فيه إلى التدوين بغير الوسائل الفطرية ، وهى وسائل الحفظ والتحويل على الذاكرة .

وقد يبدو للسيد « جوردان » أن تأخر النثر عن النظم شئ غريب ، لأنه يخلط بين ظهور النثر وظهور اللغة ، وهى ولاشك سابقة لظهور الشعراء والبلغاء .
لكن السيد جوردان مضحك كما أراده مولير ، ومضحك كما رأينا من فهمه لكل شئ ، فالواقع أن تأخر النثر عن النظم ترتيب طبيعى لا غرابة فيه ، إذ كانت شروط الشعر توافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ، ويكفى لظهور الشعر أن تظهر فى إنسان من الناس ملكة غنائية ، وهى من أقدم الملكات فى الأحياء ، أما الكلام المنثور فما الحاجة إليه فى المجتمعات الأولى ؟ وما أكثر الشروط الصناعية التى ينبغى أن تتوافر فى المجتمع قبل شعوره بالحاجة إليه ! ولا يخلط بين الخطيب والنثر فهما شيان مختلفان ، فإن الخطابة فى المجتمعات الأولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صفة الناثر البليغ ، ولكننا - على فرض التشابه بين الخطابة والنثر - قد تصور ظهور الشاعر قبل ظهور الخطيب والناثر ، لأن ملكة الشعر لا تتوقف على نشوء « القبيلة السياسية » التى تستمع إلى الخطباء فى شؤونها العامة ، بل لعلها توجد مع الدوافع الحيوية التى تهتم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات .
والغالب أن الشعر فطرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث إلى الكلام البليغ يأتى بعد الباعث إلى الغناء ، فقد تغنى الحى الذى لا يتكلم ، وليس بالعقول أن يصل الحيوان الناطق إلى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه فى النغم الموزون .

* * *

فى حديث مروى عن استاذ المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك - رحمه الله - أنه كان يعجب للذين يعرضون بين المقامات الموسيقية وعناوين النغمات ، وأنه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل أن يميز بين الحروف وأنواع الحظوظ ، وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فإن الأخرى أن يقال أن المغنى الذى لا يعرف أسماء المقامات والأنغام كالشاعر الذى لا يعرف أسماء البحور والأعريض .

وقد وجد الغناء قبل أن توجد أسماء مقاماته وأنغامه ، ووجد الشعر قبل أن توجد أسماء بحوره وأعاريصه ..

لكن العجيب حقا هو أن يوجد نثر قبل أن توجد الحاجة إلى التدوين ، فحيثما وجد النثر فهناك جماعة تحتاج إلى تدوين الكلام ، ولولم يكن صاحب النثر نفسه هو الذى يدون ما يقول ، بالحروف أو بغير الحروف .

ولهذا نرى أن سبق الشعر لا عجب فيه ، وأن سبق النثر فيه شيء من العجب ، وأن أولاهما بالسبق هو أغناهما عن الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدرهما على الاكتفاء بالفطرة على أبسط ما تكون .

الشعر لازم

الشعر لازم فى عامنا هذا كما كان لازما فيما سلف من ألوف السنين ومئات العصور . لا ينقص من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل .. بل هو أئزم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها أخواتها من صفائح الحديد والخشب وآلات النار والكهرباء .

وكما غلبت المادة وصفائحها وآلاتها تحس الإنسان مكان روحه ، وارتد إلى قرارة عواطفه ووجدانه ، يطمئن على نفسه : ألا يزال إنسانا بعد ، أو هو قد فقد الإنسانية فى كيانه وصار مع الصاروخ وأخواته آلة من الآلات ، وقطعة من الخشب والحديد ، وشواظا من النار والكهرباء .

وما كانت بالإنسان حاجة إلى أن يتلمس دخيلة حياته بين جنبيه ، يوم كانت عشرته من الأحياء ، وطعامه من خيرات الأحياء ، ومقامه بين صنوف الأحياء ، ورحلته على متون الأحياء .

ولكنه فى عصر الصاروخ ، أحوج ما يكون أن يتلمس موطن تلك الحياة ، وأن يستمع إلى نجوى قواده بلسان الحياة ، وأن ينظم الشعر ويحن إلى النغم ويشهد صور الجمال والعطف فى كل منظور ومسموع .

وما كان الصاروخ ليحل محل الشعر وأخواته من فنون الجمال ، إذ كان الناس لم ينظموا الشعر لأنهم بحثوا عن الصاروخ فلم يجدوه ، وإنما نظموا لأنهم يحسون وينطقون ولأنهم يترقون مع الزمن فيزداد النطق عندهم بالجمال ، ويحسن الإنسان من التعبير الجميل ما لم يحسنه الحيوان ، ويستطيع من النظم ما ليس يستطيعه الطير بالتفريد ، ولا الخيل بالصهيل ولا سباع الغاب بالزئير .

ولئن سبق الصاروخ الطائرة لن يسبق الصاروخ سبحات الحيات ..
لقد سبقه الخيال يوم تحدث للإنسان عن حصان الأبنوس ، وعن أجنحة واق الواق ، وسبقه الخيال فأمل على الصانع كيف يكون الطيران بالقوة ، وكيف يكون الطيران بالخفة ، وقد كان العلماء يجزمون جزم اليقين إلا طيران في الهواء بغير أداة أخف من الهواء ، عجزا منهم عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز الخيال ، وإنما هي القوة يطير بها ذو الجناح كما يطير بها الحصان الطيار .

إن الشعر لازم للإنسان الناطق ، ما دام ينطق ويعقل ويترقى بالنطق في معارج الكمال ومعارض الجمال .

إن الشعر ألزم ما يكون للإنسان في عصر الصواريخ ..
وإن حفاوتنا به في هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ وتعليه ، لأنه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها الإنسان كيف يكون إنسانا بالنطق الساحر واللسان المبين .
وفي الغرب الذي يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة ، وآيات كهذه الآية ، تنويعها بلزوم الشعر وعنوانا على اللهج به والحرص عليه .

في السنوات الست الأخيرات - سنوات الصاروخ - صارت الجائزة العالمية للأدب إلى ستة من الأدباء : خمسة منهم شعراء ، وهم خيمينيز الأسباني ، وباسترنك الرومي وكوسيميدو الايطالي وبيرس الفرنسي وسيفريس اليوناني .
ومهما يكن من الرأي في إنصاف جائزة نوبل العالمية ، أو في نظرتها الناقدة إلى الآداب والفنون فلا نكران عليها أنها علامة من علامات الزمن بصوابه ونخطئه ، وبما يراه من لزوم وما لا يراه .

ولا علامة للشعر اللازم في هذا الزمن ، أصدق من العلامة التي تدل على أم خمس :
بينها من المشابهات والفوارق ما بين الأسبان والروس والطلبان والفرنسين واليونان .

إذا لزم الشعر في لغة من اللغات فإنما يلزم لألزم ما فيه وألزم ما في الشعر أنه فن من الفنون .

والزم ما في الفن أنه ذو قواعد وأصول ، توأم في كل لغة ما طبعت عليه تلك اللغة ، وتوأمه في اللغة العربية - خاصة - أنها لغة الوزن في كل كلمة وفي كل صيغة ، فليست فيها كلمة واحدة تنزل من وزن اشتقاق أو وزن سماع .. لا شعر بغير فن .. ولا فن بغير قاعدة . والذين يقولون بغير ذلك يقولون عجا يستغربه السامع ويستغرب الذي يسمع ويفقه ما يقال كيف يصنع إليه السمع وكيف يستجيب له الفهم ، وكيف يتكرر بعد تكرار اللسان فيه .

يقولون إن قواعد الوزن تدعو الإنسان أن يقول ما لا يلزم ، تكلمة للوزن حيث لا محل له من الكلام .

هل يقال هذا في الشعر وحده أو يقال في شتى الفنون عندنا وعند غيرنا من العالمين ؟ ماذا يصنع منشد الغناء ؟

ماذا يصنع الراقص في حركات يديه وقدميه ؟

ماذا يصنع الموسيقار في صوته المرسل بغير كلام ؟

ألا يزيد المعنى في غنائه ليطابق فيه بين الألفاظ والألحان ؟

أنبطل الألحان لأنها تسومننا للد في الصوت وراء ما يلزم .. كما يقال ! أولأنها تسومننا الزيادة في الحروف والكلمات وراء ما تتم به جملة المبتدأ والخبر أو جملة الفعل والفاعل ، أو جملة المحمول والموضوع ؟

أنبطل الرقصة التي تسوم الماشي أن يخطو فوق خطوه أو يقصر عنه باختياريه ؟

إن الفنان لا يضع في مده أو زيادته غير ما يلزم ، بل غير اللازم قبل كل لزوم : وهو رعاية الفن والقاعدة في الفنون وليس الوزن زيادة في المقال بل هو قوام المقال كله ، إلا أن يكون من غير الفنون . وإنما الشعر تفاعل كامل بين اللفظ والمعنى وقاعدة القواعد الفنية في وزن أو نظام مقدور .

وملكة الشاعر هي الملكة التي تقدر على هذا التفاعل بغير حشو أو فضول ، أو يكون الحشو والفضول - إن كانا - زيادة للمعنى وتوكيدا للأثر ، لا وقرا محملا عليه ، ولا فضولا ملصقا به ، ولا لغوا مضافا إليه .

وكل بيت في الشعر المطبوع آية على صدق هذا التفاعل التام بين الألفاظ والمعاني والأوزان ، وآية على لزوم الوزن كلزوم لفظ الشعر ومعناه .
أمامنا مثل من أبيات لامرئ القيس وصفا للفرس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتزل

لا شك أن كلمات « الهيكل » و « من عل » و « المتزل » قد جاءت لوزن القافية اللامية .
ولكن هل هي زائدة ؟ كلا .. ونجرب حذف الهيكل لنرى كيف ينقص المعنى والاثر ، ولو كان من الكلام المتشور .

نقول مثلاً : « إننا نغدو مبكرين قبل نهوض الطير بمنجرد قيد الأوابد .. » .
فنسمع وصفا للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والحجم والمنظر ، وإنما يتم ذلك كله حين نقول إنه قيد الأوابد هيكل . أى أنه ضخيم جسم .
ولقد يقال أن كلمة أخرى تحمل محل « هيكل » حين نقول « ضخيم أو جسم أو ممكن » .
فهل ترانا نشعر بأثر لهذه الكلمات كما شعرنا بأثر الهيكل فيما حققته الكلمة من وصف الجسامة والصورة والمثال ؟

جواب ذلك عند من يهتمون القافية بزيادة الفضول ، إن لم يكن جوابهم هنا من فضول المقال .

ونأتى بعد ذلك إلى كلمة « من عل » وهى التى تم وصف الجلود وهو ينحط مع السيل ،
فهل يتم الأثر بحذف هذه الكلمة ؟ هل التذكير بالخطاط الحجر من الأعلى فضول وزيادة بغير مدلول ؟

وهل ذكر المطردون وصفه بالمتزل تنزيه للبيت من اللغو أو هو مما يتم هذا الوصف للمطر بالمتزل والزلل عن متن الصفواء في هذه الحال .

وأبيات غير هذه الأبيات من كلام المعري يقول فيها مفتخرا :

ألا في سبيل المجد أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

أعندى وقد مارست كل خفية يصدق واش أو ينجيب سائل
تعد ذنوبى عند قوم كثيرة ولا ذنب لى إلا العلا والفضائل

فما لاشك فيه أن النائل والسائل والفضائل قد جاءت فى مواضعها هنا لأن القافية لامية .

ولكن لماذا نغيرها لضرورة المعنى ؟

ولماذا نقول معنى غير هذه المعانى التى تودى بهذا النظم وهذه القافية ؟
ولماذا نعدد فضائل أخرى تريد على هذا العدد أو تنقص منه ، بعد ذكر العفاف والإقدام
والحزن والنائل . ؟ وإذا كانت كلمة العطاء مثلا تودى معنى كلمة النائل ، فلماذا نفضلها
عليها ؟

ويقول ابن الرومى فى وصف مغن كريبه الصوت والغناء :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لافى غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جاور الطنبور محتفلا صوت بمصر وضرب فى خراسان

فما لاشك فيه أن خراسان جاءت هنا وزانا لصبيان ، بل لاشك أن « محتفلا » فى الشطر
الأول كلمة لازمة لتتام البيت ..

لكن الشاعر قد يقول بدلا من الشطر الثانى : « صوت بمصر وإيقاع ببغداد » إذا كانت
القافية دالية .. فما الذى يختلف بين هذين الاسمين ؟

وقد يحذف النائر كلمة « محتفلا » بعد الطنبور فيقول : له إذا تناول الطنبور صوت هنا
وضرب هناك .. فهل يكسب البيت بحذف هذه الكلمة ويقوى ؟ أو ينحسر ويضعف ؟
إن كلمة « محتفلا » تصور لنا اجتهاد المغنى وتأهبه يجلسه وإيماءه واستعداد السامعين
للاصغاء إلى شىء حسن ، فإذا بهم يفاجأون بالصوت الردىء ، فلا يكون أثره فى نفوسهم
كأثره فيها وهم لا يرون ذلك الاحتفال ولا ينتظرون بعده الاتقان والكمال .. فما جاءت
« محتفلا » هنا فضولا لأجل الوزن ، بل كان تفاعل الكلمة مع الوزن سببا لاستدراك نقص
واستكمال أثر ، لم يكن لها فى النثر من داع منه لهذا الاستدراك .
إننا نردد اليقين بالشعر اللازم والفن الأثر ..

لزوما يتم فيه المعنى واللفظ بالوزن والقافية ، وتؤدي فيه ملكة الشاعر المطبوع عملها « تفاعلا » حيا بين نغماته وحروفه وكلماته ، تتزوج فيه جميعا لتزداد بلاغة في الأثر وايناسا للسمع ، واشباعا للاداء ، ونفيا للفضول ، وتجاوبا بين الوقع والإيقاع .. وعلى ذلك جبلت ملكة الشاعر المطبوع . من رزقها قال وتغنى وأفهم وأثر ، ومن لم يرزقها فلا حق له في قول الشعر ولا في القول فيه ، ولأن يسكت فلا يقول شعرا ولا يقول عن شعر خير له وللناس ، وخير للشعر والفن وللعقول والأسماع .

التجديد في الشعر

إذا أوجزنا قلنا أن التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبر عن شعوره ويصدق في تعبيره فهو مجدد وإن تناول أقدم الأشياء ، هل شيء في هذا العالم الأرضي أقدم من الشمس ؟ إن الذي يصفها اليوم صادقا في وصفه غير مقلد في تصويره مجدد تمام التجديد ، وإن لم يأت بكلام جديد .

هكذا تجدد الشمس النهار ، وتجدد الأرض الربيع ، وتجدد الشباب الأمل والحب جيلا بعد جيل .

وليست الدنيا عتيقة بالية لأنها تمحيثنا كل عام بربيع كالربيع الذي تقدمه ، وليس الشاعر عتيقا باليا لأنه يمحيثنا بذلك الربيع كما جاءت به الدنيا في حينه ، موصوفا على الصورة التي عهدا آدم في جنة الفردوس ، ثم عهدا أبنائهم في جنتهم على هذه الغبراء ! .. التجديد - في كلمتين - هو اجتناب التقليد .

أما إذا تعمدنا الإسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميعا فهي مختلفة في قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الأصح في حاجتها إلى التجديد .

هذه العناصر هي اللفظ والوزن والموضوع ، وهي على هذا الترتيب في حاجتها إلى التجديد مع الزمن : فاللفظ الذي يتألف منه الشرييق ألف سنة ولا يطرأ عليه تغيير يذكر ، ويصلح في هذه الحالة لشعر امرئ القيس كما يصلح لشعر البارودي ، مع قليل من التحوير الذي لا يلتفت إليه إلا المختصون بتسجيل أطوار الكلمات .

ونعنى باللفظ هنا المفردات فى غير الجمل والأبيات ، وهى المفردات التى تطرأ عليها الزيادة القليلة كل بضعة قرون ، أو يطرأ عليها اختلاف الاستعمال من فترة إلى فترة فى حياة اللغة الواحدة ، ولابد للشاعر من متابعة هذه الأطوار وقد يكون هو عاملاً من عوامل الزيادة والتصرف فى الكلمات .

إلا أن الجهد فى تجديد المفردات يظل على الدوام أقل وأهون من الجهد فى تجديد الأوزان وتجديد الموضوعات ، فالمعجم الشعرى اليوم قريب من المعجم الشعرى فى عهد أصحاب المعلقات ، أما الوزن فقد اختلف فى عدد البحور ، واختلف فى عدد القوافى ، ولا يزال قابلاً للاختلاف ، وفى حاجة إلى الاختلاف .

كانت أوزان الشعر فى الجاهلية قليلة البحور ، وكانت القصيدة الواحدة قليلة الأبيات ، ثم تعددت البحور ومجزوءاتها ، وتضاعف عدد الأبيات فى القصيدة الواحدة ، وطراً التنوع على القافية فى الرجز ثم فى التسميط والتوشيح ، ثم انتهينا إلى العصر الحديث فظهر بيننا من دعاة التجديد من يدعو إلى إلغاء القافية ونظم الشعر مرسلاً أو مطلقاً على الطريقة الأوربية ، ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح ، ولا نظنها جديرة بالنجاح فى المستقبل ، لأن أعاريض الشعر العربى تستلزم القافية من حيث لا تلزم فى الأعاريض الأوربية ، وقد يكون الإطلاق من القافية فى الأعاريض الأوربية نفسها مقصوداً على المطولات والملاحم التى تصلح للقراءة وقلماً تصلح للسمع ، والشعر قبل كل شئ سماع .

والذى نعتقد أنه أنشعر به ، إن تنوع القوافى أوفق للشعر العربى من إرساله بغير قافية ، وأنه يقبل التنوع فى أوزان المصاريح والمقطوعات على أسلوب الموشحات ، فيتسع للمعاني المختلفة والموضوعات المطولة ، ولا يفصل عن الموسيقى التى نشأ فيها ودرج عليها ، ولعلنا لا نحتاج إلى تيسير أوسع من هذا التيسير ، كائناً ما كان موضوع القصيد وإن طال غاية المطال .

تجديد قليل فى اللفظ ، وتجديد أكثر منه فى الوزن ، وتجديد أكثر من هذين التجديدين فى الموضوع ، فكيف يكون هذا التجديد فى الموضوع ؟

إن صرف الشعر إلى الاجتماعيات والأحداث العامة رأى من الآراء فى تجديد الموضوعات الشعرية ، ويقترن به رأى آخر ينادى بالطابع الإقليمى فى الشعر خاصة وفى الأدب عامة ، ويقول آخرون بالشعر المسرحى أو شعر القصة المسرحية وغير المسرحية ، وكل هذه الآراء مقبولة

من ناحية مرفوضة من ناحية ، لأن العبرة في الشعر بالملكة التي توحى معانيه ، وليست العبرة بالعنوان الذي نختاره لموضوعاته ، كعنوان المسرحية أو عنوان الشعر الإقليمي ، أو عنوان الشؤون الاجتماعية والمسائل العالمية .

ونحن إذا نظرنا إلى الشعر من ناحية الملكة التي توحى وجدنا أن ملكة الشعر الغنائى قد لازمت القصيدة العربية من نشأتها الأولى ، فهي تتردد بين نغفات الغزل والفخر والحماسة والثناء ، أو تتردد بين ألوان الشعور الفردى البسيط ، ويندر أن تتخطاه إلى الشعور المركب المتوشح ، وهو الشعور المتجاوب بين عدة نفوس على عدة أمزجة وفى عدة حالات . فإذا كان للتجديد فى موضوع الشعر وجهة ، فهذه هى الوجهة التى أمامنا ، ولكن سبيلها الرواية المسرحية أو الحادثة العالمية أو الأوصاف الإقليمية ، فإنما العبرة بالملكة التى توحى المعانى فى جميع الموضوعات ، وليست العبرة بالعناوين التى تحملها على هذه الموضوعات . والفرق بين الشعر الغنائى والشعر المركب المتجاوب هو الفرق بين الرابة وبين الفرقة الموسيقية التى نسمع منها عشرات المعازف فى نغفات متعددة مع التناسق بينها والوحدة فى مجموعها ، وبينغى أن نذكر هنا أن التنوع والتجاوب هما المقصودان بالتصرف والتجديد ، وليس المقصود هو كثرة الآلات التى نعزف عليها فى وقت واحد ، فإن ألف رابة توقع لنا لحنا واحدا هى أسلوب ساذج بغير تصرف ، وقد يكون التصرف كل التصرف فى رابة ومزمار ودف وبيان تختلف وتتجاوب وتلح فى الارتفاع بالشعور من البساطة والانفراد إلى التجاوب والتركيب .

ولكن الحير أن نبقي كما نحن ، وأن نقصر نظمنا على الشعر الغنائى ، إذا كنا ننظم فى الموضوعات الجديدة تقليدا للذين سبقونا إلى النظم فيها ، فإن التقليد نقض التجديد ، والدرهم الصحيح أنفس من الدينار الزائف يحكى الذهب باللون والصورة ولا يحكىه بالمعدن والقيمة .

ومن أمثلة الدعوات الزائفة إلى التجديد أن يسمع بعضنا بالشعر الإقليمي فى اللغة الإنجليزية - وأكثره من شعر الأمريكيين - فيخطر له أن الشعر الإقليمي لاختراع واختيار ، وينسى أنه واقع طبيعى لا محل لفرضه على الشعراء ، حيث لا تفرضه عليهم طبيعة الحياة ، وفى أمريكا أقاليم لا تشابه فى الموقع ولا فى المكان ولا فى المعيشة ، فهم لا يختارون الإقليمية فى الشعر ولا فى الجغرافية ، ونحن هنا لن نستطيع أن نزرع قمحا فى التربة المصرية دون أن يصح

فمحا إقليما باختيارنا أو بغير اختيارنا ، ومن قال لشاعر : كن إقليما فبقد قال له كن مقلدا ، ولكنه إذا كان من طبيعته متميا إلى أقلية فلا حاجة به إلى الأمر والإرشاد .

كذلك يقول بعضهم متعجبا : هل توحى حرب طروادة إلى هوميروس بالالباذة ولا تظهر في العصر الحديث الياذة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟

ولو كان هؤلاء القائلون يفهمون وحى الابتكار في الشعر لما خطر لهم أن شاعرا عصريا ينبغي أن ينظم الياذة في الحرب العالمية ، لأن شاعرا قديما نظم الياذة في حرب طروادة ، من أين لهم مثلا أن هوميروس كان ينظم في الحرب العالمية الياذة لو أنه عاش في زماننا ؟ من أين لهم أن ضخامة الحرب هي التي توحى بالنظم فيها ؟ قد تكون الحرب بين عشرين فارسا متقابلين أعنف في إثارة النفس من حرب الملايين بين الخنادق لا يشهد بعضهم بعضا ولا يعرفون من الحركة غير ضغط الزناد !

كذلك لا يفقه التجديد من يحسب أن الشعر المسرحي حيث كان أرفع من الشعر الغنائي في كل موضوع ، فإن الشاعر المسرحي الذي لا يرسم لك شخصية واحدة صحيحة أقل من الشاعر الغنائي الذي يتحدث لك عن غناء البلبل فيصدقك الحديث والشعور ، فكل فضل الشاعر في الملكة التي توحى إليه شعره دون العناوين التي يطلقها على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر المسرحي على الشاعر الغنائي إلا لأن الشاعر المسرحي يستطيع شعر الغناء ويستطيع زيادة عليه ، وهذه الزيادة عليه هي الحس المتجاوب في النفوس المتعددة ، فإن كان يملك هذا الحس فهو صاحب الفضل بهذه الملكة أيا كان الموضوع الذي يختاره لنظمه ، وإن لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكة هو محروم منها .

وإذا كان التجديد هو اجتناب التقليد فالتجديد كذلك هو اجتناب الاختلاق ، والمختلق هو كل من يجدد ليخالف ، وإن لم يكن هناك موجب للخلاف ، ان الذي يمشى على يديه يأتي يجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشى على قدميه ، ولكننا قد نضع في يده درهما وقد ترج به في مستشفى المجاذيب ، ولا نمشي على الأيدي من أجل تلك البراعة وذلك الاختلاف أو الاختلاق .

نجدد فلا نقلد ولا نخلق ، ونحن مجددون كما ينبغي - وكأحسن ما ينبغي - إذا خرجنا بالشعر العربي من لحن الراباة إلى لحن الفرقة الموسيقية ، شعورا منا بتعدد النغمات النفسية ، لا لجرد المباهاة بكثرة المعازف وارتفاع الضجيج .

أدب وفن

من هو الأديب ؟

كان جماعة من « الأدباء » يتحدثون عن وظيفة الأدب الاجتماعية ، فاختلّفوا في الفرق بين وظيفة الأديب في المجتمعات القديمة ووظيفته في مجتمعاتنا العصرية ، فخطر لي أن أسألهم : ومن هو الأديب في المجتمعات القديمة ؟ .

إننا نتكلم عن الأدب في المجتمعات قديمها وحديثها كأن الأدب بمعناه الذي نعرفه اليوم قد كان معروفا هكذا بين جميع الأمم وفي جميع الأزمنة ، وهو ولا شك خطأ لا يصمد لأول سؤال .

فأنت إذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلوني على رجل من أدبائكم لم يجهلوا ما تريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف الأديب كما تعنيه .. ولكن على من يدلك أهل الجاهلية مثلا إذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلوني على واحد من أدبائكم ؟ .

إنهم لا يدلونك على الشاعر ، ولا على الراوية ، ولا على النسابة ، ولا على الخطيب ، وإن كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل في نطاق صناعة الأدب في الأزمنة الحديثة . ولو أنك سألت عن أديب في صدر الإسلام لفهموا أنك تقصد إنسانا بريئا من العنجهية البدوية واللوثة الأعرابية :

وإني على ما في من عنجهية ولوثة أعرابي لأديب

وقد تتحدث إلى هذا الأديب الذي يدلونك عليه فيخوض معك في سمر شاق وطرائف شتى من أطايب الحديث ، ولكنه قد يرضيك من هذه الوجهة ولا يحسب في زمنه من أهل

العلم ، ولا يحسب في الزمن الحديث من زمرة الأدباء .
ولعلمهم يدلونك على مثله في أنس محضره وظرف معشره لو أنك تزلت بمصر أو بقطر من
أقطار العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، وسألتهم أن يجمعوك بأديب من الأدباء .
أما معنى الأديب كما نفهمه اليوم ، فهو من المعاني المستحدثة التي تطورت فترة بعد فترة في
العصور الأخيرة ، فكان الأوروبيون يفهمون من مقابل هذه الكلمة Man of letters أنه
رجل مطلع على الكتب دارس للعلوم ، لان دراسة الكتب على اختلافها كانت هي الفارق
بين العلماء والجهلاء ، ثم شاعت الدراسة وتوعدت فعرّفوا الفرق بين عشرات من الموضوعات
التي يطلع عليها الدارسون ، ومنها الموضوع الذي خصص لمعنى الأدب بمدلوله المصطلح عليه
في هذه الأيام ..

ولكن ما هو هذا المدلول ؟ ومرة أخرى من هو الأديب ؟
أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهو ناقد الشعر ؟ أهو المطلع على سير الأدباء والقصاصين
والنقاد ؟

إنك إذا قلت « فلان شاعر » فقد وصفته بغير حاجة إلى وصف الأدب بعد ذلك ،
وكذلك تصف « القصاص » .. سواء كتب القصة المطولة أو النادرة القصيرة ..
فإذا قلت عن العارف بالشعر والقصاص أنه أديب قيل لك : حسن ! ولكن ما الفرق بين
مؤرخ الأدب وناقد الأدب وبين الأديب ؟

حيث يلوّح لك أن دليلك القديم لم يكن على ضلال بعيد ..
ونعني بالدليل القديم ذلك المرشد الذي كنت تسأله في العصور الأولى أن يرشدك إلى أديب
فيذهب بك إلى رجل حسن الحديث ..

فالأديب بكلمة واحدة هو « المحدث » في جميع العصور ، وقيمه في كل عصر تختلف
باختلاف حديثه ومن يحدّثه ومن يتطلب منه الحديث ، سواء كان حديثه مما تسمعه الآذان أم
تعبه الأعين في صفحات الأوراق .

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميزه من الشاعر ، ومن القصصي ، ومن الناقد ، ومن
مؤرخ الآداب .. أيكون الأديب شاعرا ؟ أيكون قصاصا ؟ أيكون ناقدا للشعر والقصة ؟ ..
أيكون عالما مطالعا على تاريخ هؤلاء وتواريخ غيرهم ممن يحفل بهم التاريخ .
نعم ، ولكنه في هذه الحالة يكون شاعرا وأديبا ، أو قصاصا وأديبا ، أو ناقدا وأديبا ،

أو مؤرخا وأديبا .. ولا يلزم حتماً أن يكون واحداً من هؤلاء ليقال أنه أديب ، فهو محدث حسن الحديث أياً كان موضوع الحديث ، وأية كانت صفاته الأخرى التي تقرن بحسن الحديث .

وبهذا المعنى كان أديب الزمن القديم محدثاً في مجلس الصحب أو محدثاً في مجلس الأمير .. وهذا المعنى أصبح أديب الزمن الحاضر محدثاً لقرائه ومستمعيه ، ولو لم يجمعه بهم مجلس أو مقام .

ولم تنزل بوظيفة الأديب لأننا جعلناه « محدثاً » في العصور الأولى أوفى هذه العصور .. فإنما العبرة بما يقال وبمن يقال لهم في جميع الأحاديث .

فمن الناس من يتحدث ليعلم ويهذب ، ومنهم من يتحدث ليضرب للناس أمثال البطولة والشرف ، ومنهم من يتحدث ليرجح عن النفس ، ومن يتحدث ليكشف للنفس سريرتها ، ومن يتحدث ليسلى ويلهى ، ومن يسلى ويلهى كرام الناس ، ومن يقصد بالتسلية واللغو غير هؤلاء الكرام .

وكلهم على هذا المعنى أديب ، ولكن شتان شتان بين أديب وأديب .. فلا يتزل الأدب لأنه حديث ..

وإنما يتزل الأدب إذا تزل موضوعه ومن يستمع إليه ..

وقد تزل الأدب في عصرنا هذا وصعد على جميع هذه الدرجات ، فكان من أدباء العربية في أوائل القرن العشرين من يوصف بالأدب لأنه سمير مجلس ، ثم شهدنا من أدباء العربية في أيامنا هذه من يتحدث قراءه جميعاً كما يشاء فيجد من يصفى إليه ، وكل ما تغير بين أمس واليوم أن الحديث كان بالأمس موقوفاً على سامع واحد أو سامعين قلائل ، فأصبح اليوم موجهاً إلى مئات ألوف ، لعلهم لا يجتمعون بالمتحدث في مكان .

وربما صح أن شيئاً آخر قد تغير بهذا الصدد ، وهو أن الأدب - حيثما كان بضاعة ينتظر الجزاء - لم يكن ينتظر جزاءه فيما مضى من غير الآحاد القلائل ، وأن الأديب كان يدون أحاديثه في الورق ليقرأه كل من حصل عليه ، ولكنه لا ينتظر الجزاء الذي يغنيه في عيشه من هؤلاء القراء ، وإنما ينتظره من فرد يتصل به ويعول عليه .

أما اليوم فالأديب على تقيض ما كان بالأمس ، إنه ينتظر هذا الجزاء ممن يوجه إليهم حديثه على يد المطبعة أو المذيع ، وهم مئات وألوف في وطنه وفي غير وطنه وفي زمنه وغير

زمنه ، لا يلقاهم ولا يلقونه في أغلب الأحوال .
 وذلك هو باب الخير الكثير .. وذلك أيضا هو باب الشر المستطير ..
 لأن استغناء الأديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب الاستقلال في المعيشة
 والاستقلال بالرأى ، والاستقلال بالشعور .
 إلا أنه قد يغنى عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهذه الجماعة أو تلك ، واستعباد الجماعة شر
 من استعباد الآحاد .

وليس من الختم أن تستعبد الجماعة محدثها ، لأن الجماعة طوائف شتى من الناس ، ولن
 يحدث هذه الطوائف أن ينص الحديث لمن شاء منها ويضن به على غيره ، وأن يقنع بالمذهب
 الكريم من سامعيه ويطوى كشحه عن سواه ، فله ولا شك أن يختار وإن صعبت عليه الموازنة
 بين أسباب الاختيار .

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حين يشاء ، فيتحدث « المحدث »
 العصري وحده ، كأنما يتحدث لنفسه .. ويسمعه من يريدون أن يسمعوه ، وهو لا يأخذ نفسه
 بكلفة المجلس في محضر الأمير أو أشباه الأمير .
 وهو على كل حال « محدث » على نمط العصر وأسلوبه ، وخليفة للمحدث القديم على
 ما كان لعصره من نمط وأسلوب .

وليس لوظيفة الأدب في اعتقادنا تعريف أصدق من هذا التعريف ، فإنه هو التعريف
 الوحيد الذي يزيل اللبس بينه وبين الشاعر والرواية والناقد والمؤرخ ، ولا يمنعه مع ذلك أن
 يأخذ بسهم أوسهم من جميع هذه الفنون ، على اعتبار أنه مادة من مواد الحديث .
 فمن هو الأديب في كل عصر من العصور ؟ هو المحدث في كل مجتمع ، على اختلاف
 العصور .. وتسأل مرة أخرى : هل الأدب إذن وظيفة اجتماعية ؟
 فإن أردت أن الحديث يجري بين متحدث ومستمع أو مستمعين فالأدب ولا شك وظيفة
 اجتماعية ..

ولكنك خليك أن لا تنسى بعد هذا أن الملكة الشخصية شرط لا معدى عنه في كل حديث
 كأننا ما كان قائله ومستمعوه ، فإن الناس جميعا أعضاء في بنية جماعة ، ولا يحسن المتحدث
 منهم إلا الآحاد المعدودين ..

كذلك لا تنس أن الأديب في مجتمع هذا العصر يستطيع أن يكلم نفسه ولا يحسب من الهانين بل من صفوة العقلاء .. أويضمن المستمعين إليه كلما كان حديثه لنفسه جديرا بالصغاء ..

الفن بين الصدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة للواقع .. ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف نطابقه ؟ هل نطابقه بإدراك الحواس ؟ أو نطابقه بالفاظ اللسان ؟ .. أو نطابقه بوعى القرينة والخيال ؟ كل أولئك مطابقة .. وكل مطابقة من هذه المطابقات صدق على حسب ذلك التعريف ، ولكنها على هذا تختلف فيما بينها أوسع اختلاف في التعبير والتشيل . فإذا رأيت مرجا من مروج الربيع صدقت في وصفه حين أقول أنه رقعة من الأرض ذرعا ألف ذراع ، يتخللها جدول ماء ، وفيها ثمر من فصيلة كذا وكذا وزهر من فصيلة كذا وكذا في علم النبات .. وصدقت في وصفه حين أقول أنه جميل مريح .. وصدقت في وصفه حين أقول أنه يتألق كما تتألق العيون ، ويزدهر كما تزدهر الوجنات ، ويفتر كما تفر الثغور ، وترح فيه النضرة كما يرح صفو الشباب في الصبايا الحسان ، وتتغنى فيه العصافير كما تتغنى الوصائف الثملات في الاعراس .. أما إذا قلت إنني رأيت فيه ثغورا ووجنات ، ولحت فيه أحداقا مؤتلفات ، واستخفي المرح من قدود حسانه ، وستطارني الطرب من ألحان عيدانه ، فما أنا بكاذب ، وما أنا بمخالف لما قلته في تلك العبارة التي أوردتها مورد التشبيه ، وكل ما هنالك أنني حذف الكافات والكائنات ، واعتمدت على فطنة السامع في فهم هذه التشبيهات .. فعبرت عن الواقع بأسلوب يختلف في اللفظ ولا يختلف في المدلول . إن كان هذا هو الكذب الذي أرادوه حين قالوا إن « أعذب الشعر أكذبه » فهذا هو الواقع بعينه فيما نراه .

وغاية ما فى الأمر أننا نطابق الواقع هنا بوعى القريحة والخيال ، ولا نحب أن نطابقه بلغة
الحس ، أو بلغة الحساب والإحصاء ..
وأيا كان نوع المطابقة فهو صدق على أية حال ..

* * *

مثل آخر قريب من هذا المثل ..
أعرابى غمر يغرب فى رحلة مهلكة فى مفازة موحشة ..
تسأله فيقول لك إنها عامرة بالفيلان والسعالى ، متجاوبة بأصداء الجن والعفاريت ، من
يسلكها لا يسلم من شر سكانها هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد كتب له عمر جديد ..
هذا الاعرابى الغمر كاذب إن شئت ، ولكن فى حساب واحد ، هو حساب الرحلات
الجغرافية والمباحث العلمية .

فإن الرحالين والباحثين يحويون تلك الصحراء ويعودون منها فيقولون وهم صادقون :
ما عثرنا فى تلك الصحراء بسعلاة ، وما السعلاة التى ذكرها الاعرابى مما يمكن العثور عليه ..
ولكنه إذا كذب فى حساب الجغرافيين ألفا من حساب آخر هو صادق فيه ، أو مطابق
للواقع فيما يدعيه ؟ ..

بلى ! هناك حساب هو صادق فيه كل الصدق ، مطابق للواقع كل المطابقة ، وهو
حساب الشعور والخيال ..

لأنه وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين الهلاك من الغول والسعلاة والهلاك من
الوحشة والانتقطاع ، وغاية ما فى الأمر أنه وصف الخوف مخدوفاً منه الكافات والكائنات ،
ولا يزال صادقا حين قال لنا : أن من يسلم من شر تلك المفازة فقد كتب له عمر جديد ..

وكذلك قل فى عرائس البحار ..

وكذلك قل فى كنوز الأرض وما يحرسها من المردة والشياطين ..

وكذلك قل فى همسات النسيم ونجوى الأنفاس ..

وكذلك قل فى كل واقع نطابقه بالشعور والخيال ، ولا تنقص المطابقة فيه على اللبس

والعيان ..

* * *

ونتقل إلى الشعر الذى يتمثل فيه هذا الضرب من الواقع فنذكر بيت أبى الطيب فى وصف الأسد :

ورد إذا ورد البحيرة شاريا ورد الفرات زئيره والنيل
فعلماء الطبيعة يقولون لك أنه كذب .. لأنهم يقيسون سرعة الصوت فى الهواء ، وسرعة الصوت فى الماء ، و يقيسون المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ، ويقدرّون النسبة التى يتخافت بها الصوت فيجدون أن زئير الأسد الذى وصفه أبو الطيب لا يصل إلى النيل ، ولا يصل إلى الفرات ..

أفكاذب أبو الطيب فيما وصف ؟ ..
إن قلت نعم مع علماء الطبيعة ، قلت لا على الأثر مع سامع ذلك الزئير ..
لأن زئير الأسد ملأ جوانب نفسه وشاع فى منافذ حسه ، فلم يدع فيها فراغا لغير الرهبة والحذر ..

ورهوة تملأ كل مكان فى دنياه ، خليقة أن تملأ كل مكان على وجه الأرض ، ولو فى الساعة التى ملأته الرهبة فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع فى لحظة من اللحظات ..

ولو أن أبا الطيب قال يومئذ فى وصف شعوره بزئير الأسد أنه وصل فى الدقيقة إلى بعد كذا من الأميال لما خالف الواقع فى حساب العلم الطبيعى ، ولكنه لا يذكر لنا شيئا عن الواقع فى طبيعة الشعور .

وهذا هو الواقع الذى يعنينا ويعنيه من وصف الأسد وزئيره ..
كذلك يقول البحرى فى وصف البناء السامق :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزة هائل
فيصيب فى تمثيل الذعر كما يحسبه الواقف على شرفات ذلك الصرح ولا يخطئ إلا من ناحية بعيدة من هذه الناحية ، لأنه يقول عن الحمام المذعور أنه يترنم ، ولترنم حال لا تشبه حال مذعور ..

ويقول أبو العلاء فى سخرية الموت والحياة .

رب لحد قد صار لحد مرارا ضاحك من تراحم الأضداد

والواقع أن اللحد لا يسخر ، ولكنه من حقه أن يسخر إذا استطاع ، وإن هناك سخرية في تعاقب الموتى على مكان واحد يكرهونه ، ويتراحمون عليه كأنهم يشتهونه ، فإذا أعرنا اللحد سخريننا فتحن لم نغير من السخرية ولا من الواقع ، ولكنها « استعارة » لا تضع معها الحقوق ! ..

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب ..

فلن يكون الفن جميلا إذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع ولكن أى واقع ؟ .. وأى مطابقة ؟ ..

الواقع في الشعور ، والمطابقة لذلك الشعور ، وهى مطابقة لا ريب فيها ، ومطابقة أصدق من كل مطابقة أخرى ، إذا كانت المطابقات الأخرى خلوا من تمثيل ما نشعر به وتؤديه في فن من الفنون ، سواء أديناه بالقلم أو بالريشة أو بالأزميل أو بالوتر والمزمار .. ويصدق على الواقع التاريخي ما يصدق على الواقع الحاضر أمامنا .. فن مثل لنا بطلا في غير عصره فأحسن تمثيله فهو صادق في الفن كاذب في التاريخ ، أو هو شاعر حسن ومؤرخ ردىء ، نلومه على كسله وجهله ، ولا ننكر عليه الصدق في حسه وخياله ولا القدرة على حسن تعبيره وتمثيله .. فمنحه درجة النجاح في الشعر ونضن عليه بها في التاريخ ..

وكل فن جميل ، فلن يكون كاذبا أبدا ، لأنه لا بد له من مطابقة الواقع ، على اختلاف صور المطابقة في الشعور ..

ولقد قيل عن أرواح شكسبير وعفاريته أنها لو برزت إلى عالم الحياة لما برزت في غير الصورة التي تصورها .. وما قيل عن المخلوقات الخيالية في شعر شكسبير يقال عن كل مخلوق خيالي يمثل لنا حالة نفسية نشعر بها وتصورها فيه ، لأنه ولد من شعورنا ، فإن لم يطابقه فلا صلة بيننا وبينه في عالم الحس ولا في عالم الخيال .

* * *

المدرسة الرمزية

١ - حب الأزياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الأوروبية وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد في أرجاء الغرب كله ، تصدر عنه الأزياء والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا ، وكان لها الشأن - كل الشأن - يومئذ في جميع البلدان ، فلا تقتضى فترة يسيرة من الزمن دون أن يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزى جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الأدب والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والأزياء ، فلما بدأت نهضة الأحياء الحديثة باستحياء الأساليب اللاتينية واليونانية رجب بها طلاب الجديد ريثما طال عليها العهد فبرموا بها وتطلعوا إلى نمط جديد ، فتوالى الأنماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية إلى المدرسة الواقعية إلى المدرسة البرناسية إلى المدرسة الرمزية ، إلى هذه المدارس التى تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء الواقعية تارة أخرى ، ولا تستقر طويلا على حال .

ولم يكن التفات الناس إلى عاصمة الأزياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد إلى تعاقب هذه المدارس بمختلف الأسماء والآراء ، وإنما صادفت هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع فى السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه .

فلا نجد فى غير فرنسا ولعاً كهذا الولع بالمدارس الأدبية المتلاحقة ، ولا سأمًا كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب وصيغة بعد صيغة . وفى فرنسا نفسها لا نجد هذه المدارس فى القمم العالية أو الأعلام البارزة من أفذاذ الأدب

المعدودين ، وإنما تجدها في بيئات الأوساط وأشباه الأوساط الذين يخضعون لموجات القلب وحركات التكلف والاصطناع .

أما أعلام الأدب الفرنسى من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأنتول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من الشارات ، وإذا بدت على أحدهم مسحة من هذه الصبغة أو تلك فهي مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما إلى طبيعة الانسان لا إلى قلب الأزياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، أولون البساطة ولون التنميق ، وسمها بعد ذلك بما تشاء من الأسماء .

٢ - ظهور الرمزية

وكان الصف الأول من صفوف الطليعة في هذه المدارس هو صف الأحياء ، أو صف الأساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة إلى بساطة « الطبيعة » على ألسنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفنن الأدباء في المجاز على أنماط شتى من الأساليب المجازية التي توشك أن تتعدد بتعدد الآحاد . فأسلوب هوجو مجازى ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها في موكب دائم من الطبول والأبواق ومن الغنائم والأسلاب ، وأسلوب لامرتين مجازى ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا في عالم مسحور تهاوس فيه الأرواح وتتخافت فيه الأصدا .

واتفق في الأيام الأخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ، وترعت كلتاها إلى الأسلوب المدرسى البسيط - أسلوب اللاتين واليونان - ممزوجة بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصيص .

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة لأن أصحابها يسمون أنفسهم بالبرناسيين المعاصرين متسبين إلى البرناس وهو جيل أبولون وعرائس الفن في اليونان القديمة ، فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الأدب اليونانى القديم ، ومحدثون

علميون من ناحية التجديد العصري على نمط لم يعرفه قدماء اليونان .
 وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أى الكلمة فى موضعها الذى لا تتجاوزه للتنسيق
 أو للتحويل . وعقيدتهم « أن الفن للفن » بغير قصد آخر غير أحكام التعبير وحسن الأداء .
 وأفرط البرناسيون كما يفرط الدعاة إلى المدارس الخاصة فيندفعون فيها إلى الطرف الأخير ،
 أو إلى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان افراطهم هذا مسوغا بعض التسوية لظهور
 الرمزيين .

٣ - مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة فى تعبير الإنسان ، بل عادة قديمة فى بديهة الإنسان .
 فالحالم مثلا يعبر فى منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا فى
 صورة وحش أو ماردمرهوب .
 والكاتب الذى لم يعرف الحروف الأبجدية يرمز إلى المعانى بالشخص والرسوم ، ويعبر لك
 عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ إلى الاستعارة بعد
 عرفان الحروف لأنها نوع من التصوير الذى يساعد على اختصار التعبير .
 وكهان الديانات يرمزون ويعملون كثيرا إلى الكنايات والألغاز ، لأنهم يعملون لغة اللين
 لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دنياها . فيختارون الرمز فى التعبير وان
 قدروا على الإفصاح والتصريح .
 والنسوك المتصوفون يرمزون لأنهم لا يستوضحون المعانى الغامضة التى نجيش بها نفوسهم فى
 حالة كحالة الغيوبة أو نشوة من نشوات الذهول ، فيؤثرون التشبيه لأنهم عاجزون عن
 التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم يرمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم إلى زيادة
 إيضاح .
 وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها فيشيرون إلى
 عقائدهم برموز يفهمونها ويعملون للألفاظ الشائعة معانى غير معانيها للتخفى عليها فى اللغة
 المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز إذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه .

وقد يكون الرمز اختصاراً لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة كرمز الرياضيين والكيميائيين بالخطوط والنقط إلى الأفلاك أو العناصر أو المقادير .

فالرمز شيء مألوف في تعبير الإنسان وفي طبيعة الإنسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكتابة ، وهي حالة الاضطراب والعجز عن الإفصاح ، فلم يرمز الانسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم أثر عليها الالتواء شغفاً بالالتواء .

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز أسلوب متفق عليه لا يحتاج إلى مدرسة تنبه الأذهان إليه . فالتخيل لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء والشاعر لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والازهار فالبسها ثياب الأحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد إلى التخيل والتشبيه فالتناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الإنسانية حيث كان الإنسان وبأى لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفجوى ذلك أنه لا حاجة إلى مدرسة لتعليم الناس كيف يرمزون ويكون حين ينبغي الرمز وتبغى الكتابة ، ولكنهم قد يحتاجون إلى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في دفعة الأفراس والغلاة ، وهي أن الحياة تنطوي على كثير من الأسرار ، وأن العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وأنه يفاجئنا أحيانا بمعاني لا تترجم عنها الألفاظ ولا غنى فيها عن الإشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة إلى هذا التذكير في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الأطراف إلى الأطراف .

فالعالم الأوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الإصلاح : طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه البديهة الإنسانية لتذكر العقل بالحقيقة التي نسيها في شططه وغلوته ، وهي أن البديهة الإنسانية تشاطر العقل حقوقه في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

فى الطور الأول كان السلطان للكهنه ورجال الدين ، وكانت النصوص التى يساء فهمها ويساء العمل بها هى مرجع المراجع كلها فى العالم والحكمة والفنون والآداب .
وفى الطور الثانى تفرد العقل بفسير كل شىء وزعم أن العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الأسرار . .

وفى الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعة المعهود فى أمثال هذه الأطوار ، فثار المفكرون أنفسهم على العقلية Rationalism كما ثار الفنانون على الواقعية Realism وسمعتا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذى يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

فى هذه الفترة ظهر الرمزيون فى الآداب الفرنسية وكان لهم حق فى الظهور .
بل ظهورها « متأخرين » عن رواد هذا المذهب فى الآداب الأوربية الأخرى ، وفى عالم الفنون التى لها تأثير بين على الآداب . .

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوى فى أرجاء القارة الأوربية قبل أن تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية إلى لغة الأغوار والكنايات ، وكان كولردج ورونتج وسوينبرن وتيسون من أعلام الشعر الانجليزى يتناولون المعانى الغامضة تارة بالرمز والكناية وتارة بالكلمات التى تماثلها فى الغموض ، ويكفى أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم فى روسو وفولتير ، وتأثير بيرون فى لامرتين ، ليدركوا أن المدرسة الرمزية فى الآداب الفرنسية لم تكن فريدة فى الآداب الأوربية حين ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وراجت إلى أوائل القرن العشرين .

لكنها ظهرت سائغة مدعوة إلى الظهور بدعوة التطور فى التفكير والشعور ، ثم استحقت الاحتجاب قبل أن تتمكن من الثبات على الأساس الصحيح . . وصدقت عليها الفكاهة التى تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا إنه كان يغنى بدرهم ويسكت بدرهمين .
فإن المدرسة الرمزية التى وجب ظهورها وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار Decadents ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لأن شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز أن يرمزوا إلى كل وضع خليع ، وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لازمة من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهايت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الأغمض منهما على الأوضح فى غير سبب

معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ وأقرب إلى البديهة وأثبت في الأفهام .

وما هو إلا أن تلقفوا من الأفواه كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن « الوعى الباطن » و « اللا وعى » للكون في أطواء النفس حتى اندفعوا من الرزية المتطرفة الجامعة إلى رزية أبعد منها في التطرف والجموح ، فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز ، والألغاز بالألغاز . وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لأن رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والأدعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملققة بين الأغنياء .

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرميون الغلاة من الوعى الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعى الباطن وما هو الوعى الظاهر على السواء ، فإن الوعى الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من المناظر والضماير والوجوه ، من شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطنا حيث خلقه الله ، فإن برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغى العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس ، وتقلب معالم الأجسام والأشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين بالقلم أو الريشة بالتخمين والتنجيم عن الوعى الباطن أو العقل الباطن لأنهم يستعدون لصناعتهم بمزج الألوان ونقل الأشباه لا بالتدريب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الألغاز .

فالرزية في حدودها المعقولة - ما لم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنائيات وأطيافا - تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء وهي ضرورية ما شعر الإنسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والأسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة إلى الضر إذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لأن الإنسان لا يحتاج إلى مدرسة ليكون انسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ، ويعبر بالكناية حين لا تسغه وسيلة غير وسيلة الكناية ، وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن استعارتهم إلا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات إلا حين أصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البهامة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على
غرور العلميين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسى والشعر الأوربى عامة من أوزانه المتحجرة
وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم أنهم : غنوا بدرهم
وسكتوا بدرهمين .

فهرس

صفحة

٥	تقديم بقلم طاهر الطناحي
٢١	ولادة قلم
٣٥	قلم يشق طريقه
٤٩	الصحافة قبل خمسين سنة
٧٣	أزمة قلم
٨١	بين الأمل واليأس
٨٩	بين الوظيفة والصحافة
٩٩	في الحرب العالمية الأولى
١٠٧	بين الموت والحياة
١١٥	ذكريات وشخصيات
١٥٥	في أرض الميعاد
١٦٩	دين وفلسفة
١٩٥	في الشعر العربي
٢١٩	أدب وفن

٠٠٦٩١



الهيئة العامة
للمكتبات والوثائق

١٩٨٣/٣٠١٦	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٤٦٧-٦	الترقيم الدولي

١/٨١/١٧١

طبع بمطبع دار المعارف (ج.٢٠٠٤)

هذا الكتاب

« الكتابة أصعب عمل يمارسه الإنسان » . . هكذا قرر
المفكرون والأدباء من زمن بعيد . .
وحياة المفكر أو الأديب يترجمها قلمه في صفحات كتبه .
والعقاد واحد من هؤلاء الذين صادقوا قلمهم طوال
حياتهم ، فذاق القلم معه مرارة الحياة ، وحلاوة الأمل ، ودخل
معه معاركه السياسية والأدبية والفكرية ، وترجم وجدانه شعراً
وفناً . . وذاكريات . .
وهذه حياة قلم العقاد يسوقها في صدق وصراحة بكل ما فيها
من معاناة ونضال ودعوة للحياة . .